.. وكانْ كلُّ ما كانَ، ما كانَ.

ن ن ن

مِحَنُ المحْو

أحـنُّ إلـى البـوح.. ربمـا أرتـاح حينًا لـو حكيتُ لأحـد الأحبّة كلمـاتٍ قليلات، أو لأحد الأعداء، فهل أجـدُ مَن يُنصت إليَّ فأرى صورتـي تتجلّـى على مرآتـه، فأراني، فأنجـو من دوَّامـات الوحدة الطاحنة الملقية بنا إلى قاع أعماقنا المعتمة. تلك الأعماق السحيقة، المشوبة باشتهاء التلاشي وإغواء الانتهاء.

إغـواءُ الفناء يملؤنـي الآن، ويُميلني إليه، فأميلُ مضطرًّا من فرط الترنُّـح.. الهـزَّات التي تهـدُّ أركاني، تسـحقني ثـم تبعثرني. لم يبقَ مني بعدما استطالت جلستي هذه، إلا اليسير من الحواسِّ. فليس لي غير سَـمْعٍ يؤرِّقني بأنّـات المحيطين وشَـمٍّ يعوقه إحتباسُ أنفاسي، وذاكرةٍ لمَ يبقَ فيها إلا آياتُ الرحمن.

هـل قضى الله علـيَّ بعد هَوَاني هذا، بالانهيار. سـبحانه، أم تراه يضعنـا كالمعتاد فـي المحن، ليتميَّـز الخبيث من الطيـب؟ هل الله يحتـاج ذلك! فلمـاذا إذن يعذِّبنا بالنازلات الماحقـات، وهو تعالى

العليـم الخبير الذي لا حُجة لأحدٍ عليه، ولـه على العالمين الحجَّة البالغة. مَن يدري، لعل الواسـع العليم له حِكمٌ خفيةٌ لا سبيل أمامنا إلى فهمها ﴿الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ .. طيب!

أَهُوَ مُحالٌ أن أرى ولو طيفَ إنسـانٍ، فأسـتريحَ لحظةً مما أعانيه ولا أعـرف له سـببًا؟ كُلُّ مـا حولي مِحَـالٌ، فالعتمة تلفُّـني بطبقات ظـلامٍ بهيـمٍ بعضُها في قلـب بعض، وفمي مكمَّمٌ بشـريطٍ لاصقٍ لا يمكنني لمسه بأصابعي، وأطرافي مقيدةٌ بإحكامٍ يحول دون التحرُّك ويجعل التجوال حُلمًا. لا هوانَ أنكَى مما يحوطني منذ الأمس. ففي جوف ليلةٍ بهماءَ كالعماء الأول، أخذتني هذه الطائرةُ العسكريةُ من سجن «قندهار» وحلَّقتْ إلى حيث لا أعرفُ، مع أَسْرَى لا أعرفهم، وحُرَّاسٍ عرفتُ قسـوتهم من قبيـح أفعالهم ومن صدق قوله تعالى: ﴿وإذا بطشتم، بطشتم جبَّارين﴾.

في ابتداء هذه الرحلة المريعة دسُّـوا في فمي قطعةً من زادٍ لدنٍ؛ كي تسـدَّ البطـن وتصدَّ الجـوع. ومنعوا عنـي وعن الجميـع الماء، ليخفت نداءُ الطبيعة فلا نزعجهم باضطرارنا إلى التلبية. وبلا سـببٍ مفهومٍ، وضعوا حول رأسـي كيسًا من قماشٍ أسود يردُّ النظر ويكتِّمُ الأنفاس، وحـول جسـمي لـفُّوا سلاسـل تقيِّـدُ اليديـن بالقدمين، وتشـدُّني بإحـكامٍ إلى الحلقـة المعدنيـة الناتئة من أرضيـة الطائرة. حتى القرود التي يُخشى انفلاتها، لا تقيَّدُ بمثل هذا الإحكام.

توهَّمتُ بسبب استحكام القيود أن الرحلة قصيرةٌ، وأن الحراس معذورون لأنهم مذعورون، وأن الإنسان لا ينحطُّ إلى ما تحت مرتبة الحيوان. فلما صدمتني الحقائقُ أغمضتُ عينيَّ لأدفع عني بالظلام

الظلامَ، وهمستُ في نفسي مواسيًا لها بكلماتٍ من مثل: ما الأسْرُ إلا استيلاءٌ على جسم سجين، ولكن لا سبيل لحبس الأرواح. والبُشرى ما كانت يومًا للمستريحين الهانئين، وإنما للصابرين من المؤمنين. وسوف ينتهي قريبًا ما أعاني منه، فما ابتدأ شيءٌ إلا صار له لا محالة آخرٌ، مهما امتدَّ، إلا الأولَ والآخرَ سبحانه وتعالى.

ساعاتٌ طوالٌ مرَّت عليَّ مريرةً حتى حطَّتِ الطائرةُ بنا في ناحيةٍ بعيدةٍ، فخمدتِ الأصواتُ من حولي حينًا عسيرَ الحسابِ والاحتمال، ثم هدرتِ المحركاتُ مجددًا وحلَّق السجنُ الطائرُ فأدركتُ أننا نبتعد عن بلاد الأفغان. بين الأرض والسماء لا أجد إلا الارتجاجَ، وزعقاتِ الحراس، ورائحةَ المأسورين التي تفوح حين ينزعون عن رأسي الكيس كي يُلقموني الطعام اللَّدِنَ الذي لا طعم له.. انقضى منذ إقلاعنا الأول وقتٌ لا يمكنني معرفة مقداره، فمن العسير حسابُ الوقت حين نُحجب عما يتحرك من حولنا، وحين نتألَّم، وحين نحدِّق بذهولٍ في سراديب نفوسنا.

استطال السفرُ المريعُ وليس معي غير قُرآني الجوَّالِ في بئري السحيقة، فلمَّا هجمتْ عليَّ الهواجسُ وتوالتْ عليَّ في الظلمات ظنونٌ من تلك العادياتِ ضَبْحًا، فالنازعات غرقًا؛ تماسكتُ بقدر المستطاع واستمسكتُ بحبل القرآن، ورحتُ أتلو منه في سِرِّي «سورة الرحمن» أحبَّ الآيات إلى قلبي وأقواها على دفع الوسواس. وفي القرآن سلوان. تيبَّستُ في جلستي واستعدتُ سرًّا ما أحفظه عن ظهر قلب، فاشتبكت بباطني دوَّاماتُ الآيات والأمنياتُ المشوبة بالمخاوف والتوقُّعاتُ المتشقِّقة بأسئلةٍ لا جواب لها: متى ينقضي هذا السفرُ وعذابُه المقيم ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

أتراهم يرحلون بنا إلى موضعٍ ناءٍ ليلقوا بنا في حفرةٍ كالمهاد، ويردموا علينـا بالتـراب والجيـر فنصير نَسيًا منسيًّا ﴿الرحمن عَلَّـم القرآن خَلَقِ الإنسـان﴾ وخلـق الله أيضًا غيرَ الإنسـان مـن الجماد وجنود الأمريـكان وسـائر الحيوان. لكـن القـرآن كان موجـودًا منذ الأزل ومعلومًا للأرواح وللملائكة، ثم خلق اللهُ الإنسـان وسـوَّاه، وأنساه ما سبق ليشقى في الأرض ويذكر ربه، فيتذكَّر إن صحَّتْ بصيرته أن أرواح البشر جميعهم، جمعها اللهُ إليه قبل خلق الأجساد وأشهدهم على أنفسـهم، فأعطـوه الميثاق. كل الناس في ذلك سـواء. فما بال هـؤلاء الجنود الغلاظ يعمهون في ظلماتهـم ويظلموننا ويتظالمون فيمـا بينهـم، كأن ربهـم خلقهـم سُـدى وكأنهـم إليـه لا يرجعـون؟ ولمـاذا يـا ربُّ جعلـتَ معظم النـاس مظلومين؟.. ليشـتكوا إليك!

أتراهـم يطيرون بنا الآن إلـى قلب البحر المحيـط، فيُطوِّحوا بنا من الأعالي ونحن مُصفَّدون، فنكون قوتًا للأسماك الكبار والحيتان ﴿علَّمه البيان﴾ وأراه الأهوال. ولكنِ ﴿الشـمسُ والقمر بحُسبان﴾ حقًّـا وصدقًا. ومهما احتجب عنا القمرُ والشـمسُ ونورُ اليقين، فإن هذا الحسبانَ سارٍ في الكون وذاك الحسابَ آتٍ، وفي النهاية سوف يرتاح المعذَّبون ويعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون.

لـو تنقلـب هـذه الطائـرة أو تنفجـر بنـا، فنصير فـي الهـواء هباءً منثـورًا. سـاعتَها سـأعود إلـى خالقـي وأكـون فـي زمـرة الفائزيـن بروضـات الجنّـات، ولسـوف تُلقِـي الزبانيـةُ عندئذٍ بهـؤلاء الجند وقوَّادهم في قعر الجحيم، فتشـرب من عظامهم شجرةُ الزقُّوم التي طلعُهـا كـرؤوس الشـياطين. هـذا جزاؤهم بمـا تحجَّـرتْ قلوبهم، واقترفت أياديهم.

هديرُ الطائرة عالٍ، لا يوصل لسـمعي إلا أصـداءً تملؤني فراغًا. فـي باطنـي قلـقٌ وأرقٌ، وإنهـاكُ الصحـو والوسـن حيـن يختلطان ﴿والنجم والشـجر يسجدان﴾.. لماذا ينسى الإنسان ضعفه وكدحه إلـى ربـه، فيطغى فـي الميـزان ولا يقيم العدل والقسـط فـي معظم الأحيـان؟ هل هـي أوهام التألُّه؟ تخايله، تُخبِّلـه، فيظن أنه خالدٌ في الأرض ولـن يـزول زمانُه ﴿كلُّ مـن عليها فان﴾. نعـم، مهما عظم المخلـوق أو هان، فهـو لا محالة إلى فناءٍ وانتهاء. فكأن كُلَّ ما كان، ما كان ﴿كلُّ من عليها فان﴾ إلا جنة المظلومين وجحيم الظالمين، فهمـا خُلدانِ لا يفنيـان. المظلـومُ المأخوذُ والظالمُ الآخِذُ، سـوف ينتهيان لا محالة عما يفعلان. ثم يبقيانِ في النعيم أو الشـقاء، حيث يُعذَّب ذاك الذي عتى واعتدى، ويُنعَّم آنذاك مَن عَانى وهَان.

في الجنة سألقى أمي وأُلقي بكياني المكدود في حضنها العميم، وأجهـشُ حينًا ثم أبوحُ لقلبها الرحيـم ببعض الذي كان ﴿فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان﴾ حاشـا لله. لن أكـذِّب يومًا، ومهما عصرتني نوازلُ المحن أو عصفت بي، فسـوف أراها من النعـم والآلاء الظاهرة، أو الخفيـة. وأومن يا قيـومُ، بأن هذا الهوان تطهيرٌ مـن هَناتِ الهفوات ومن الآثام الجسـام ﴿يسأله مَنْ في السماوات والأرض﴾ ومن بين الأرض والسـماء أسـألك ياجبار، أن تُرسـل علينـا الآن صاعقةً من تلـك التي تصيـب بها مَنْ تشـاء، فتقبض إليك روحـي خطفًا كلمحِ بالبصـر، وترفع عني بـلاء هذه الامتحانات الطاحنـات. وتُبعد عني هؤلاء العتاةَ العصاةَ وتُلقي بهم إلى قاع سَـقَر، لوَّاحة البَشَـر، التي لا تُبقي ولا تَذَر.

۞ ۞ ۞

راسـي ثقيلٌ عليَّ، كأنني أوشك أن أنام.. أو أُغيَّبُ عني بلا إرادةٍ مني. أو لعلني أتهيّأ للممات.

ن ن ن

مـرَّت عليَّ سـاعاتٌ كالأعوام العجـاف، مريـرةً، وبعدها جرى هَرَجٌ سـمعته مـن خلف الحجاب وقد بلـغ بي الإعياءُ مداه. أشـعرُ بالطائرة توشـك على الهبوط وتُهبط معها قلـوب الراكبين، وعندما سكتتِ المحركاتُ وانطلقتِ الأنفاسُ التي كانت مكتَّمةً، وتداخلت أصواتُ الجنود وصلصلةُ السلاسـل وهمهمةُ المتسلسـلين. أبقيتُ عينيَّ في ظلامي مغلقتَيْنِ، حتى نزع أحدُ الحراس عن رأسي الكيسَ الأسـود ورجَّ دماغـي بأصابعـه القابضـة علـى شـعري المنفـوش، ثم تركني حين فتحتُ عينيَّ فأيقنَ أنني لم أمت، ولم تأخذني غيبوبةٌ كتلك التي أصابت بعض المقيَّدين من حولي.

هـا هو النهارُ يقتحـم ظلامنا بقوةٍ من النوافـذ المرتفعة، وينفجر ضـوؤه المؤلـم للعينين مـع انفتاح بطـن الطائرة وانحـدار مؤخرتها المتحرِّكة إلى أرض مطارٍ لا يشـبه المطارات. الحراسُ المسلحون قصُّوا عن أطرافي الأشرطة اللاصقة، وتركوا القطعة التي تُغلق فمي فتوهمتُ أنهم نسـوها، لكنهم فعلوا مثل ذلك مع بقية المأسـورين. أطلقوا السلاسل من الحلقة التحتانية وراحوا يرفسوننا وهم يزعقون، ونحن مكمَّمون، لنقوم من قعودنا الذي اسـتطال زمنه وطال ألمهُ.. لا أستطيع النهوض بسبب خَدَرِ أطرافي، وحَذَرِ السقوط، ولا اقتدر الباقون من حولي على القيام.

الجنودُ الأشـداءُ شـدُّونا من السلاسـل وهم يتصاخبـون، وبعد جهدٍ أوقفونا في بطن الطائرة فصرنا مثل خُشُبٍ ليست مسنَّدةً، تتوق

إلـى الوقوع. القاماتُ تنوءُ بالقيـود الواصلة بين المعاصم والأقدام، فتمنعنا من القيام التـام وتجعلنا كأقواسٍ متتاليةٍ بعضُها بَعْدَ بعضٍ.. مضى وقتٌ مهينٌ قبل انتظامنا كصفٍّ موصولٍ من سلاسله، يُسـاق قسـرًا إلـى خارج الطائرة. لو أسـتطيعُ فركتُ عينـي بأصابعي لأتّقي هجمـة ضوء الضحى، لكن أحلام الصاغرين مسـتحيلاتٌ.. حائرًا، أو نصـف نائم، رحتُ أنحدرُ إلـى أرض المطار المعفَّرة المقفرة مع بقيـة المربوطيـن بي، كأننـا قطعٌ من أسـمالٍ بالية أو خِرَقٌ يمسـكها خيطٌ يهترئ. من الأمام أتانا زعيقٌ كالنعيق، بل النهيق:

- «انتبه، أنت الآن في قبضة المارينـز»

صـاح بذلـك جنـديٌّ قبيحُ الأنـفِ، أشـقرُ، يقف من خلفـه جندٌ كثيرون ضخامُ الأجسام كالبغال. كلهم مستنفرون بأسلحتهم كأنهم سـيدخلون فورًا في حربٍ ضروس، وكأننا الأعداء الأشـداء. عقب صيحة الزاعق، سـكن المتسلسلون وسـاد من حولي سكونُ القبور المنبوشـة، بينما يصفِّر هواءٌ حارٌّ في أذني ويلفح وجهي. لوهلةٍ، بدا كلُّ ما حولي محض خيالٍ، فتمنيتُ أن ينقشـع عني ولا يطول. لكن الأماني خادعات.

جـاءت حافلةٌ مكشـوفةُ السـقف كتلـك التي كان أبـي ينقل فيها الخـراف، لكنها أنظفُ قليـلًا ومطليةٌ بلون الجيـش المبقَّع. دفعونا إليهـا وهم يصرخون فينـا متوعِّدين بالويلات وغاضبين بلا سـبب، وأخـذوا ينخسـون ظهورنا حتـى أصعدونا إلـى الحافلـة على لوحٍ معدنيٍّ مخرشـفٍ، يناسـب أقدامنا الحافية، وعلى ظهرها أجلسـونا في الهواء متقابلين. عددُنا يقارب العشرين مُهانًا.

هيئة المأسورين تُخبر بأنهم من الأفغان والعرب الأفغان، وبأنهم من أتعس البائسين. وجوههم يابسةٌ، وأسمالهم مهترئةٌ، وعيونهم المطفأةُ شاردةُ النظرات. راح أحدهم يحدق نحوي كالمخبولين ولا يحوِّل عني عينيه الواسعتين المدهوشتين، وقد جمد وجهه الجاف المنفوش حوله شَعرٌ شَعِثٌ كثيف. ربما يستغربُ سُمرتي، أو هو مذهولٌ لا يرى، أو مشنوقٌ بغير حِبال. سوف أعرفُ بعد زمنٍ طويلٍ أن اسمه «مُحبُّ الحور». حوَّلتُ عنه ناظريَّ، ورنوتُ إلى المدى الممتد بعدما دعكتُ عيني بحوافِ راحتيَّ، فرأيتُ بحرًا قريبًا ترسو على شاطئه مركبٌ كبير.

ليتَهم صبروا علينا قليلًا ولم يسرعوا بإعادة رؤوسنا إلى الأكياس السوداء، فقد كادت مقلتي تعتاد النظر في الأنحاء وكفَّ قلبي عن الوجيب المتسارع، ولكن.. «هيا، هيا».. تصايح الجنودُ من حولنا بنبراتٍ مهتاجة، فتحرَّكتِ الحافلةُ ببطءِ الجنائز ثم تسارعت رويدًا وتزايد بنا الاهتزازُ، فأدركتُ من دون يقينٍ أننا نتجه ناحية البحر، وتنسَّمتُ العبقَ البعيد متنهِّدًا. للبحر رائحةٌ تحرِّك الأرواح، وللقهر مقدرةٌ على هَدِّ أركان اليقين. ظهري تملؤه الأوجاع كأن فيه أشواكًا دِقاقًا، وكذلك ركبتاي، لكن روحي التحفتْ بالذكر الحكيم وحلَّقت مجدَّدًا بأجنحة الآيات المواسيات:

﴿مَرَجَ البحرين يلتقيان، بينهما برزخٌ لا يبغيان﴾.. اللهم اجعل بيني وبين هؤلاء الظالمين برزخًا وسدًّا، وكُفَّ أيديهم عني وعن جميع المسلمين، فهم يا إله العالمين لا يرحمون. فارحم أنت يا رحمان، يا رحيم ﴿كل يوم هو في شان﴾ كن اليومَ يا ربُّ في شأني الضئيل، وأدركني بنظرةٍ منك لا أبالي بعدها بأيِّ أمرٍ يصير،

وارحمْ هؤلاء المساكين المصفَّدين معي، فهم عبادك المحزونون المحرومون والمحتاجون إليك.

الحافلةُ توقفت بعد طول إبطاءٍ وكشف جنديٌّ عن رؤوسنا اسوداد الأكياس كي نستطيع النزول، فوقفنا مثل موتى من قبورهم ينتشرون. هبطنا وهم من حولنا يضربون الظهور والرؤوس المنفوشة من غير سبب، مع أننا ننزل معهم تباعًا مستسلمين ونركب في السفينة متسلسلين. ولما استوينا على ظهرها جالسين، جاء جنديٌّ طويلُ الأصابع غاضبُ النظرات ولفَّني بالكيس الأسود وبالظلام الخانق، مجدّدًا، فأعادني إلى التجوال في العتمة. مع الاهتزاز صرفتُ خواطري عن البؤس بالاستغفار والابتهال: يا ربُّ، أدعوك بالكلمات المنجيات من بطن الحوت ﴿ربِّ لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنتُ من الظالمين﴾ وأبتهلُ إليك يا كريم كي تكشف الضُّرَّ وتزيح البلاء، ولا تسلِّط علينا مَنْ لا يخافك ولا يرحمنا.. ثم عدتُ إلى سورة الرحمان ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾.. نعم، نعم يا ربُّ، أُفرغْ لهم وأنت الجبار المنتقم. وانظرْ لنا، وأنت أرحم الراحمين ﴿فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان﴾ أشهدك يا ربُّ بأنني من المصدِّقين الصابرين في السرَّاء والضرَّاء، مهماكان الصبرُ مُرًّا مذاقه والبلاءُ عظيمًا ﴿فإذا انشقَّتِ السماءُ فكانت وردةً كالدِّهان﴾ هذا الموعدُ، هو..

- «هيَّا تحرَّكوا يا حيوانات».

تصايح الجندُ مجددًا من حولنا، وعندما رست بنا السفينةُ بعد حينٍ لم يمتد عند شطٍّ ليس فيه إلا مرساها. إلى أين يذهبون بنا؟

الجنود البواسلُ استنهضونا بالرفسات كأنهم يحاربون وكشفوا رؤوسنا لنصعد إلى حافلةٍ محكمةِ الإغلاق، أخذتنا نحو أرضٍ جرداء لمحتها قبل تعتيم عينيَّ. هي بقعةٌ واسعةٌ فيها كتلةٌ كبيرة من أسلاكٍ شائكةٍ، تحوط أسلاكًا شائكةً فيها مبانٍ معدنيةٌ لم أتبيَّن هيئتها مع دفعات الجند المتعجِّلين، الزاعقين. الرحلةُ من مرسى السفينة إلى كتلة الأسلاك الشائكة، لم تستغرق غير دقائق معدودات وفور دخولهم بنا من البوابة أفرغونا في موضعٍ خالٍ مسوَّرٍ بأسلاكه المشوَّكة، وأجلسونا في صَفَّين ثم فكُّوا الوصلات بين أصفادنا، فتوهَّمتُ أنه سجنٌ مكشوفٌ أو معسكرٌ ناءٍ لجيشهم في جهة مهجورةٍ من بلادهم، ورجوتُ أن يكون مكانًا أرحم من سجن قندهار المريع. حدَّثتُ نفسي لاستجلاب الأمل، وأسرفتُ في التمنِّي: قد أجد هنا عقلاءَ منهم يسمعونني، فأعرِّفهم بأنني بريءٌ مما يظنون أو يعرِّفونني هم بما يتوهَّمون ويتَّهمون، فأدفع عني التهم والشبهات وأردُّ هؤلاء العتاة عن عماهم، وأخلُص من ثِقَلِ هذا الكابوس.

البقعةُ الخالية التي عمرت بحضورنا، مسوَّرةٌ بطبقاتٍ متتاليةٍ من الأسلاك المشوَّكة، لكنني لمحتُ من فُرَج الأسوار أشجارًا بعيدةً أطرافُ رؤوسها الخضراء تطلُّ من فوق الرُّبى، فاعتبرتها بشرى ربانية يثبِّتُ الله بها قلبي الكئيب.. ما كدتُ أغمض جفنيَّ كي تغوص الشمسُ في رأسي، وتؤنسني، حتى شعرتُ بجوعٍ يتَّقدُ شرارُهُ رويدًا حتى يحرق معدتي. تشاغلتُ عن جوعي والنعاس بالنظر إلى أقراني القابعين على الأرض، مواسيًا نفسي باختلاس اللمحات لاستكشاف ما حولي. الهواءُ هنا حارٌّ ثقيل، لكنه محتمل،

الرحيمُ هو ضوء الشمس التي تخدِّر كتفيَّ بالدفء وبالرفق تلمس رأسي المتوَّج بالشَّعْر المنفوش، فتُشيع راحةَ الاستراحةِ بين زمانين كلاهما قاسٍ. السفرُ انتهى. وهذا سكونُ الظهيرة يهدِّئ الأنفاس، ويسحبني نحو أُفقٍ لا شيء فيه. أتمنى لو أنام قليلًا..

«لا تلتفت، لا تتكلَّم، لا تتحرَّك». من خلفنا زعق حارسٌ مهووسٌ بهذه الكلمات الحاكمات اللاكمات، فطَنَّ صدى صوته في أذنيَّ كأنه يأتيني من وادٍ بعيد، ودارت برأسي دواماتُ الأسئلة التي لا تنتهي، ثم تسارعت متتاليةً: متى ينتهون؟ أتراني سأنام بعد حينٍ على سرير؟ ألن يقدِّموا لنا أيَّ طعام؟ ما هذا الخبلُ المحيط؟ لماذا ذهبتُ إلى بلد الأهوال المسماة أفغانستان، وكان بإمكاني الرحيل عن بلاد الخليج لأسكن بمصر أو أبقى بين أسرتي في السودان؟

سَكنتِ الأنحاءُ من حولي لحظةً أو صُمَّتْ أذني عن الاستماع، ثم رأيتُ ضابطًا متأنِّق الهندام يأتي مزهوًّا بنفسه كَذَكَر الإِوَزّ، تحجبُ عينَه نظَّارةٌ زرقاءُ ذات عدساتٍ عاكسةٍ كالمرايا. جاء من خلفنا يتبختر بخيلاءَ وحوله ثلاثةُ رجالٍ مختلفةٍ ملامحهم، فانتصبوا أمامنا بصرامةٍ كأنهم يؤدُّون دورًا مرسومًا لهم. أخذ المزهوُّ بنفسه يتلو علينا ما عنده، والثلاثةُ من حوله يترجمون كلماته الإنجليزية إلى العربية، وإلى البشتونية والأُردو اللتين يتحدَّث بهما الأفغانُ وأهل باكستان. قال المختالُ الفخورُ، ما ترجمته:

بالتأكيد، لست هنا لأرحِّب بكم، فأنتم لا تستحقون ذلك. جئتُ لأحذِّركم. أنتم تجسيدُ الشر. أنتم عدوٌّ محاربٌ لأمريكا. وقد

استخدمتم ضدنا أحقر الوسائل، لكنكم الآن مهزومون، ومن حسن حظكم أنكم أحياء. وأنا أعرف أن لكم أدمغةً فاسدةً مريضة، مليئةً بالعنف والإرهاب؛ ولذلك أحذركم. لن يظل الحظُّ في جانبكم إذا فكرتم في أيِّ عصيان. العصيان جزاؤه الموت، والتفكير في الهرب جزاؤه الموت، والتخريب جزاؤه الموت. وعندما يتعاون الواحد منكم مع المحققين، سوف تكون أمامه الفرصة لمحاكمة عادلة. ولكن اعلموا الآن أن الكلام بينكم ممنوع، والاعتراض ممنوع، وعدم طاعة الأوامر.. أنت يا حيوان .. أنت.. لماذا تنظر ناحية السور؟

انهال الحراسُ بالعصيِّ على المسكين الذي نظر ناحية السور، فأخذ يتقلَّى تحت مطر الضربات حتى تكوَّم حول أصفاده وهو يموء مثل قطةٍ وليدةٍ، لفظتها أحشاءُ أمها بناحيةٍ قاحلة. ظلّوا يزمجرون وهو يئنُّ، حتى أشار إليهم الضابطُ الإِوَزيُّ فأوقفوا بطش عِصِيِّهم، وأكمل هو تلاوة ما يحفظه: الكلام بينكم ممنوع، والاعتراض ممنوع، وعدم طاعة الأوامر عقوبته قاسية.. لا أسئلة، ولا

تباعد عني الصوتُ وأصداؤه وغُصتُ إلى أعماقي مستكملًا جَوَلاني بين آي القرآن، حتى مَرَّ وقتٌ لا حساب له. يا رب، متى ينتهون؟ رطوبةُ الهواء الساكن تُثقل صدري، وحرارةُ المكان تجثم على الأنفاس فتستدعي السأم وتستجلب النعاس. في جوف أذني طنينٌ وجفناي يتباطآن، ورأسي كأنه حفنة رملٍ مبلول. لو أنام الآن متوسِّدًا هذا التراب أو أُسلم الروح إلى ربي، فسأرتاح. الصورُ في عقلي تختلط ، فلا أراني قادرًا على النظر أو الإنصات إلى ذكر الإوز المحذِّر من العصيان والهروب. ما هذه الكلمات؟ هروب. من

أين! وإلى أين؟ وكيف؟ ما هذا المكان؟ هناك بحرٌ بعيد، وأحلام.. راحة.. نورا.. نيل..

انتبهتُ من غفوة الغياب على هياجٍ ممزوجٍ بشتائم كثيرة، وركلات. جنودٌ كثيرون يقتربون خلف واحدٍ منهم قاتم اللون، ضخمٍ. يشبه فرس النهر. جاء يضحك بفحشٍ وهو يرفع آلةً لامعة من تلك التي يستعملها الحلاقون، وبها مال على أول جالس بالصفِّ وجزَّ منه شعر الرأس واللحية والحاجبين. ترك من الشَّعر ما يرسم الصليب على رأس السجين، ثم انتقل بسرعة إلى التالي وأصحابه من حوله يضحكون، وبقية المقيَّدين ينظرون مشدوهين. الذين قاوموه بما تبقى فيهم من رمق، ضُربوا بقسوةٍ حتى استكانوا واستسلموا للعبث اللاهي بتشويه الهيئات. لم أقاوم. أخذني الذهولُ عما يفعله المهووسُ برأسي ووجهي، وتفرَّقت خواطري مع حلزونات شعري المتدحرجة على الأرض، فكنتُ أتساقطُ معها وأتفصَّدُ. ويبعثرني مثلها الهواءُ الحارُّ.

انتهى الحلاَّقُ اللاهي من المرح المقيت، وخرج سعيدًا من حدود دائرة البؤس المؤطَّرة بكرات الشعر المنفوش، وفي قلبها يقبع المسجونون. هل نحن مسجونون، أم نحن مأسورون في حربٍ لم ندخلها، أم أعداءٌ مهزومون حسبما يزعمون؟.. أنا ما عاديتُ أحدًا ولا حاربتُ يومًا، ولا اقترفتُ ما يستوجب الأسر. سوف يدرك هؤلاء الجهلاء قريبًا أنهم مخطئون، وأنني لا أنتمي إلى هؤلاء الجالسين من حولي وحول أجسامهم السلاسل. وعندما يسألونني، سوف أُصرُّ على السابق من أقوالي: لقد اختطفوني بطريق الخطأ من عند الحدود التي كانت تفصل بين باكستان

وبـلاد الأفغـان، وكنتُ أقـوم بتغطيـة الأحداث هناك. وسـأضيف: ربمـا قمـتُ عن غيـر عمدٍ بخطأ غيـر مقصود، فقد كنـتُ جديدًا في المهنـة وغريبًـا عـن المـكان، لكننـي لسـتُ العـدوَّ الـذي يظنون.

تلفَّـتُّ حولي وقد تهيَّـأتُ للصياح بالإنجليزيـة معلنًا أني بريء، عسـى عاقـلٌ منهم أن يسـمعني، لكنني تريثتُ حيـن رأيت اثنين من الجنـود مُقبلين بهمةٍ عالية وملامـح صارمة، بيدِ أحدهم مقصٌّ كبير والآخـر بيده رأس خرطوم يمتد من خلفـه. جاء بعدهم مزيدٌ منهم، فصاروا قرابة عشـرين، فيهم مجنداتٌ خليعـات تكاد تنفتق أبدانهنَّ مـن داخـل الأرديـة العسـكرية. قصّوا عنـا ملابسـنا وأوقفونـا عُراةً إلا مـن قيودنـا، وفتحـوا علينا خرطـوم الماء الدافق فسـقط جماعةٌ مـن المغسـولين، وكدتُ أسـقط مثلهـم. راح البعضُ منا يتسـتَّرون وهم يجهشـون من شـدة الخـزي وفُحـش العُري، فتضحـك منهم المجندات والمجندون وهم يشـيرون إلى أسافلنا قُبلًا ودُبرًا. رأيتُ شـناعةً كهذه من قبلُ في قندهار، لكنَّ هذا أمعنُ في الإذلال المهين وأنكَى لمنهكين لا يملكون إلا التساقط في طين المهانة.

متى يتحرَّك الغضبُ الرباني فيبطش بالظالمين؟ الجنودُ تعبوا من عبثهـم وتخافتت رويدًا ضحكاتهم فعاودوا العبوس، بعدما صارت الأرضُ من حولنا كالعجين. بعد حينٍ أخذونا إلى بقعةٍ أجفَّ وفكّوا عنَّا القيود تباعًا، والتقطوا صورًا لنا ونحن عراة لا تسترنا إلا أيادينا، ثم ألبسونا رداءً من قطعةٍ واحدةٍ لها لونٌ برتقاليٌّ ناصعٌ، براق. كنتُ فـي طفولتي أحبُّ هذا اللون، لكنني الآن لسـت بقـادرٍ على الحب أو الحنيـن إلى الألوان. اللبـاسُ البائس ليس فيه فتحات من الأمام، فهو قطعةٌ واحدةٌ خشـنةُ القماش تشـبه الزِّيَّ الذي يلبسه العُمَّالُ في

المصانـع، لكنهـا تُغلق بأزرارٍ تُحاذي سلسـلة الظهـر ليصعب على اللابس خلعها بيديه.

صَفُّونا مثل حبَّات البرتقال اليابس قرب الجدار المعدني القريب، وقـد صرنـا كالعراجين المعوجَّة أو بؤسـاء المهرِّجين. نحن البؤسُ متجسِّـدًا. ليـس فينا إلا عيونٌ غائـرةٌ حائرةُ التلفُّـتِ، تطلُّ من وجوهٍ نحيلةٍ حليقةِ اللِّحى والحواجب، وفوقها جبهاتٌ عليها علاماتٌ من أثر السـجود، تعلوها رؤوس مرسـوم عليها بالشَّعْر الصُّلبان، تحتها أبـدانٌ هزيلـةٌ تهتزُّ من رجفات البـرد والعار. لا عارَ بعـد هذا العار. نظرتُ فيمن حولي بعين مشـدوهٍ، وغمرني هوسٌ مفاجئ فوجدتني أصيـح في الحراس المحيطين بصوتٍ كالصراخ، قائلًا لهم بلغتهم: مـا هذا الجنـون؟ أنتـم مخطئـون، أنا أعمـل بالإعـلام والصحافة.

ارتاعـوا مـن فورتي المفاجئة، وضحك واحدٌ منهـم وهو يكرِّر آخر كلماتي «برسّ» التي تعني في لغتهم «الإعلام والصحافة» بينما غضب زملاؤه وتطوع ثلاثةٌ منهم بإسكاتي بالسافعات دكًّا. سقطتُ علـى الأرض مـع انهمار ـموب بنادقهـم، وتكوَّمتُ متألمًا متكسِّـرَ الأركان كَسِـيفَ الروح، ومنكسـرًا على نفسي. سوف يسمونني من يومها، على سبيل السخرية: برسّ.

مـع دخول المغرب أخذونا معصوبي الأعين إلى ناحيةٍ تبعد عن بركـة الطيـن أكثر من مائـة خطوة، وهناك كشـفوا عن أعيننـا الغطاء وهـم يزجُّون بنا تباعًا في زنازين مكشـوفة الأجناب، تشـبه أقفاص الحيوانـات التي بالحدائق المفتوحة. فـي قفصٍ منها، فكَّ الحارسُ قيـودي من خلف بـاب الزنزانة المغلـق، وقبل أن يفارقنـي مع بقية

الحراس والمحروسين أخبرني باسمي الرسمي وهويتي الجديدة: أنت رقم ستَّة سبعة ستَّة.

لم أتبيَّن شكل المكان إلا فجرًا، فقد أخذني نومٌ كالممات فلم أشعر بشيء طيلة ليلتي. أين أنا؟ صدمني السؤالُ حين أفقتُ فوجدتني أسكنُ قفصًا مسيَّجًا لا تحوطه إلا قوائمُ القضبان، وألواحٌ معدنيةٌ مكسوَّةٌ بطبقة من طلاءٍ قديم، يعلوها الصدأ. كان لونها ذات يومٍ أخضر. البرودةُ تحوطني، تتخلَّل كتفيَّ وقدميَّ العاريتين وتُرعشني، وعيناي زائغتان، لا يمكنني الرؤية عبر جوانب الزنزانة لكن الباب فيه القضبان الكاشفة، ويمكنني أن أرى من خلالها.. تزحَّفتُ مستطلعًا بوجلٍ، فرأيتُ جنديًّا من الحراس يجلس قبالة زنزانتي صامتًا، ويحدِّق نحوي بغيظٍ وهو يمسك سلاحه بكثيرٍ من الترقب والحذر. منظره في غبش الفجر غريب. غاظه أنني أُمسك بقضبان باب الزنزانة فقام إليَّ ونهرني، وشتم بألفاظ المشرَّدين في شوارعهم. عدتُ بسرعةٍ إلى الزاوية الأبعد، وقبعتُ مثل كومةٍ من أوراق الشجر الجاف. بجانبي دلوٌ فارغٌ أدركتُ بعد برهة أنه لقضاء الحاجة، لكنه بغير غطاء. لا ماءَ هنا للوضوء. تيمَّمتُ مع علمي بعدم جواز التيمُّم في الحضَر، لكنه حُكم المضطر، وقمتُ مكبِّرًا بصوتٍ خفيضٍ لأداء الصلاة الحاضرة والفائتة: الله أكبر، الله أكبر..

«اسكتْ يا ابن الخنزيرة». زجرني الجنديُّ الجالسُ قُبالةَ زنزانتي دون أن يقوم من مكانه، فتغافلتُ عنه وأدَّيتُ الفرض همسًا، وفي خاطري المعنى الذي كُنَّا نكرِّره ونحن صغار: الذي يسبُّك بأُمِّك، يشتم أُمَّه هو فهو لا يعرف أمَّك، لكنه يعرف أُمَّه.

الصلاةُ أدفأتْ قلبي وسكبتْ عليه السلوان، فأطلتُ فيها وقضيتُ ما فاتني في سفري الذي قدَّرتُ أنه امتدَّ يومين، ثم صلَّيتُ ركعاتٍ نوافل حتى أتاني مع نور النهار حارسٌ شاب يحمل مخلاة فيها عبوَّات مياهٍ صغيرةٌ دفع لي واحدةً من بين القضبان، وقال آمرًا: «اشربْ» فشربتُ. طلب مني العبوة الفارغة ولما مددتها أخذها بحذرٍ، ورمى إليَّ بغيرها وقال: «اشربْ» فشربت. فعل ذلك مراتٍ حتى استغربتُ الأمر وقلتُ له بعد العبوة الخامسة: إنني لا أريد المزيد، فقال مندهشًا: عجيب، أنت تتحدث الإنجليزية! فعرفتُ أنه لم يحضر بالأمس حفلة احتفائهم بقدومنا.

رحل الحارسُ من أمام الباب بعدما نظر نحوي بكثيرٍ من الاحتقار المشوب بالإشفاق، وجاء بعده حارسٌ آخر طويلُ الأنفِ ضيقُ العينين يحمل لفائف لامعة فيها شطائرُ خبزٍ طريٍّ كالعجين، بداخلها لحمٌ بارد. ألقى ناحيتي واحدةً وقال: « كُل» فقلتُ: «بسم الله». بعد أول قضمةٍ، ضحك وهو يقول لي مُتشفِّيًا: هذا لحمُ خنزير. فقلتُ مجددًا: «بسم الله» وأكملتُ القضم والمضغ على هونٍ، بينما الحارسُ يرقبني باهتمام. بعد انتهائي طلب مني الورقَ اللامع الشفاف الذي كان يلفُّ الشطائر، ولما ألقيته إليه التقطه بأطراف أصابعه وهو يشمئزُّ، كأنني مجذومٌ يُخشى من انتقال عدواه. أمر الله. توهمتُ أنه سيعطيني المزيد من الطعام مثلما فعل حامل الماء، لكنه انزوى عن باب زنزانتي وهو يهزُّ رأسه متعجبًا من شهيَّتي.. عدتُ إلى آخر زنزانتي، متزحِّفًا، وتمنيتُ أن أصرف الخاطر عن الحاضر باستجلاب بعض الذكريات السعيدة، عساها أن تُبدِّد هذه الوحشة. لكنني فشلتُ. ومتى كنتُ سعيدًا؟ لعلها الأيام

المعدودات التي كانت بالإسكندرية، وليلة دخلت على «مهيرة» في بخارى، وسويعات الصيد بالصنارة من بحيرة النوبة المنبسطة خلف السدِّ بجنوب أسوان. لا شيء أكثر، وما عدتُ الآن أقدرُ على استعادة تلك اللحظات البعيدة، مستحيلة التكرار.

سَكَنَتِ الأجواءُ من حولي وشعرتُ ببرد البواكير يغزو عظامي، فانتظرتُ أن يعاودني النومُ الشبيه بالإغماء. لمستُ رأسي متحسِّسًا الصليب المرسوم بشعري فسالتْ في الخفاء من عيني دموعٌ ما استطعتُ حبسها، وتكوَّرتُ في جلستي حتى أتاني من باطني دفءٌ ودوارٌ دافعٌ إلى النعاس، فتمدَّدتُ على قطعة المطَّاط الملقاة فوق الأرضية المعدنية، وأسخنتُ صدري بضمِّ ذراعيَّ إليه وركبتيَّ.. كأنني نمتُ.

مع شمس الظهيرة اشتمل الأنحاءَ الحرُّ فجذبني من هدأة الوسن، لكنني بقيتُ متكوِّمًا بموضعي حتى عبر حارسان يوزِّعان الطعام منزوع الطعم، وعبوَّات الماء. شربتُ كثيرًا وأكلتُ وحمدتُ الرزَّاق، ثم أدَّيتُ صلاةَ الظهر غير واثقٍ من دقة المواقيت وجلستُ في زاوية الزنزانة أُراودُ نفسي المتحيِّرة لتهدأ، عساها أن تتعقل وتتقبَّل الأمور. استعدتُ في سرِّي الآيات المادحة للصابرين، وطمأنتُ نفسي بأن الأزمة إذا اشتدَّتْ فهذا يؤذنُ بانفراجها القريب، ولا ييأس من رَوْح الله ورحمته إلا القوم الكافرون، والعياذ بالله.

لم أَرَ في الغد التالي، غير ما جرى بالأمس السابق. سكونٌ تامٌّ يحيط. لا صوت يُسمع إلا حين يمرُّ الحراسُ على عجلٍ بالطعام والماء، ليحفظونا أحياءً لغايةٍ في نفوسهم. لو تركونا نموتُ جوعًا لجعلونا في زُمرة الشهداء، ولكن هيهات.. من دون أي اختلافٍ

مـرَّتْ عليَّ أيامٌ ثقـالٌ بطيئةُ الخطـو، وما عاد الحـراسُ المارون بي يتكلمون معي أو يتمهَّلـون كي أكلِّمهم، حتى الحارس الذي جلس قبالـة زنزانتي في ليلتي الأولى،لـم يعد من يومها إلى موضعه. لا بد أنهم الآن يراجعون أوراقهم وسوف يكتشفون قريبًا أن الذي جلبني جَانَـبَ الصـواب، فيطلقونـي. سـأعود إلى «الدوحـة» لأصطحب زوجتـي المسـكينة «مُهيـرة» المحصـورة هنـاك، وأسـحب مالـي المدخَّـر في البنك. وسـوف أطالـب أصحاب المحطـة التلفزيونية براتبي خلال شهور اعتقالي، فهم الذين ألقوني في الأتون المشتعل من دون إعدادٍ ولا اسـتعداد. لن أطلـب منهم غير حَقِّي، ولن أعمل بعدهـا معهم. سـأرحل عـن بلاد الخليج مـع أول طائرةٍ. سـأفرُّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله، فأستقر مع مـــهيرة في «أمِّ درمان» حينًا حتى أتوسَّـل السـبل للاسـتقرار بمصر. سأُقيم في أسـوان؟ لا، لن أعمل في السـياحة والإرشـاد. لا أحبُّ أن أرى الأجانـب مجدَّدًا، يكفيني مـا رأيته منهم. سـأعيش قـرب البحر فـي الإسـكندرية، فعندي من المال ما يسـمح بشـراء شـقةٍ صغيرةٍ، ودكَّـانٍ بقالةٍ مـن النوع الذي يسمونه هناك «سوبر ماركت» مهما كان الدُّكَّان صغيرًا. لن أجعل له اسمًا أعجميًّا. سأضع على اللافتة كلمةً عربيةً فصيحةً واضحة، مثل «بقالـة الأمانة» وأبيـع للناس ما يحتاجون بأقل ربـح وبأمانة، فيعمر المحلُّ بالزبائن ويبارك الرزَّاق في الربح القليل. أهلَ الإسكندرية لا يكرهون الغرباء، لكنهم لا يحبون الكلمات القديمة. كانوا يسمونني اسمًا طريفًا، وسوف أسـمِّي به الدكَّان «سوبر ماركت سمارة»، هذا سـيكون مقبولًا عندهم أكثر. سـأمضي السـاعات جالسًـا في صفوٍ أتطلع لوجوه زبائني ، وأبادلهم لطيف العبارات. هل سيحتاج الأمر

تصريحًا بالعمل والإقامة؟ لا، لن يطلبوا مني ذلك؛ لأنه سيكون عندي بيتٌ هناك ودكانٌ، وربما أتزوَّج الإسكندرانية ..

برسّ، تعالَ يا حيوان، ستذهب للتحقيق.

صلصل الحارسُ بالسلاسل وهو يصيحُ بذلك مبتسمًا من دون سبب، وبجانبيه انتصب جنديان عابسان. قمتُ إليه ومددت يديَّ من الفتحة الصغيرة التي بوسط باب القضبان فقيَّد مني المعصمين، ومن الفتحة التحتانية قيَّد قدميَّ، ثم وصل بين القيدين بسلسلةٍ تضطرني إلى الانحناء قليلًا للأمام. بعدما اطمأن إلى إحكام قيودي وأنا محبوسٌ بقفصي، فتح بابي وأنا أتلو في سرِّي «سورة ياسين» لاستجلاب الفرج القريب. عند نزولي الدرج على مهلٍ حَذَرَ الوقوع، صار الحراسُ الثلاثة مستنفرين كأنني جيشٌ قد يهجم عليهم. كان بيدِ أحدهم كيسُ القماش الأسود المعدّ لرأسي، ولما وقفتُ في وسطهم منحنيًا كاد يحجب به عينيَّ، لولا قال له زميله الضخم باستخفاف: دعه يَرَ زملاء الجهاد.

ليته حَجَبَني فرحمني مما رأيتُ. الزنازينُ أقفاصٌ مبعثرةٌ على جانبيْ شارعٍ عريضٍ متعرِّج، وقد قصدوا ألا ترى واحدةٌ منها الأخرى بأن تركوا أرضًا جرداءَ لتباعد ما بينها، وجعلوا أبوابها غير متقابلة حتى تطل وتفتح على جهاتٍ متخالفة. من جهة اليمين لم أرَ ساكن الزنزانة الأقرب، وبعد خطوات رأيتُ في الجهة اليسرى زنزانةً صغيرةً مفردة، فيها سجينٌ عارٍ مقيَّدٌ بسلاسل تشدُّه إلى صندوقٍ حديدي كي ينكفئ فوقه، فيصير ظهره المنحني مواجهًا لشارع الزنازين، ولمن يدخل عليه. أبهتني بؤسُ منظره وأسال

استسلامه دمعي، فوقفتُ لحظةً أحدِّق فيه بينما الحراسُ الثلاثة من حولي يتضاحكون، وهم يكرِّرون الكلمة الفاحشة الجارية دومًا على ألسنتهم: «نكاح» وهي التي ينطقونها هنا «فَكْ» ويكرِّرونها في كلامهم كأنهم يتلذَّذون بترديدها كل حين. أرادوا إيلامي بإعلامي أنهم يفعلون الفاحشة في الرجل، وأنني لستُ بمنأى عما يقترفون، فهطلتْ من عيني دموعُ الآلام وانعدام القدرة.

مروا بي في هواءٍ حارٍّ من أمام زنزانةٍ كبيرةٍ، فيها خمسة مسجونين على رؤوسهم الصُّلبان المرسومة، مثلي. لمحت بينهم الرجل المشدوه الذي حَدَّق نحوي على ظهر السفينة، فوجدته على حاله مشدوهًا. الأسلاكُ الشائكة كثيفة الإحاطة بالمكان الغريب ذي الرائحة المنتنة، الخليق بسكنى المفترس من الحيوان. أمرُ الله. مستسلمًا سرتُ وسط العُتاة، والضخمُ منهم يتسلَّى بصفعِ قفايَ كل حين ويضحك، فأبكي. ثم، لم أدرِ بما جرى. كأن صفعةً بخشبةٍ أو حديدةٍ جاءتني من الخلف، فأسقطتني على وجهي وصُدِمتْ بالأرض جبهتي.. غبتُ ولما استفقتُ متألمًا، وجدتني في الزنزانة مطروحًا كالقماش القديم على الأرضية المعدنية، بلا سلاسل، وظلامُ الليلِ يلفُّ الأنحاء.

نظرتُ حولي بعينٍ حائرة. يدور حول الزنازين ضوءٌ كشَّافٌ يأتي من مكان عالٍ، وبالأحرى مكانين؛ لأن الأضواء تتقاطع في بعض المواضع وتركب فوق بعضها البعض، وتهجم بغتةً على باب زنزانتي. نظرتُ إليَّ بعينٍ حائرة. ماذا جرى معي عند خروجهم بي ساعةَ العَصْرِ؟ ما الذي أصابني؟ أكان ضربةً لم أحتملها، أم إغماءً مفاجئًا دهمني، أم انهيارًا جرفني من فرط الهول؟

متزحِّفًا وصلت قرب الباب مثقل الرأس بالألم وبالأسئلة التي بلا إجابات، فلم أجد في الأنحاء المحيطة إلا الصمت والظلام والأضواء الدوَّارة والهواء الثقيل. تحسَّستُ مؤخرة رأسي فلمستُ نتوءًا يُؤلم، فعرفتُ إجابة واحدٍ من أسئلتي وظلت البقية تدور داخل دماغي كحجر الرَّحى. الرَّحى. تذكرتُ أمي أيام طفولتي، حين كانت تفترش الأرض وتدشُّ الحبوب بالرحاية، لتأكلها الأفراخ الصغار المتقافزة في حوش البيت من حولها، ومن حولنا، وتذكرتُ نظرةَ الأسى الساكنة في عين أبي وجلساتِ صمته الطويل عند بوابة البيت، ونحن من أمامه نلعبُ بغفلات الطفولة. وتذكرتُ كلمةً قالها الشيخ «نقطة الأكبري» في أول مرة زرت فيها مجلسه، ليلةَ مسَّ رأسي بأطراف أصابعه وراح يتمتم بكلماتٍ مُبهماتٍ تملأ القلب راحةً، ثم قال بوضوحٍ كأنه يخاطب شخصًا آخر بداخلي: المريدُ يجد في القرآن ما يريد.

صدق الشيخُ، بالقرآن يستغني الإنسان عما سوى الله. وإذا حضر الله في قلب الإنسانِ، أنساه ما سواه، حتى طعامه والشراب وسائر الحاجات. صرتُ منذ ذاك اليوم كلما اشتدَّ بي الجوعُ وهَصَر معدتي، تلوتُ في سرِّي الآيات فأنسى ما أنا فيه من طلب الجسم للغذاء، وأذهلُ عما أعانيه.. غير أن أرواحنا تطلب أمورًا أدقَّ، وأرهف مما يحتاجه البدن من محسوسات، وتسمو بنا دومًا إلى آفاقٍ أرحب. الروحُ سماويةٌ. تفرح بالعروج إلى سقف الخيال مهما كان البدنُ كسيحًا حبيسًا، وقد تبتهج بالجوع أيام الصيام، وقد تأسى للذكريات مع أن الجسم مرتاحٌ فتؤلم، وقد تؤرِّقنا حين تحيرنا بالأسئلة: ما الذي أتى بنا إلى هنا؟ وما سرُّ هذا الاختبار الرباني

المرير؟ ولماذا خلق الله الإنسان ﴿من نطفة أمشاج، نبتليه﴾ ثم أبعده عنه، وجعله يسعى إليه وأخبره بمنتهاه ﴿يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحًا، فملاقيه﴾ فلأيٍّ سببٍ كان النأيُ أصلًا؟ وما غايةُ الله من البشر؟ هل ﴿ليعبدون﴾ فيعرفون الكنز المخفي في نفوسهم، ويبقى الله هو الغنيَّ عن العالمين وعن عبادتهم المستغني عنها؟ الملائكةُ تنبأتْ يوم الخلق الأول بأن الناس سيفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء، فدفعهم القولُ الإلهي الذي لا مردَّ له ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

من أين أتى الملائكة بعلم ما سوف يفعله الإنسانُ، وهم يجهلون أصلًا أسماء المساوئ، وقد أقرُّوا لربهم وقالوا: ﴿لا علم لنا إلا ما علَّمتنا﴾ ثم انصاعوا للأمر الرباني فسجدوا للإنسان. فهل كان سجودهم لآدم، أم لعموم البشر من أمثالنا؟ وكيف استقوى إبليس واستأمن من بطش الله، وعصاه، واستهدفنا بسهام الغواية. ولما حذَّره الرحمانُ من العصيان، قال متبجِّحًا، بلا اتقاءٍ ﴿ فبعزَّتك لأغوينَّهم أجمعين﴾؟

يا رحمان يا رحيم. بحقِّ هذا الصبح الذي يتنفَّس لا تكلني إلى نفسي فأضلَّ في مفاوز قرآنك الكريم، وهبْ لي الفهم وعلِّمني التأويل. وارزقني الرسوخ في العلم حتى أقول مع القائلين: ﴿آمنا به، كُلٌّ من عند ربنا، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ وهَبْ لي من لدنك رحمةً أحتملُ بها عذاب هذا السجن المكين، وأصبرُ بمشيئتك على صلف الأمريكيين الذين لا يعرفون لهم إلهًا، إلا الهوى والضلال المبين.

«يا حيوان، ألا تزال حيًّا، خذ الماء والطعام». هل جاء هذا الحارسُ يتسحَّبُ حتى فوجئتُ به، أم غاب وقع خطواته عن أسماعي لاستغراقي فيما يدورُ بباطني ويُدير كالرحى رأسي؟ لا أعرف. نظر الحارسُ إليَّ بخيلاء المقتدرين وألقى عبوات الماء واللفافة المعتادة، وانتظر حتى أفرغَ وأسلِّمه الفوارغ، فرأيتُ الفرصة سانحةً لسؤاله عما جرى معي بالأمس. قال باقتضاب إنه أُغمي عليَّ، من ضربة شمسٍ.

- *ضربةُ الشمس لا تسبِّب هذا الورم بمؤخرة رأسي.*

- *لا تجادلني، اشربْ بسرعة.*

- *لماذا أنت غاضب؟*

لماذا! لأنني خسرتُ عشرة دولارات، فبالأمس حين رأيناك تنتفض ويخرج من فمك الزَّبَدُ، تراهنَّا على أنك ستموت خلال الليل.

لم أجد ما أمدُّ به خيط الكلام، فالتزمتُ الصمت حتى انصرف الحارسُ. لو كان الأمر بيدي لجعلتُ هذا السفيه يكسب رهانه البائس، لكن الأمور جميعها بيدِ الله. سألته من بين القضبان بعدما ابتعد عني بخطوتين، عما كانوا سيفعلون بجُثتي لو كان قد جاء فوجدني ميتًا، فقال وهو يغيب عن نظري، بلسانٍ ساخرٍ: لا تقلق على جثتك، كنا سندفنك تحت هذه الزنزانة، وبذلك لن يعرف أحدٌ أنك جئت أصلًا إلى «جُوَّنتنامو».

الكلمةُ الأخيرةُ التي تفوَّه بها الحارسُ، كان وقعُها على أذني عجيبًا، ومريعًا. لماذا يسمُّون سجنهم بهذا الاسم الغريب

«جُوَّنتنامو»؟ لا تبدو الكلمة إنجليزيةً ولا يُعقل أن تكون فرنسية، مع أن لها وقعًا فرنسيًّا. ربما. لو كانت عربية فهي تجمع بين الجوَّانية والنوم، وكلاهما قريبٌ من معنى السكون والموت. ليكن هذا الاسم حسبما يكون، فلا فرق! فالأسماء كلها صارت عندي سواءً، والمعاني.

بقيتُ جالسًا قرب الباب مثل تمثالٍ قديم، حتى صَدمتْ باطني الآيةُ ﴿ويلٌ للمصلين﴾ فانتبهتُ إلى سهوي عن صلاة الصبح وقد اقترب الظهر. لا ماء هنا للوضوء ولا تراب يصحُّ به التيمُّم. مثلما فعلتُ من قبل، خبطتُ كفيَّ على الأرضية المعدنية كأن فيها رمالًا طاهرة، ومسحت على وجهي وعلى الذراعين حتى المرفقين ثم صلَّيتُ جالسًا؛ لأنه لا مقدرة لي على قيامٍ أو سجودٍ وركوع. كُلُّ ما فيَّ يؤلمني. لكن اللهُ رحيم، وهو تعالى يحبُّ أن تؤتى رُخصه كما يُحب أن تُجتنبَ نواهيه. انتهيتُ، ثم تلوتُ في سرِّي أدعية ختام الصلاة، وفوق بساط الملل نمت على ظهري كمومياءَ تالفةٍ ملقاةٍ في العراء.

الأيام التالية مرَّتْ متشابهاتٍ، كشأنِ أوقاتِ الموتى الذين لا ينتظرون بعثهم ولا يصدِّقون به.. وصارت روحي والساعاتُ خاوية، ليس فيها إلا النومُ المتواصلُ والرؤى المشوَّشة في نهاري، وفي ليلي الطويل الأرقُ الدائمُ وهجومُ الأضواء الكاشفة. في أيِّ يومٍ صرنا، وأيُّ شهرٍ هذا؟ الحراسُ لا يتحدَّثون معي ولا يتمهَّلون للإجابة عن أسئلتي. أراهم لثوانٍ فينكسر سكون الساعات الطوال، والنهار الصامت، والليل الكتوم. ما عاد في ليلي ونهاري ما يلوِّن الأيام. لماذا يلقون بي في غَيابة هذا الجب السحيق؟ هل يريدون أن يجتاحني الهوسُ الذي يكون حين نتلمس خفايا نفوسنا، ويستعينوا

علينا بحُرقة الوحدة وخطر الانفراد؟ مَنْ قال إني وحيدٌ منفرد؟! أليس الله بكافٍ عبده؟ ألم يقل: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾.. الله معي، ومعي قرآنه المحفوظ في صدري وفي اللوح المحفوظ، وليس أمامي إلا استجلاب الأنس بتلاوة الآيات، وبالصلوات، حتى وإن لم يصحَّ الوضوء.

لكن الحراس بعد زمنٍ مديدٍ صاروا يتكلمون معي أحيانًا، فعرفتُ أن أغلبهم من المجندين الجدد، ومن المهووسين بالأوهام. ولما استطال الكلام معهم مع مرور الأيام، عرفتُ منهم بعد شهور أشياءَ كثيرة، منها أنهم قالوا إن هذا السجن المسمَّى «جُوَّنتنامو» هو واحدٌ من معتقلاتٍ عسكريةٍ، تُسمَّى المواقع أو الحفر السوداء، وهي لا تقع داخل حدود أمريكا ومعظمها مجهولٌ لا يعرف عنه الناسُ شيئًا. لكن هذا المعتقل الذي نتعذَّب الآن فيه، سمع به أناسٌ كثيرون داخل أمريكا لأنه قريبٌ منها، ولا يفصله عنها غيرُ بحر. هو مكانٌ مُستأجر من كوبا منذ عشرات السنين والكوبيون لا يحبون وجود الأمريكيين فيه، ويكرهون جنودهم كراهيةَ الأتقياء للموبقات، لكنهم لا يستطيعون طردهم فيصبرون عليهم على مضضٍ، حتى ينتهي عقد الإيجار الذي مدته مائة عامٍ. لم يبقَ منها اليوم الكثير. وهؤلاء الجنودُ والحراسُ الذين يملأونَ المكان، يبالغون في إهانتنا لأنهم مأمورون وآمنون من اللوم والملاحقة القضائية؛ لوجودهم خارج بلادهم. وهم ينتظرون انهيارنا آملين في اعترافنا بأمورٍ خطيرة يتوهَّمونها، منها أن رعاة الماعز من مسلمي أفغانستان، هم الذين قاموا بتفجيرات العام ٢٠٠١ المروِّعة التي أسقطت الأبراج والهيبة. وانخلع لها قلبُ الناس داخل أمريكا، وفي العالم كله.

والسَّجَّانون هنا يحرصون على إبقائنا أحياءً ليحصلوا على تلك الاعترافات التي يتمنَّون، وهم لا يدركون أن معظم المحبوسين ليس عندهم أصلًا ما يعترفون به، ويجعلوننا نشرب مياهًا كثيرة لظنِّهم أن ذلك يقي أجسامنا من الأمراض الوبائية، التي يخشون انتقال عدواها إليهم إذا أصابتنا. وعرفتُ منهم أن المأسور هنا، ليس له أيُّ أملٍ في خروجٍ أو هروبٍ أو رحمة. لكنني لم أيأسْ من روح الله.

ں ں ں

الأيامُ والأسابيع توالت عليَّ ساكنةً كئيبةً، حتى توقَّفتُ عن عَدِّها وعن الاعتداد بأيِّ شيء، بل صرتُ اللاشيء. كأن الكون كفَّ عن الدوران من حولي، وصار يدور بباطني. أنامُ طويلًا وأصحو على أضغاث الأحلام والدَّوَار الذي ينتظرني ليدفعني إلى نومٍ جديد، وما عاد يستحق الانتباه إلا نوادر الأحداث مثل الجلبة التي سمعتها ذات يومٍ آتيةً من الناحية اليمنى، ومن جهتها جاء إلى باب زنزانتي مجندٌ ضخم من القطع المعتاد هنا. جاء يضحك ببلاهةٍ وهو يحمل في يده مصحفًا ممزقًا، وبعدما وقف ينظر إليَّ بعينين تتراقصان فَرَحًا وخبَلًا، قال: «يا ستَّة سبعة ستَّة، هذا كتابكم المقدس». ومزَّق منه أوراقًا رماها على الأرض ودهسها بحذائه وهو يضحك ويرمقني بزاوية عينيه الضيقتين، منتظرًا ما سيكون مني. لم أُحرِّك ساكنًا، واكتفيتُ بالنظر تجاهه مثلما يجب النظر تجاه أيِّ مخبول، فاقترب بحذر من باب الزنزانة وقال وهو يرفع الكتاب ويهزُّ عوده كالنساء المائعات: «هذا قرآن».. وبحمقٍ قبيح ألقى المصحف على

الأرض، بعدما مزَّق ورقةً منه وبالغ في تقطيعها نتفًا وهو يقهقه كحمارٍ ينهق، ثم طوَّح في الهواء بالقطع الورقية الممزقة.

قلَّبت في الهواء كفِّي، بهدوءٍ، وبلا اهتياج كان يتوقَّعه اللاهي ويريده. فانصرف من أمامي خاسئًا وخلفه زملاؤه الذين قال لهم وهو يشير إليَّ بإصبعه، ويهزُّ رأسه: هذا مجنون تمامًا، مجنون تمامًا.. بعد قليلٍ، سمعتُ تكبيراتٍ أتت عاليةً كالصراخ من الناحية اليسرى فاقتربتُ من الباب، ولكن لم يظهر لي إلا الشجرةُ العجفاءُ الموضوعةُ قبالة باب زنزانتي.. هذه الشجرة تبدو وسط الزنازين، كأنها مشهدٌ في فيلم مُضجرٍ في النهار ومرعبٍ في الليل. لماذا يُرعب الأمريكيون الناس بأفلامهم البائسة؟

ما عدتُ أترقَّبُ استدعائي للتحقيق مجدَّدًا، فالانتظار استطال حتى توهَّمتُ أنهم نسوني هنا. شغلتُ فراغي بالذِّكر وبالصلوات المهموسة، ودفعتُ عن عقلي الجنون بالدوران بين معاني الآيات التي أحفظها على ترتيب ورودها في المصحف. كنتُ كثيرًا ما أرتجفُ مع توالي التلاوة لآياتٍ مُزلزلاتٍ من مثل ﴿إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا، وبُسَّتِ الجبالُ بسًّا، فكانت هباءً مُنبثًّا﴾ ثم أستبشر إذ تنفسح الجنة أمام عباد الرحمن ﴿السابقون السابقون، أولئك المقرَّبون﴾ فأدعو مرتجفًا: اللهم لا تبعدني عنك يوم العرض العظيم، واجعلني في زمرة المستريحين في مراتع الجنة ﴿على سُررٍ موضونةٍ، متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدانٌ مخلَّدون﴾ واعفُ عني بحق قولك في سورة الحديد: ﴿من ذا الذي يقرضُ الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له، وله أجرٌ كريم﴾ وقولك بعدها: ﴿ألم يَأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ آنَ يا ربَّ العالمين، آنَ، الآن.

ن ن ن

فـي يوم غائم شـديدِ البـرد، توهَّمتُ أنـه من أيام الشـتاء، تمطَّى الفجـرُ متثاقلًا حتى امتدَّ غَبشُـهُ ومطره الكثيـف إلى وقت الضحى. توهمـتُ أنني وحيـدٌ في هذا الكـون، وأن كل ما أظـن أنني أراه هو مجرد خيـالٍ. أوانَ الظهر سـمعتُ أطيط الطين وحشـرجة الحصى تحـت أحذيـة حـراسٍ. جاءنـي ثلاثـةٌ منهـم عابسـون، صفَّدونـي بالسلاسل وهم يتحاشـون الاقتراب مني وأخذوني من الزنزانة إلى غرفـة التحقيق من دون إهانتي بحجـبٍ أو ضرب، لم أرَ في طريقي ذلـك السـجين الذي كان مـن قبلُ مقيـدًا وهو عـارٍ. كانـت زنزانته خاوية. رأيتُ زنازين عامرة بالمعتقلين تتناثر على الجانبين، ليسـت كلها مفردة كزنزانتي. معظمها أقفاصٌ كبيرة تحبس ثلاثة مسجونين أو أربعة، ومنها ضيقةٌ لسجينٍ واحد. لماذا حبسوني منفردًا؟

راح السـجناء عند مروري أمام أقفاصهم، يكبِّرون، ليشجِّعوني. وعندمـا مـررت مـن أمـام القفـص الكبيـر المحبـوس فيـه خمسـة مسـجونين، هتفوا لـي وكبَّروا، كأنني مجاهدٌ يخرج في سـبيل الله. ابتهجـتُ، ثـم انتبهـتُ إلـى أنني لسـتُ مجاهـدًا وأن هذه، ليسـتْ سُـبُلَ الله. في غرفة التحقيق الواسـعة، معدنية السـقف والجوانب، أجلسـوني على المقعد الحديدي وشـدُّوا إليه قيودي والبردُ يُرعش أطرافـي. قبل ابتـداء التحقيق لكزونـي من خلفي بكعـوب بنادقهم من دون سـبب،كأنهم يلعبون، وربما أعجبهم اللعب فتمادوا. نتف أحدهـم بعضًا من شـعرِ الصليب المرسـوم على رأسـي فصرختُ، فضربونـي وهـم يضحكون ويسـخرون ويشـتمون، ثـم تركوني في الغرفة منفردًا أرتجـفُ وينتفض كتفاي من ألم البرودة المنهمرة من مكيـف الهواء الكبير. عرفـتُ لاحقًا أنهم فـي التحقيقات يتعمَّدون

تبريد الهواء لرفع المعاناة على السجين، أو لسببٍ آخر أخفَى في نفوسهم وأخبث.

طال انتظاري وسط السكون، فقدَّرتُ أنهم يراقبونني من حيث لا أرى، وقلت في سري مهما جرى فلن أضعف أو أنهار، وسأصبر على تلك الألاعيب كلها حتى أرى ما يكون في النهاية. بعد ساعة صمتٍ باردٍ دخل المحقِّقان ومن خلفهما بعض المجندين الأشداء، فقلَّتْ برودةُ المكان بعضَ الشيء. المحقِّقُ الأشقر سألني بالإنجليزية إن كان الأسهل عليَّ الكلام بالإنجليزية أم بالعربية، استغربتُ غباءَ السؤال وقلتُ باقتضاب: «العربية». المحقِّقُ الآخر ذو الملامح الهندية تحرَّك على كرسيه مستوفزًّا، وسألني بلهجة مصرية صريحة: إنتَ عارفْ رقمك؟ فسألته: إنتَ مصري!

- *جاوب على قدّ السؤال، وبس، عارف رقمك؟*

- *ستَّة سبعة ستَّة.*

- *تمام كده، قُل لي بقى يا شاطر، إنت إيه حكايتك؟*

حكيتُ له أهمَّ الوقائع منذ خروجي من الخليج إلى أفغانستان لتغطية أحداث الحرب، واحتجازي بطريق الخطأ عند الحدود مع باكستان، وكيف سُجنت بطريق الخطأ في قندهار مع أناسٍ لا أعرفهم فقضيتُ أسابيع عصيبةً لا أعرف عِدَّتها، بعدها نقلوني إلى هنا وحبسوني كحيوانٍ مفترسٍ ونسوني. قاطعني المحققُ الأشقرُ، فاكتشفتُ أنه يعرف العربية، بأن قال ما ترجمته: نحن نعلم ذلك كله، قُل لنا ما يفيد وتعاونْ معنا لنختصر الطريق، وتكون أمامك فرصة المحاكمة العادلة أمام المحاكم الأمريكية: هل قابلت

أسامة بن لادن؟ سألني عن ذلك بصوتٍ زاعقٍ، كأنه يريد أن يرجّني كي تتساقط مني الإجابات، فلم أكترث وقلتُ بهدوءٍ كاظمًا غيظي:

- *سألوني عن ذلك منذ شهور في سجن قندهار، وأجبتُ.*

- *لا مشكلة، أجبْ من جديد.*

- *قابلته بالصدفة مرةً واحدةً منذ سنوات بعيدة في السودان، أيام كان يعظ الناس ويرعى المساكين والفقراء.*

- *هل قابلته في أفغانستان أو باكستان؟*

- *لا، وأنا لم أقضِ هناك إلا أيامًا قليلة.*

- *ومَنِ الذين قابلتهم خلال تلك الأيام القليلة، مِنْ مساعدي بن لادن وأعضاء حركة طالبان؟*

- *لم أقابل منهم أحدًا.*

- *أنت تكذب، قُلْ ما تُخفيه واعترف بما تعرفه.*

- *لا أخفي أيَّ شيء، ولا أعرف أيَّ شيء.*

أعاد المحققُ الأشقر ظهره إلى قائم كرسيه كأنه قد أُنهك، ونظر إلى زميله المصري شبيه الهنود، وهو يهزُّ رأسه ويمطُّ شفته السفلى كالمتأسِّف. أطال المصريُّ النظر في عينيَّ، لإفزاعي، ثم قال إنني إذا لم أعترف الآن بكل شيء، فسوف يأخذونني إلى سجنٍ مصريٍّ اسمه «العقرب» فيه من العذاب ما لا يخطر على البال. لم أرد عليه بشيء لكنني اضطربتُ من نظرته القاسية المتوعِّدة، فنظرتُ إلى الأرض وقررتُ التزام الصمت التام حتى يجعل الله لي مخرجًا.

قام المحقِّقُ الأشقرُ فأتى نحوي يحمل كرسيّه البلاستيكي الخفيف، ووضعه قبالتي وجلس في مواجهتي ليسألني بنبرةٍ أهدأ، وأمكر.

- أخبرني، هل أنت متديِّن؟

- نعم، الحمد لله.

- فلماذا أكلت الشطائر التي فيها لحم الخنـزير؟

للضرورة.

- ماذا تقصد، أليس هذا اللحم محرَّمًا عندكم وعند اليهود؟

- لا شـأن لي باليهود، هو في ديننا محـرَّمٌ حين يتاح طعامٌ غيره، وعند الضرورات تُباح المحظورات.

فهمتُ، أوكِّي. هل وجدت طعمه طيِّبًا؟

- لم أجد له أيَّ طعم.

قام عني المحقِّقُ وقد تقوَّس كتفاه، فصارت له هيئة الضِّباع حين لا تجـد طعامًـا. دار حولي دورتيـن والكلُّ صامـتٌ يترقَّب، ثم عاد إلى جلسـتهِ السابقة وسألني كالمتهكِّم عن السبب في عدم انفعالي، عندمـا مـزَّق أحدهـم المصحـف أمامـي. التزمـتُ الصمـت. أعاد السـؤال بألفـاظٍ أخرى أسـهل، وأضاف أنه يصرُّ علـى معرفة وجهة نظري، فقلت إنه لا توجد أيُّ وجهة نظر! فهذا الحارس سفيهٌ، وهو لا يفهم أن القرآن المقدَّس ليس صفحاتٍ في كتاب، وإنما هو كلام اللـه المحفوظ في صدورنا وفي اللـوح المحفوظ، وقد قال الله إنه كتابٌ مكنونٌ لا يمسُّه إلا المطهرون، وهذا الحارس غير طاهر وغير

عاقـل، ولو مزَّق ألف مصحـف مطبوع فلن ينمحي القرآن؛ لأن الله يحفظه، وقد أكرمني فحفظته كاملًا.

لا أعـرفُ سببًا لإفاضتي في الـكلام، ربما راق لـي أن المحقِّق الأمريكي لم يفهم معظم كلامي وبدا مغتاظًا كمن تسعى على جسده أسراب النمل الفارسي. ثم بدا كالذي لدغته عقربٌ عابرة، فقد حملق فيَّ بعينين تجحظانِ واستشاط حقده والتهب وهو يقول ما ترجمته: مـاذا؟ تحفظه كله، لماذا؟ فأجبـتُ باقتضاب: لينير لي ظلمات القبر بعد الموت.

- *كيف، هل هو طاقة كهربائية؟*

- *لا تشغل بالك، فلن تفهم ذلك.*

وددتُ لو أزيد، فأُفهمه أن القرآن يضيء قلبي في ظلمات الحبس الظالم، ولو لا آياته لكنتُ جُننْتُ، لكنني أحجمتُ عن ذلك وصرفتُ خاطري بعيدًا عن المحقِّق الحانق حين تذكَّرت قوله تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنَّـةً أن يفقهوه﴾ وقوله جلَّ وعلا: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ فآثرتُ التزام الصمت مجدَّدًا. لكن المحقق أَصَرَّ على إظهار حُمقه وإعلان جهله بقوله وهو يتذاكى على طريقة الأمريكيين: حسنًا، يعني لو أعطيتك الآن قرآنًا، فهل تمزِّقه؟

أجبته من فوري بالعربية: «حاشا لله» فلم يفهم واستفهم، فقلتُ له بالإنجليزية: إنني لن أفعل شناعةً كهذه، وإنما سأحتفظ بالمصحف للتبرُّك به. دَعَكَ الرجل ذقنه الدقيق بأصابعه اليابسة، وهزَّ رأسه كأنه يسمع كلامًا عجيبًا، ثم عاد بظهره إلى ظهر كرسيه كمن يرتاح بعد جهد جهيد! كان المحقق المصري يبتسم ابتسامةً غير معلنةٍ، فتشجَّعتُ وسألته باللهجة المصرية عن السبب في

أنهم يحبسـونني وحدي، ولا يضعونني فـي زنزانةٍ مع آخرين. فقال بالعامية: يعني، هُمَّ شايفين إنك خطير شوية، ومختلف.

سـاد صمـتٌ يدل علـى انتهاء التحقيـق، وقـام المحقِّق الأحمق ليخـرج غيـر راضٍ مـن الغرفـة، ولحـق بـه المحقـقُ المصـريُّ والمجندون فصرتُ وحدي من جديدٍ في الغرفة الباردة، ورجع إليَّ ألمُ العظام.. ما هذا السـكون؟ هل عادوا لمراقبتي من وراء سـتار؟ ما الذي يتوقَّعون أن يروه؟ نجِّني منهم يا ربَّ العالمين. الصمتُ تامٌّ من حولي، إلا من حفيف ريشـة المكيِّـف التي لا تكفُّ عن الحركة وضخٍّ الصقيع، وآلام ظهري اجتمعتْ معها وخزاتُ الجوع والرغبة في النوم المواسي.. أين ذهب هؤلاء؟ مَرَّ وقتٌ طويل وأنا متخشبٌ على الكرسـي، وليـس حولي إلا هـذا الفراغ. كأنني منسـيٌّ هنا، أو أنهـم بي يلعبون. سـأصبر وأسـبِّح في سـرِّي حتى يحيـنَ الحين: يا فتـاح، افتح لنـا بالخير. يا وَهَّاب، هَبْ لي مـن لدنك رحمة. رَبِّ لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنتُ من الظالمين..

اندفـع الباب ودخل المجندون مجددًا وراء محقِّقٍ جديدٍ يرتدي حُلَّةً أنيقةً سـوداء، ومن ياقة قميصه الأبيـض تتدلى ربطةُ عنقٍ فاقعة الاحمـرار كاللهيب. قال بسـرعةٍ إنه ضابطٌ إنجليـزي منتدبٌ مؤقتًا للعمل مع المخابرات الأمريكية في حربها ضد الإرهاب، وإنه يريد مسـاعدتي لأنه يحب المسـلمين ويقرأ كثيرًا عن الإسـلام، ثم شرع بعـد تمهيداتـه هذه في إجـراء التحقيق. قلتُ له قبل أن يتم السـؤال الأول، إننـي لـن أجيب عن أيِّ شـيء حتـى أعرف أولًا مـا تهمتي، ومـا هذا المـكان المريع، وما الـذي يريده منـي الأمريكيون؟ فقال بهدوء: «حسـنًا، أنت بالنسـبة لهم عدوٌّ محارب، وقد صرتَ أسـير الحـرب ضـد الإرهاب، والمطلـوب منك هو الاعتـراف بما لديك

من معلومات». ثم سألني فجأة إن كنت أكره الأمريكيين؟ فقلتُ من فوري إنني أكره هذا الظلم الذي يفعلونه بي، من دون سببٍ مفهوم.

- *هل تراهم مخطئين؟*

- *نعم. مخطئون في حقي، وهم مغرورون بأنفسهم، لكنهم في الواقع تافهون ولا يعرفون شيئًا..*

رفع المحققُ حاجبيه كالمندهش ورسم على وجهه ابتسامةً مُستخِفَّةً، وبعدما تأملني مليًّا بعينين تلمعان بالمكر قال واثقًا بلهجته البريطانية الفخمة، ما ترجمته: لا أظن أن أحدًا قد أخطأ في حقك، فنحن نعلم عنك الكثير. على سبيل المثال، أنت رفضت التعاون معنا من دون إبداء سبب، ثم تعاونت مع الجماعات الإسلامية الإرهابية، وكنتَ تقوم بتوصيل الأموال لتمويل العمليات الانتحارية في وسط آسيا، وبالتحديد في جمهورية أوزبكستان، وكان اسمك الحركي آنذاك «أبو بلال المصري»، وتزوَّجت امرأة من المجاهدات وأخذتها معك من بخارى إلى دول الخليج، وكنت تقوم بتحويل بعض الأموال من الخليج إلى السودان، ثم عدت إلى وسط آسيا بحجة العمل الإعلامي، ودخلت أفغانستان ساعيًا لمقابلة أسامة بن لادن والاتصال بجماعة طالبان، وكنت..

«هذا الكلام غير صحيح». صرختُ بذلك مقاطعًا تخريف المحقِّق، فارتاع وكفَّ كلامه. طنَّ في الغرفة الباردة صمتٌ ثقيلٌ، ولما رأيتُ في غمرة اليأس أنني هالكٌ لا محالة، اندفعتُ قائلًا للمحقِّق ما فحواه أن كلامه كله غير دقيق. فالله يعلم أنني لم أتعاون معهم ولا مع غيرهم، ودفعات المال التي أوصلتها إلى بخارى كانت لإنشاء مصنع حلمتُ بأن أكون مديرًا له، والاسم الذي يظنونه

حركيًّا ليس إلا دعابـة لاطَفَني بها رجلٌ طيب من «الأوزبك» عندما رفعتُ الأذان للصلاة، وأعجبه صوتي. وزوجتي المسكينة هي بنتٌ يتيمـةٌ، لا تجاهـد إلا فـي مطبخ بيتها. وأنـا لم أفكِّر يومًـا في مقابلة أسـامة بـن لادن، ولا أردتُ يومًـا لقاء جماعة طالبـان الذين يقتلون مخالفيهم، ويدمِّرون الآثار القديمة بدعوى الدفاع عن الدين وإقامة شرع الله.

بـدا المحقِّـقُ البريطانـي مرحِّبًـا باندفاعـي، فقد راح يهزُّ رأسـه وهـو يُنصت باهتمام، كأنه يستدرجني للإفاضـة. لكنني رأيتُ فيما قلتـه كفايةً فتوقفتُ؛ خشـيةَ أن أُفضي بما يأخذونه حُجَّةً عليَّ. سـاد الصمتُ فما عاد يُسمع بالغرفة إلا وجيبُ قلبي المضطرب، وفحيحُ مكيِّـف الهـواء الذي بلغ بردُه مداه. بداخلي سـكونٌ لا سـكينة فيه، وقلقٌ، وترقُّبٌ لضربةٍ مباغتة قد تأتيني فجأةً من خلف.

هل تريد إضافة أيِّ شيء؟

- لا، قلتُ كُلَّ شيء.

هـزَّ المحقِّـق رأسـه مرتيـن وقـام عـن كرسـيه وهـو يقـول إننـا سـوف نُكمـل التحقيق لاحقًـا، لكنني لـم أره بعدها. بعـد خروجه رفعنـي الجنـود بغيظٍ مـن تحت إبطـيَّ ودفعوني للخـروج أمامهم، فمشـيتُ علـى هـونٍ حتى انسـحب من سـاقي الخـدرُ فاسـتطعتُ السـير بخُطـى اليائسـين. لحظـة خروجـي مـن الباب، لمحـتُ في الناحيـة اليمنى عمالًا يشـبهون الهنود، كلهم قصارٌ وسُـمْرُ الوجوه، ينهمكـون فـي بناء عنبرٍ طويـل له من خارجـه هيئـة المصانع، لكنه مـن داخله يحـوي الزنازين الحديثـة التي سأسـميها لاحقًا «جُحور الرحمـة» وفيهـا سـأعرف المـرأة الفريـدة التـي اسـمها «سـارَّة».

كانت شـمس اليوم قـد آذنت بالمغيـب وازداد البردُ مع تسـارع الهواء ومع شـدَّة الإنهاك بدا لي طريقُ الرجـوع إلى الزنزانة طويلًا، ومُهينًـا. لكننـي ما كـدتُ أدخلُ إلى شـارع الأقفـاص المعلَّقة على قوائمهـا النحيلـة، حتـى بـدأ المحبوسـون فـي التكبيـر والتهليـل لتشـجيعي، أو لتذكيـري بأننـي واحـدٌ منهم. قبالـة الزنزانـة الكبيرة المسـكونة بالأسـرى الخمسـة، ارتفـع التكبيرُ فاضطـرب الحراسُ الثلاثة المحيطون بي، ومن بين صيحات «الله أكبر» سـمعتُ أسـيرًا يسألني بصوتٍ كالصراخ، خليجيةٍ لهجته: ما اسمك يا أخا الإسلام؟ فرددتُ من فوري، بلا خوفٍ أو تدبير سابق، وقلتُ زاعقًا:

- *أبو بلال.*

صَبْحُ الصَّحْوِ

أبو بلال! يبدو، والله أعلَمُ بالحقائق، أننا في هذه الدنيا لا نملك من أمرنا شيئًا مُهمًّا، مَهما توهَّمنا غير ذلك. فأحوالنا، وتحولات حياتنا تحدِّدها في غفلةٍ منا لحظاتٌ نادرة التكرار نتخيَّل فيها أننا نختار، لكننا نكون مُتوقِّفين عن التدبير والتدبُّر. نكون كالقلم، والقَدَرُ هو الأناملُ التي تكتب ما أراده الله. ما الذي دعاني لأنطقَ بهذا الاسم فجأةً وبصوتٍ عالٍ، حين سألني الأسيرُ، ليصبح «أبو بلال» من بعدها، اسمًا لي ووَسْمًا ملازمًا طيلة السنواتِ الطوال التالية؟ ما كانت عندي قبلها نيَّةٌ لأيِّ شيء، ولا كان لي لحظتَها هدفٌ أرمي إليه، وإنما ﴿وما رميتَ إذ رميتَ﴾ حسبما أخبرنا الحقُّ في قرآنه، ثم أكَّد ذلك بقوله في آياتٍ مُحكماتٍ: ﴿وربُّك يخلق ما يشاء، ويختار، ما كان لهم الخيرة﴾.. لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد.

حين صحتُ مُعلنًا أني «أبو بلال» رفسني من خلفي حارسٌ غشوم، فانكفأتُ وامتلأ وجهي دمًا وترابًا عاقني عن رؤية ما حولي. ومع أنني سففتُ التراب، إلا أن الحماسة ظلت تملؤني. حاولت القيام، واجتهدتُ في ذلك، ولكن أخذني الدُّوَارُ إلى الأرض من

جديدٍ فلم أستفق إلا في هذه الغرفة البيضاء البائسة، التي يسمونها هنا العيادة.

الطبيبُ ليس فيه من أوصاف الأطباء غير الرداء الأبيض، وما عداه من تفاصيل هيئته يجعله أقرب إلى الجزّارين واللَّحّامين، بل أكثر من جهلائهم جمودًا وتجهُّمًا. وهو يمسح عن وجهي الدماء بقطنةٍ، انبعجت قَسَماته تقزُّزًا! وما كاد ينتهي من اشمئزازه غير المفهوم حتى دخل ضابطٌ غاضبٌ سأل الحراس بحاجبين ينعقدان عما جرى، فأخبروه بأنني تكلمتُ مع الأسرى الآخرين. فقال لهم بنبرةٍ حانقةٍ ما ترجمته: ولماذا تضربونه يا أغبياء، اتركوهم يتكلموا، لنعرف بعض ما يخفونه عنا.

سبحان الله! ما هذا الذي نخفيه عنهم؟ أخذوني من عيادتهم إلى زنزانتي مترنحًا من أثر النزف والضعف واليوم المرير الذي لم أذُق فيه الزاد. لحظةَ مررتُ بالمحبوسين في شارع الزنازين، عادوا للهتاف لي كأنني واحدٌ من الفاتحين، في طريقه لغزوةٍ جديدةٍ مجيدة. كنتُ كلما اقتربتُ من موضعهم عَلَوْا بالتكبيرات أكثر، وتَعالَوْا باسمي كأنه ترنيمة انتصارٍ وفرح. تحاملتُ على نفسي واحتملتُ آلامي فابتسمتُ لهم والحراسُ يغتاظون، وبقيتُ أقاوم السقوط على الأرض حتى دخلتُ قفصي. من خلفي دفعوني بعنفٍ بعد فك القيود، فجلست بآخر الزنزانة ساكتًا ساكتًا حتى جاءني حارسٌ نحيلٌ صغير السن بلفافة طعامٍ وزجاجتي ماءٍ، ونظرة إشفاقٍ غير معتادة. التهمتُ طعامي، كأنني أحشو بالتراب كيسًا واحتسيتُ الماء، ثم نمتُ كمن رجع لتوِّه من سفرٍ مريعٍ.

مـرَّتْ علـيَّ الأيامُ مُرَّةً، كحالها حين تشـتبكُ في القلب شـجونُ المسـجون. لا جديد هنا، ولا حسـاب للوقت. بقيـتُ أتحايلُ على الآلام بالنـوم، وعلـى مـرارة حَلْقـي بحـلاوة التلاوة، وعلـى القهر بالصبـر. أمـا الصلاةُ فكانت أهنـأَ اللحظات، وأصفاهـا. لكن صفو صلواتي يكدِّره عدمُ استطاعة الوضوء، إلا في الأيام التي يأتون فيها لغسـل الزنزانة بالخرطوم، وغسـلي معها بعد تعريتي. كان الحراسُ يفكُّـون أزراري الخلفية من خلف القضبـان ويتركون لي الباقي، ثم يأخـذون البدلة البرتقالية ويضخُّون الماء ويضحكون مني؛ لخجلي منهـم. ولاحظتُ مع تكرار الأمر أنهم يسـلِّطون علينـا الضخام من الجند المعتلِّين عقليًّا، المختلِّين نفسـيًّا. منهم حارسٌ قويُّ الكتفين كالخرتيت، أصلع الرأس مع أنه لم يتعدَّ من عمره الثلاثين، كان من أكثرهـم كراهيةً لـي وإمعانًا في إيذائي بسـاقط الأقوال والأفعال. لا أراه مع الحراس إلا في وقت استحمامي، الذي هو سـاعة لهوهـم، زملاؤه ينادونه باسـم غريبٍ عرفتُ لاحقًا أنه اسـم وظيفته «مشرِّس الكلاب». ومع أنني ما كرهتُ أحدًا في حياتي، غير أن هذا الحيوان البشـري وزمـلاءه أخـذوا يحرضونني علـى الكراهيـة، كلما جاءوا للعبـث بـي وكلما رأيتهـم في أحلامـي الكوابس. لكننـي مع مرور الأيـام ومـع تكـرار شـناعتهم، تعوَّدت علـى قبيح عبثهـم، وصرتُ أطـرح الخجَلَ مع ردائي وأهتبلُ فرصة التطهر، فصاروا يسـتغربون من التقاطي للماء المندفع وإسـباغي الوضوء به، بقدر ما أسـتطيع. وقلَّ مع اندهاشـهم ضحكُهم. اغتاظوا مني مرةً فتركوني أتوضأ في سـلام وأنا جالس في الزاوية البعيدة، ولمـا انتهيتُ دخل عليَّ ثلاثة منهـم من بينهم هذا المدعو بمشـرِّس الـكلاب، فقيَّدوني عاريًا من

أطرافي الأربعة بقضبان باب الزنزانة، واستدعوا زملاءهم ليشاهدوا الخزي والخسران.

وقـف الحـراسُ اللاهون والحارسـات الفاجرات أمـام زنزانتي ينظـرون، وينتظرون ما سيكون من المهووس الـذي يقف ورائي.. صفعني مشـرِّسُ الكلاب من الخلف مراتٍ، ومـع ابتهاج الناظرين نحونـا وترقُّبهـم، بما يفعلـه أراني إصبعه الأطول وهـو مغطى بواقٍ ذكـري من ذلك الـذي كنتُ أراه معروضًا للبيع فـي صيدليات دُبي. لم أفهم مقصوده ولا سر اهتياج الناظرين وازدياد صخبهم، إلا حين دسَّ فـيَّ إصبعه المغلَّف، فصار مثل جَمْرٍ حارقٍ يحشـو أحشـائي. لـم يضحك المتفرِّجـون مثلما كانوا يتوقَّعون لأننـي لحظتها فقدتُ عقلـي، وصرختُ زاعقًا بكل ما فيَّ من ألـمٍ ومن هولٍ، حتى كادت حنجرتـي تنخلع مع صياحي بكلمة التوحيـد «لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله». صوتي المسـتغيث شـقَّ السـكون، فجاوبتني الزنازينُ من بعيـدٍ بمثل ما أقـول حتى ارتجَّـتِ الأرضُ والتهبتِ السـماءُ بحُرقة صياحنـا بالشـهادة، فـكأن يوم الحشـر قد نـودي به بغتـةً. اضطرب الحـراس وتلَّفتـوا متفزِّعين، وراح المسـجونون يصرخون معي من أقفاصهـم بكلمة التوحيد، وهم يدقُّـون القضبان وجدران الزنازين، فتعلـو أصواتنـا وأصداؤنـا إلى نهايـات السـماء وتلفُّ الكـون كله بالألـم المرير.

علـى عجلٍ جاء ضابطٌ صارمُ القَسَـمات، فوجدني مصلوبًا على البـاب ومـن خلفي الحـارس المهـووس، وقـد اضطـرب الجميع وتزلزلـتِ الأركانُ. أَمَرَ الضابطُ مرءوسـيه فتفرَّقـوا من أمام زنزانتي بخُطى الخزي، ودخل إليَّ حارسان صوَّب أحدهما نحوي سلاحه،

مهـدِّدًا، والآخـر ارتعشـت يـداه وهـو يقصُّ الشـريط البلاسـتيكي الممسـك يديَّ بقضيـب الباب الأعلى. خطر لـي لحظتها أن أهجم على حامل البندقية، فيقتلني، فأسـتريح. لكن الله لم يُرد موتي، فقد أشـعرني بنارٍ تشـتعل في أسـافلي فألفيتُ جوفي كأنه جـفَّ من أثر الاحتـراق، ودار بـي الدوارُ فور تحرُّر كَفَّيَّ، وقدمـاي بعدُ مقيَّدتان، فهويـتُ فجـأةً علـى الأرضيـة المعدنية وارتطـم بها كوعـي مُحدثًا صوتًا ما سمعتُ مثله من قبل. انفجر برأسي الألمُ، حتى أذهلني عن الشعور بوجع انخلاع كتفي، وعن الكون وكل ما فيه.

عدتُ للوعي والشـعور بالألم، فوجدتني في زنزانة العيادة على سـرير أبيض، وصـدري ملفوف مع ذراعي اليسـرى بأربطـةٍ بيضاء بالغـة الإحكام. كانـت قبضتي اليمنـى وقدماي مقيدةً بسلسـلةٍ إلى قوائم السـرير، وحزامٌ بلاسـتيكيٌّ يشـدُّ وسـطي إلى وسط سريري. كأنهـم يخشـون طيراني! مـع أنني عاجـز أصلًا عن الحركة. أشـعرُ بوجـعٍ شـرسٍ يعضُّ كتفـي المضمومة بالأربطة وينخـر في عظامي كلها، وحَلْقي جاف. ناديتُ طالبًا الماء فأتى إليَّ طبيبٌ تتبعه ممرضةٌ مريضـةُ الهيئـة من شـدَّة النحول، وكلاهمـا يلبس الزي العسـكري تحت البالطو الأبيض. فكَّ الطبيبُ الحزام الذي يلصقني بالسـرير، ومدَّت الممرضةُ يابسـة القَسَـمات كوب الماء إلى فمـي فعببتُه، ثم ألقمتني بعض الأقراص البيضاء وسَقَتني مجددًا.

الكـوَّةُ التـي بأعلى الجـدار تخبرني بأن الآن هو وقـتُ الظهيرة، وتُدخـل إلـيَّ من الضوء مـا يُعين على الاسـتفاقة. هـذه العيادة غير تلـك، وهـذا الطبيـب الأنيـق ذو النظـارة الطبيـة غير ذلـك المتقزِّز الـذي رأيته المرَّة الفائتـة. رجوته ألا يربطني بالحـزام الهاصر، ففي

السلاسل كفاية. فقال بلطفٍ إنها التعليمات، وأضاف وهو يلفُّ الحزام أنه لن يضيِّقه عليَّ، وجعله بالفعل واسعًا كأنه غير موجود. أظنُّ أن الممرضة أعطتني منوِّمًا، فقد دار رأسي وثقل جفناي فور إغلاق الطبيب باب الزنزانة الطبية النظيفة، فلم أنتبه إلا حين سمعته يعود في المساء ويضيء مع المصباح الخافت مصباحًا زاعق الضوء. سألته عما وقع لي فقال إن كتفي اليسرى انخلعت حين سقطتُ، فلما وجدته يجاوبني عدتُ لسؤاله عن المدة التي سأقضيها مربوطًا في السرير، فقال: قرابة أسبوعين، وبعدهما تعود إلى الزنزانة بضمادٍ جديد؛ حتى تبرأ.

تنهَّدتُ بحرقةٍ، فنظر إليَّ مليًّا ولم يتكلم إلا بعدما مَرَّ وقتٌ طويلٌ، انتهى خلاله من فحص أجهزة العناية الطبية المركَّزة بدقةٍ، ثم جلس قرب سريري وسألني سؤالًا عجيبًا: لماذا تؤمن بالإسلام؟ استغربتُ سؤاله الذي لم أفكِّر يومًا في إجابةٍ له، فنظرت إلى الكوَّة التي بدت من خلف زجاجها نجمةٌ بعيدةٌ، وقلتُ كلامًا طويلًا مفاده أن الله اختار لي منذ الأزل وأرادني على الدين الحق، فجعلني مسلمًا بالمولد، ولسوف أبقى على دين الحق حتى مماتي. حدَّق فيَّ مندهشًا وعاد لسؤالي بنبرةٍ متحيِّرة: ومن أين يأتيك هذا اليقين؟ فرددتُ بذهنٍ شاردٍ، بالعربية: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ فقال من فوره: هذا قرآن.

- *نعم، قرآن. ولكن كيف عرفت؟*

- *أقرؤه كثيرًا، وأعرف بعض المسلمين. هم جيرانٌ في مدينتي «ديربورن»، وهم أناسٌ طيبون وغير إرهابيين.*

ومَنْ قال لك أصلًا، إن المسلمين إرهابيون؟

- رئيسنا، جي دبليو بوش.

قال عبارته الأخيرة بسخريةٍ ثم استدار ليخرج من أمامي بخطى متحيِّرة، مثل تائهٍ يمشي حائرًا في صحراء. وهو يغلق عليَّ الباب نظر إليَّ من خلف نظارته مثلما ينظر المسلم لأخيه، وتركني غارقًا في آبار الأفكار.. في جوف الليل تخيَّلتُ أن الله أعطاني من لدنه قوةً خارقة، فمزَّقت قيودي وخرجتُ أُفتش عن مشرِّس الكلاب حتى وجدته مستلقيًا على كومةٍ من ركامٍ قديم، وسكرانَ، ولا أحد في الوجود من حولنا. بالقوة الإلهية سحبته من قدمه فمسحت به الأرض حتى وجدتُ سكينًا طويلًا ملقًى فوق أحجارٍ، فالتقطه. جثوتُ فوقه وهو عارٍ ومشلولٌ مثل جثَّةٍ بلا حراك، ورحت أضرب مؤخرته بذؤابة السكين فتنغرزُ فيها وينفجر منها الدم من حولنا. مع توالي الضربات اهترئ جسمه حتى صار كقطعة لحمٍ مهروس، وكلَّت ذراعي وانقبضت معدتي من نثار الدم وشذرات اللحم المحيط. رأيتُ بدنه المتهرئ يهتز، فذهبتُ إلى صخرة قريبة وهممتُ برفعها لأدُشَّ بها رأسه، فأُنهي للأبد خبره. حين ملتُ لأقتلع الصخرة الكبيرة من فوق الأرض، سمعتُ صوتًا أعرفه يأتيني من داخلي هامسًا بوضوحٍ وحكمةٍ: يا ولدي، أعِرضْ عن هذا، واستغفر لربك إنه هو الغفور الودود.. يا ولدي، الكراهية تُظلم القلب وتحرق الروح فلا تكن من الخاسرين، واصفحِ الصفح الجميل.. يا ولدي، لا تبكِ..

في الصباح جاءت الممرضةُ النحيلة بدوائها وسقتني الماء وهي تبتسمُ، فأزاحت عن قلبي همومًا كثيرة من حيث لم تقصد. في الابتسامات رحمةٌ وبشارات. أخبرتني الممرضة بأنني سأخرج

إلـى فنـاء العيادة بعـد قليل لمـدة سـاعة؛ لأتعرَّض لشـمس النهار ففرحـتُ. وفـي وقـت الضحى أتى حارسـان قويـان لـم أرهما من قبـل، سـاعداني على النهوض وأخذانـي إلى فناءٍ خلفـيٍّ ألفيتُ فيه ضوء النهار الناصع يستلقي على الأرض النظيفة، المسيَّجة. بجوار الجدار أجلساني تحت الشمس على كرسيٍّ خشبيٍّ صغير، وتركاني وحدي بعدما قال أحدهما: يمكنك المشـي هنا، إذا شئت، ولكن لا تقترب من السياج.

السلاسـل الواصلـة بين يـدي اليمنـى وقدميَّ تسـمحُ بالحركة، والمكانُ فسـيحٌ، تزيد مساحته عن الزنزانة بكثير. جلستُ مستسلمًا لضـوء الشـمس حينًا ثم اسـتندت بذراعـي اليمنى إلـى الجدار من خلفي، وقمـتُ برفقٍ فخطوتُ عدة خطوات، كأنني أتعلَّم المشـي. بعـد خمس خطوات تعبتُ، فعدتُ إلى الكرسـي بسـلام وجلسـت مستقبلًا فيض الضوء الآتي من شمس الله البعيدة. ﴿كلًّا نمدُّ هؤلاء وهـؤلاء من عطـاءِ ربك، وما كان عطاءُ ربـك محظورًا﴾. أغمضت عينـيَّ ورفعـتُ وجهي نحـو السـماء فصار الوجـودُ مشـوبًا بحمرةٍ رائقة، تتماوج فيها دوائرُ بيضاءُ يتزايد نصوعها كلما ارتخى جفناي. الكائنات التي كانت في جوف عيني دائريةً، قَلَّتْ، وظلت تسبح في فضائي اللانهائي حتى صارت كأنها ظلال النفوس المطمئنة، أو هي أطيافُ ملائكة. الشمسُ نورُ الله الأتمُّ في الأرض. والسماءُ تحرِّض الخيال على الجموح. وقد هامت روحي في ملكوت ذاتي، فصرتُ مُهيَّمًـا في سـماواتي المفعمة بموجـاتٍ لونُها لونُ النـور، وملأتني الضيـاءَ وحملتني علـى أجنحة الرحمة. ولما غمرني هذا الإشـراق القلبي، رُحتُ أردِّد هامسًـا كالمسحور، الدعاء النبوي: اللهم اجعل في قلبي نورًا، واجعل لي نورًا، واجعلني نورًا.

«هل أنت نائمٌ يا برسّ». سألني الطبيبُ الأنيقُ وهو يبتسم بلطفٍ فاعتدلتُ في جلستي مستريحًا؛ لأنه ناداني بهذا الاسم من غير نبرة السخرية المعتادة. بادرته بالشكر على عنايته فقال إنه يؤدي عمله، ولا يجب له شكرٌ على ذلك. أضاف أنه من الجيد أن أمشي قليلًا في المكان، فجاوبته بأنني فعلتُ قبل قليل لكنَّ ساقيَّ لم تتحملاني طويلًا. هَزَّ رأسه متفهِّمًا وابتسم وهو يقول ما ترجمته: سوف تتحسَّن سريعًا، لا تقلق، هذا من أثر الرقاد.. سكت حينًا، ونظر إلى السياج المقابلة وقال: المكان هنا شنيع، أرجو أن أتركه قريبًا لأكون قرب أمي المريضة، فسوف أفقدها بعد خمسة أشهر، فقد تمكَّن السرطان من بطنها.

- *لا يعلم ساعة الموت إلا الله، ولعله يمدُّ في عمرها أو يشفيها.*

لا أظن، حالتها متدهورة. سوف أشتاق إليها كثيرًا بعد موتها. وأنت، مَنْ أكثر شخص تشتاق الآن إليه؟

زوجتي، فقد تركتها وحيدة في الدوحة.

- *أين هذه الدوحة؟*

- *هي مدينةٌ عاصمة، في بلدٍ خليجي.*

- *لا أعرفها، للأسف.*

بعدما عرَّفني أن اسمه «جون رايت» انصرف الطبيب، فصرفتُ الوقتَ مغمضَ العينين مستدعيًا أقاصي الذكريات، حتى عاد الحارسان وأخذاني إلى السرير فنمتُ مستسلمًا وصحوتُ راضيًا بما رأيته من أحلامٍ ناعمةٍ، فحمدتُ الله بلساني وقلبي.. حلمتُ بامرأتين تجلسان في حديقةٍ ملوَّنة الزهور وأوراق الأشجار، وبرفق

تتهامسان. اقتربت منهما وأنا كخيط دخانٍ، فوجدتهما مهيرة ونورا. النهار الناصع، والليل الحنون.

صاروا فـي العيادة يُحسـنون معاملتـي ويخرجونني كل ظهيرةٍ للجلـوس تحت الشـمس، ويسـمحون لي بالمشـي منفـردًا فأطيل التحرُّك في المكان يومًا من بعد يوم. وأُلاعب أشـعة الشمس بعينيَّ المسـبلتين الناظرتيـن إلى القرص المنير البعيد. لو أسـتطيع تسـلُّق الشعاع وصولًا إلى الشمس، ثم أهبط مع الشعاع النازل منها فأصِلُ إلـى بلاد الأحبَّة، وأحتضنهم حينًا، ثم أتلاشـى من بعد ذلك فأصير نسيًا منسيًّا. لا. لا شمسَ الآن في بلاد أحبَّتي ولا نهار، فهم الآن في ليلٍ بهيم، وأنا هنا في ليلٍ فيه شمس.

فـي اليوم الرابع من اسـتراحتي بالعيادة جاءنـي الطبيب وجلس بقربي تحت الشـمس، وبعد برهةٍ قال وهو ينظر بأسـى إلى السياج: لعلـه ليـس مـن شـأني، لكننـي لاحظـتُ أنـك متعلِّـم، ولا تشـبه المجرمين، فلماذا لا تتعاون مع المحققين لتخرج من هنا في أقرب وقـت؟ أجبتهُ من فوري بأنهـم لا يتفهَّمون ما أقولـه لهم، ويصرُّون علـى أن لي علاقـة بجماعة طالبان وبأسـامة بـن لادن، لأنني قابلته صدفة مرةً واحدة منذ سنوات بعيدة.

- *ماذا؟ معقول! أنت قابلت الشيخ أسامة بن لادن؟*

اسـتغربتُ قوله «الشـيخ» وأدهشـني لمعانُ عينيـه عندما نطقتُ الاسم الذي يكرهه الأمريكيون كلهم، لكنني لم أُظهر له الاندهاش وقلـت بإيجاز إننـي رأيتُ «بن لادن» مـرةً حين كنـتُ طالبًا حديث السن، وكان هو رجلًا طيبًا لا يعادي أحدًا، بل كان هو نفسه مستهدفًا

مـن الجماعات المتطرِّفة، وحاولوا قتله. أظهـر الطبيبُ اهتمامًا بما أقول وسـألني عن سبب استهدافهم له أيامها، فداخلني قلقٌ دعاني للاقتضـاب فقلـتُ باضطـرابٍ إن أحد أتباعـه القدامي انشـقَّ عليه، لكننـي لا أعرف تفاصيل. قال: «لا بـأس» والتزم الصمت اللطيف، وانشغل عني عندما جاءه مجندٌ بملفٍّ كبيرٍ راح ينظر فيه بإمعان، ثم هَزَّ رأسـه وهو يتمتم بما لم أفهمـه: هذا مريع، جيفري ميلر لن يبقى هنا طويلا! قام من جواري فخرج من الفناء الخلفي وخلفه المجند، وقبـل أن يتوارى نظر نحـوي بمحبةٍ وقـال: أراك لاحقًا.. وقد رأيته بعد ذلك مرتين، ولكن لم نتكلم فيهما كلامًا مهمًّا.

بعد أيـامٍ أعادوني من زنزانة العيادة إلى زنزانتي الأولى محمولًا على محفةٍ، مع أنني كنتُ أسـتطيع المشـي. الزنازينُ هتفت لي عند مروري من أمامها وقصف السـجناءُ السـجَّانين بأقذع الألفاظ، فلم يكترث الحراسُ وأسـرعوا بي إلى مسـتقرِّي القديـم. رأيتُ الزنزانة قد صارت أكثر شـناعةً ممـا كانت عليه، فجلسـت بزاويتها الأخيرة متحسِّرًا على فوتِ أيامي، وحائرًا، حتى أتاني ساعة الظهر حارسان طويلان يحملان طعامي ودلوًا فيه الماء. قال لي أقلُّهما طولًا إنه ماءٌ صالـحٌ للشرب، فلا زجاجات بعد اليوم.

نظـرتُ في الدلو فكان مـاؤه مُبيضًّا من أثر الكلور، لكنني تقبَّلتُ الأمر لعلمي أن غاز الكلور مطهِّرٌ وسوف يطير بعد قليل، وسيمكنني من الآن الوضوء بما أوفِّره من ماء. ففككتُ الرباط المعلَّق به ذراعي اليسـرى في رقبتي، وتوضأت متمهلًا ثم قمتُ للصلاة وفي رأسـي تـدور خواطرُ عجيبـة: ذَكَرَ الله في قرآنه كيفيـة الوضوء تفصيلًا، ثم أجمـل الأمر عند ذكـر الصلاة فلم يذكر أن عددها خمسـة في اليوم

والليلة، فما الحكمة من ذلك؟ هل يكون الوضوءُ هو الجزء الأهم، ولذلك أشار الرحمانُ إليه مفصَّلًا؟ كيف يصحُّ ذلك، والصلاة هي عمادُ الدين؟ لعلَّ السرَّ في ذلك أن الوضوء يكون بالماء، الذي يخلق الله منه كل شيءٍ حيّ، ويُحيي به القلوب من مماتها.. ما عليَّ من الخوض في تلك الأمور، فالراسخون في العلم يقولون: آمنا به ﴿كُلٌّ من عند ربنا﴾ لن أفكِّر ثانيةً بهذا. هذا هذيان.

دفعتُ عني الوساوس والخواطر المشوِّشة، ثم ختمتُ صلاتي بالتسابيح وفي حلقي مرارةٌ وحسرةٌ. الأيامُ تمضي ولا أمل لي في خلاص. كيف حال الأحبة؟ وما الذي فعله الزمان بإخوتي، وبأمي وأبي، وبزوجتي وحبيبتي العصية على النسيان؟ لا إجابة عندي لأي سؤال. استسلمتُ للنوم آملًا أن يقبضني الله إليه أثناء نومي، وانتبهتُ في أول الليل على صوتٍ بدا كعويل امرأةٍ تتألَّم.

تزحَّفتُ إلى باب الزنزانة وأصختُ سمعي محدِّقًا في الظلام، فما سمعتُ شيئًا ولا رأيتُ إلا تقاطع الأضواء الكاشفة. هواءُ الليلة ساكنٌ، باردٌ، وصمتها التامُّ يُخيف. رفعت إلى الأعالي عينيَّ فكانت نجوم السماء على الهيئة التي عهدتها دومًا وعرفتها منذ الصغر، السماءُ هي السماء. لكن هذه الأرض الجافية، غير تلك الحانية التي أحببتها هناك. احتواني حنينٌ مفاجئ للجلوس على ضفة النيل في ليلةٍ مُقمرة، وللاغتسال بضوء الفجر حين يتسلَّل ليجلو الاسوداد عن بحيرة السَّدِّ. بحيرة النوبة. تشوَّقتُ إلى نفسي حتى أحرقتْ قلبي الأشواقُ، ولما احترتُ بين دروب الحيرة احتواني الحنينُ وبكيتُ سرًّا ثم غمرني خوفٌ مفاجئ بلغ بي حَدَّ الفزع، فانتفض كتفاي وعدتُ إلى زاوية الزنزانة كأنني أحتمي بآخرها مما قد يفجؤني

عنـد البـاب، وصليتُ التهجُّد جالسًـا من غير أن أغلـق عينيَّ، مثلما اعتـدتُ في الصلوات. الصلاةُ تؤنس. بعد انتصـاف الليل كاد البردُ يفتك بأطرافي ويوقف قلبي، فاسـتدفأتُ بقطعـة القماش المطاطي التي أنـام عليها. مع أنها لا تُدفئ. تفكَّـرتُ كالمخبولين المذهولين فـي أمورٍ لا حصر لهـا ولا قوام، وانتبهتُ بعد حيـنٍ إلى أنني أعضُّ طرف فرشـتي المطاطيـة. انتبهتُ لما أفعله، عندمـا لعقتُ ما انحدر إلـى شـفتيَّ المفتوحتيـن من دمـوعٍ سـيَّالةٍ، ملحها أُجـاجٌ. ووعيتُ لحظتهـا بهزَّتـي هذه، وارتعاشـتي التي تجلب معها أحوالًا شـدادًا، وأسـئلةً مسـتحيلة الإجابـات: مـا الوقـتُ الـذي انقضى علـيَّ منذ احتجـازي ظلمًا وعدوانًا؟ وماذا فعلتْ من بعدي مُهيرة المسـكينة، قليلة الحيلة؟ هل اسـتلمتْ رسـالتي وسـافرت لتعيش مع أمي إلى حيـن عودتـي، أم مَكَرَ بها الزمانُ وقطع عنها الأخبارَ فاحتبسـت في بيتهـا وقد نفـد منها مخزونُ الـزاد؟ هي تخاف الخـروج من البيت، فكيـف سـتأكل، ومن أيـن سـتدفع الإيجـار؟ لماذا هتف الأسـرى عنـد مروري، بجرأةٍ، فلم يهتم الحـراس؟ وماذا جرى للرجل الذي رأيته قبل شـهور عاريًا ومصلوبًا في زنزانته؟ ولماذا اختاروا لي هذا القفـص المنفرد اللائق بحيوانٍ مفترس؟ حيوانٍ مفترس .. لا بأس، سوف أليق بذلك وأكون كحيوانٍ يفترس.

سأهجمُ كالفهد على أول جنديٍّ يقترب مني، وأحتالُ حتى أُطبق على رقبته فيطلقوا عليَّ النار، وأسـتريح. سـأموت شهيدًا، أم تراني سأكون قد انتحرتُ قاصدًا، وقتلتُ نفسي معاندًا ربي ومخالفًا قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسـكم إن الله كان بكم رحيمًا﴾ وما عسـاني أن أقول حين تسألني ملائكة الحساب في القبر: لماذا لم تحتمل المحن حتى

يأتيك الفرج؟ سأقول إنني صبرتُ بقدر استطاعتي واحتملتُ ما لا يُطاق، ولم أكفر، فلما طال عليَّ الأمدُ وفاض الوفاض أحببتُ لقاء ربي، وعندئذٍ سينادي المنادي: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةً مرضية﴾ ويُساق الذين اتقوا إلى الجنة زمرًا.

ن ن ن

في آخر الليل أغار عليَّ الخوفُ الغامضُ الغريبُ فأفزعني من جديد، وعاودني وجعُ الظهر ممزوجًا بآلام الكوع والكتف، فاقتربتُ من باب الزنزانة أستطلع لعلِّي أرى ولو حارسًا يعبر خلال الزنازين، ولكن لا شيء في الأنحاء المحيطة إلا وطأة الليل الثقيل. الأنوارُ الكاشفة الدوَّارة تمرُّ على الشجرة اليابسة الواقفة قبالتي، فتعطيها في كل مرةٍ شكلًا جديدًا. آونةً تبدو مع ظلالها كأنها أرواح ثائرين قُتلوا وهم يلوحون بأذرعتهم، وآونةً هي أشباحُ ثكالى يترنَّحن بعدما أفقدهنَّ النحيبُ حناجرهن، وآونةً تصير ألسنةَ لهبٍ أبيض لا يُدفئ ولا يستطير منه شررٌ. كلما مَرَّ الضوء الخاطف على الشجرة، رأيتُ فيها ما يستجلب إلى رأسي الهوس ويُلقي بي إلى هاوية الجنون؛ فمرةً تكون كغريق يستغيثُ بلا صوتٍ؛ ومرَّةً تصير كأثرٍ قديمٍ محفورٍ في فراغ؛ ومرةً تبدو كعراةٍ يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ منتشر.

لابد أنهم وضعوا هذه الشجرة أمام ناظريَّ، ليجرفني الجنونُ ويمحق قواي فأنْهار معترفًا لهم بما يتوقَّعون، أو أُريحهم مني بالموت فيهنأوا بالخلاص من عدوٍّ يتوهَّمونه ويتهمونه بما طاب لهم من خرافات. في زمني القديم، سمعتُ من خطيب المسجد حديثًا نبويًّا يقول إن المسلم لا يجوز له أن يرجو الموت؛ لأن

فـي ذلـك قنوطًا من رحمـة الله. لكن اللـه قال في قرآنـه للمدَّعين: ﴿فتمنَّـوا المـوتَ إن كنتـم صادقين﴾ وأنـا يا ربّ صـادقٌ، وأتمناه، وأتمنى عليك أن تأخذني إليك من هذه الدنيا فأستريح.

أحسُّ بأنه تعالى قريبٌ، يسمعني. وسوف يستجيب لي ويرحمني مما يطحنني، فيقبضني إليه برفقٍ. فها هي غمراتُ السَّكَراتِ تتموَّج في رأسـي، تسحبني مني وتُسيل من عيني ماءً ليس كالدموع. بدني يُفـرغ مـا فيه، ولا وَجيـبَ لقلبي. ما عـاد فيَّ ذاك النبـض الذي كان يتسارع من قبل ويهزُّ رأسي وصدري. صدري صار خاويًا، وأطراف أقدامي ينشعُ فيها بردٌ غريب. أهذا هو الموت؟ نعم، هو. الحياةُ لها حـرارةٌ وفيها قلقٌ وحركـةٌ، وما الموت إلا هذا الخمـود.. والبرودة المريحة.. والسكينة.

أرانـي أُراقـب انتهائي، وأترقَّبه. أموتُ بلا أسـفٍ في نفسـي ولا حسـرةَ عندي على فوات، فقد اسـتوفيتُ أَجَلي. أشـهد أن لا إله إلا الله، وأشـهد أن محمدًا رسـول الله. ها هي روحـي تفارقني برفقٍ. أراها كالفراشـة تـرفُّ بأجنحةٍ بيضاء في هوائـي الأخير، في فضائي الفسـيح، فـي الفـراغ الباقي بجوف رأسـي. هـا هو النـورُ يغمرني، ويمـلأ عينـيَّ المغمضتيـن كلما علـوتُ في الهـواء. هـي النهاية. يا أيتهـا النفس المعذَّبة، الراضية المرضية، ارجعي إلى ربك بعد طول افتـراق واحتراق. بعين قلبي أرى النورَ يغوص في أنحائي الخاوية، يتخلَّلنـي، يُعلمنـي أنني كنتُ فـي غفلةٍ من هذا، وكنـتُ في كل ليلةٍ عنـد المنام أمـوتُ. النومُ ممـاتٌ يوميّ. كنتُ غافلًا عـن هذا والآن انكشـف الغطاء. يا ألله. هي أنفاسُك تعود إليك. روحي نَفحةٌ منك كانت في بـدنٍ؛ نَفحةٌ من نورك كانت بين طيَّات الظلام. أراني الآن

أعلو. الأرضيُّ الذي كُنته يرسخ تحتي. أُفارقه، أنسلخُ من ظلامي ومما ظننته حياة.. الآن سأحيا بما حسبته بالأمس موتًا، وما هو إلا عبور، ونورٌ على نور.

ما هذا؟ لماذا أرى ضوءَ الفجر يأتيني من بين قضبان الباب، وما هذه القضبان؟ ما الذي أعادني للدنيا من بعد الفراق؟ هل عدت بي يا إله العالمين؟ يا رحيم. ارحمْ دموعي فليس لي سواك، وانزعني مني ولا تعدني إلى بدني والشقاء. آه. ما هذا الحالُ الغريب، وما هذه الفراشة التي ترفُّ بأجنحةٍ بيضاء في الفضاء الممتد خلف القضبان؟ من أين أتت، ولا خضرة هنا ولا زهور؟ ولماذا تحطُّ برفقٍ على الفتحة الفوقية لقضبان بابي؟ ما رأيتُ مُذ جئت إلى هنا فراشات، ولا أظن أن بهذه الأرض أصلًا فراشات. هذه ليست فراشة. هي روحٌ حائرةٌ جاءت بإشارةٍ من الرحمان الرحيم؛ لتُعلمني أن الأوان ما حان بعدُ ولم يأتِ وقت اللقاء. يا ربُّ، أنت شديدُ المِحال وليس بيدي إلا قبول أقدارك، والرضا بما تشاء، فإن أردت عيشي إلى حينٍ فسوف أصبرُ وأحتمل كُلَّ ما تُقدِّرُ وتريد، ولكن بغير رضا. أستغفر الله، سوف أجاهد نفسي لترضي بقضائك، عساي أن أستطيع..

ألا تنام يا برسّ؟

طارت الفراشة فزعةً، لحظةَ أتى الحارسُ حاملًا لفافات الإفطار ودلو الماء. الحارسُ اليابسُ وقف أمام بابي ينتظر جوابَ سؤاله، ولما تأخَّرت عليه أعاده وأضاف: ألا تنام يا برسِّ؟ هل تعاني الأرق، أم تشتاق إلى النساء والسرير المريح؟ الحارسُ حديث السن بالمقارنة بأقرانه، وهو ساذجُ النظرات كثيرُ الكلام. أخبرني من دون أن أسأله، أن اسمه «توم»، وأنه أصلًا من بورتوريكو. لعله

يعاني السأم مثلي ويريد تمرير الأوقات، لكنني الآن غير قادر على الحديث إليه، فليته يغرب عني، يترك الطعام والماء ومسرعًا يرحل، أو يرحل بما جاء به. ما عدتُ أريدُ شيئًا.

- *تكلَّمْ يا برّس، لماذا تنظر إليَّ وأنت صامت؟*

- *ليس عندي ما أقول.*

- *أوكّي، سأمرُّ عليك بعد توزيع الطعام.*

نظرتُ في الطعام مليًّا، فاحترتُ. لماذا يحرص الأمريكيون على إبقائنا أحياء، ويكلِّفون أنفسهم إطعامنا طمعًا في معلومات غير معلومة لنا؟ لو أنار الله لهم بصيرتهم، لأطلقونا أو أطلقوا علينا النار أو تركونا بغير زاد حتى نموت، فيستريحوا، ونُحسب عند الله شهداء. بعد ساعةٍ عاد الحارسُ الذي يقول إن اسمه «توم» فوجدني منهمكًا في التلاوة بصوت مسموع فانصرف، وصرفتُ أوقاتي في التصبُّر واستجلاب النوم أملًا في رحيم الأحلام.. الذي ينام وحيدًا، يتوحَّد بحُلمه ويمتلئ.

الأيامُ التاليةُ جاءت مثل السابقة، متشابهات، كشأن أوقات المحبوسين عن الناس. الناسُ تلوِّن الأيام بالأعياد وبالإجازات وسائر المناسبات، وأيامُ السجين لها لونٌ واحدٌ قاتمٌ، ولا يأتيه عيد. لاحظت مع تكرار الأمر، أن الحارس «توم» يتسكَّع كثيرًا عند بابي ويسعى للكلام ليوقعني في فخاخ، لكنني بقيتُ أغضُّ عنه ناظريَّ وأتشاغل بالصلوات والتلاوات. في يومٍ مطيرٍ أتاني مع ثلاثةٍ من زملائه وكبَّلوني بالسلاسل؛ لأذهب حسبما قالوا إلى التحقيق. لم

يدسُّوا رأسي في الكيس الأسود، لكنهم مشوا بي من خلف الزنازين بتعريجٍ يعرفونه، فلم يشعر بي بقية المسجونين.

بـدا التحقيقُ هذه المرة غريبًا وبدأ على غير المعتاد، وانتهى بغير المتوقَّع. الغرفةُ التي أخذوني إليها خشبيةُ الجوانب وليس فيها مبرِّد الهـواء، والمحقِّق واحـدٌ وليس اثنين مثلما كان الحال في السـابق. قلـتُ فـي نفسـي: لا بأس، سنرى ما يكـون. أشـار لهـم المحقِّقُ، فرفعني الحراسُ بالكرسـي المعدني، ووضعونـي قُبالة طاولته التي عليها الملف المغلق والتلفون ذو اللون الأحمر البرَّاق. سألني وهو يبتسـم إن كنت أريد قهوةً، فقلتُ في نفسـي إنهم سيعاودون اللعب القديـم، لكنـه لن يُجدي معي، يكفيني ما جرى سـابقًا في «قندهار» وهنـا، وقد نسـيتُ مذاق القهـوة منذ زمنٍ بعيـد. كان المحقق ينتظر إجابتـي، فسـكتُ برهـةً وبوجهٍ يخلو مـن أي انفعالٍ، قلـتُ بهدوءٍ: شكرًا، لا أريدُ أيَّ شيء.

- *حسـنًا، دعنـا نبدأ. عندي لك أخبارٌ سـارةٌ وأخرى سيئة، فما الذي تحب أن تسمعه أولًا؟*

- *قلتُ: السـيئة! ثم أردفتُ هامسًـا بالعربية: «والله المستعان»، فتنحنـح المحقـقُ قبـل أن يقـول بصـوتٍ خفيـض: حسـنًا، سـأخبرك، قبـل شـهرين مـات أبـوك بعد مـرضٍ أقعـده في المستشـفى ثلاثة أيـام، وأمك ذهبت مـع إخوتك لتعيش في القاهرة عند قريب لها.. قاطعته:*

- *أنـت تكذب. ليس لأمي أقارب في القاهرة، وأبي لـم يمت. لا أشعر في قلبي بأنه مات.*

- المعلومـات عـن موت أبيك مؤكَّـدة، وقريبُ أمـك الذي في القاهرة اسمه هامدون بو الجاب.

- حمدون أبو الغاب!

- نعم، هو، سأتركك الآن وأعود إليك بعد قليل.

- هـل هـذا صحيـح؟ لا. لـو كان أبي قـد توفي حقًّـا لانهمرتْ دموعي، لكنني أجد قلبي يابسًا، وعينيَّ. ما هذا الجمود؟ وما هـذا الـدوار؟ لماذا أتقلَّـبُ بين نعمٍ ولا. لعـل المحقق يريد إصابتـي بالجنـون، فـلا حول ولا قـوة إلا بالله. قالـوا قديمًا إن استعمال العقل يُبعد عن الإنسـان خطـر الجنون، لكنني ما عدتُ أعـرف المقصود بالعقل؛ حتى أحدِّد ما الجنون. لا حـول ولا قوة إلا بالله. ما الدليلُ على موت أبي، وما أدراني بصحـة كلام قاله كاذبون؟ الأمريكيون دومًا يكذبون. ها هي دموعـي تسـيل، فهل هـذا دليلٌ. ولكـن على ماذا يـدلُّ؟ هل أجـدُ ما يدلُّني على الدليل، ويدلُّنـي عليَّ، وعلى موت أبي؟ لا حول ولا قوة..

- «أتعـرف، أنا متعاطفٌ معك، وأسـتطيع مسـاعدتك». كلَّمني المحقـق بذلك وهـو يعود إلى كرسـيه ويضع علـى الطاولة الملف المغلـق، بثقةٍ، كأنه قادرٌ على فعل المسـتحيل. هواءُ الغرفـة صار حـارًّا خانقًا. أودُّ العـودة إلى الزنزانـة لأنام، أو لأصحـو من هذه الغيبة وأخلص من هـذا الدُّوَار، رب لا إله إلا أنت سبحانك..

- اسـمعني، يمكنني مساعدتك. نحن ما عدنا نريدك هنا، ولكن يجب أن تتعاون قليلًا.

كيف؟

أخبرني عن علاقاتك السابقة بالمجاهدين في أوزبكستان ووادي فَرغانة، وعن الرسالة التي كنت تريد توصيلها إلى طالبان.

لم أذهب قَطُّ إلى وادي فَرغانة، ولا أعرف أحدًا هناك، ولم أكن أحمل أي رسائل إلى طالبان.

رفعتُ عينيَّ لأرى أثر كلامي في وجه المحقق، فوجدت عينيه الواسعتين تتسعان وتلمعان بالزُّرقة الحمقاء، وأنفه الدقيق ينتفخ ليشدَّ إليه مزيدًا من هواءٍ يصرف عنه الضيق. بدا كأنه يتمالك نفسه بصعوبة، مثلي، فقد اقترب من الطاولة بوجهه المشوب بالحمرة وشعره الأصفر الكثيف، ليسألني بصبرٍ نافد:

- لماذا إذن أرسلوك إلى أفغانستان في زمن الحرب، وأنت لا خبرة لك بالعمل الإعلامي؟

قالوا لي إن لديهم نقصًا في المراسلين، وقد تلقيتُ تدريبًا مكثفًا على العمل الميداني.

- وهل كان ذلك يكفي؟

- لا أعرف، لا أعرف.. أخبرني بصدقٍ، هل مات أبي حقًّا؟

- نعم، مات. والآن عليك أن تتعاون معي أكثر من ذلك، فهذا لصالحك.

- قلت لك كل ما أعرفه، صدقني أرجوك، واتركني الآن فأنا أشعر بدوارٍ وغثيان:

عقـد المحقق ذراعيه على صـدره، ولم أرفع عيني لأرى ما يبدو علـى وجهـه من علامات. مـا عدتُ أهتمُّ بشـيء. أشعرُ في جوفي بغليـانٍ وبإغماءةٍ آتيـة لتأخذني إلى تيهٍ بعيد، فقـد راحتْ تتوالى في جوف رأسـي صورٌ لا رابط بينها: أشـجارٌ عالية، وجوهُ زنوجٍ فُطَّس الأنوف، خِراف، أعمدة الكرنك، مسبحة أبي تدور في فراغ، إخوتي وهم صغارٌ يمرحون في حوش البيت..

- *طيب، هل أخبرك بالشيء السار؟*

- *ماذا؟*

- *انظر هذه الصورة.*

مُهيـرة! ما هـذه المفاجأة المربكة التي أتت فـي غير أوانها، وفي غمـرة الذهـول؟ مهيـرة. هـذه صـورة حديثـة، متـى كان التقاطها، وكيف؟ تسـمَّرتْ عيناي أمام الصورة من فـرط الاندهاش حتى فارَ تنُّـوري، وتصاعد دمي حارًّا من أطراف قدميَّ وصدم قلبي، فنظرت إلـى المحقـق بكل ما في الكون مـن مَرَارةٍ واضطـراب. ببطءٍ، أعاد الصـورة إلى الملف وهو يقول: هي على مـا يرام، ولا تزال تنتظرك فـي «الدوحة»، وعندي تلفون شـقتك هناك، ويمكننـي إذا تعاونت معي الاتصال بها، فتسمع أنت صوتها، لكنها لن تسمعك.

- *كيف؟ ما هذا؟ الشقة ليس فيها تلفون.*

- *فيهـا، تـمَّ توصيله بعد غيابك بشـهرين. أنت مرتبك، ولكن لا بأس، سوف نكمل كلامنا غدًا.*

أخذنـي الحـراسُ إلى قفصي من دون إهانات، فبقيتُ لسـاعاتٍ جالسًا في الزاوية كمن سُلب منه عقله والقلب والروح دفعةً. كأنني

هواءٌ يطيرُ في الهواء. أبي مات قبل شهرين، وما شعرتُ بذلك ولا تلقَّيتُ فيه عزاء. العزاءُ يعين على الصبر، فأين الآن المستعان؟ الربُّ حافظ من فوق السماء، والأبُ هو الحامي على الأرض، وأنا صرتُ من كل حفظٍ وحمايةٍ محرومًا. اللهُ يُنفذ مشيئته، وأبي استوفى مُدَّته، فمَنِ الآن لي؟ لن أرى أبي أبدًا، ولن تفارقني الأحزانُ.

أجهشتُ في وحدتي بكل ما في الروح من ألم، ومن أسفٍ على ما ضيَّعه مني الزمانُ، ولن يُعيده.. بعد أمدٍ غير معلومٍ استفقتُ كالملسوع، على صورة مهيرة التي خايلني بها المحقِّق، وأهاج خواطري. هي صورةٌ حديثة، تظهر فيها مهيرةُ في ثوب الخليجيات، نحيلةً، وعيناها أوسعُ وأعمقُ حزنًا وانكسارًا. هذا وجعُ الفراق وأثرُ الحيرة. أعرفُ هذا المكان الذي التقطوا فيه صورتها وهي غافلة، تتناول بيدها اليمنى الكيس الذي يمدّه إليها البائعُ. هو دكَّان العطارة المزدحم دومًا، الذي بأول سوق بالدوحة الذي يسمونه هناك «سوق واقف». نعم هو، أذكره جيدًا. هذا الدكان الواقع على يمين الداخل إلى الشارع الواسع، له بابان زجاجيان أحدهما يفتح على الزقاق الضيق الظاهر في خلفية الصورة، ومنه يمرُّ أناسٌ كثيرون. والباب الآخر مفتوحٌ على الشارع المفتوح على ساحة المقاهي، ومنه التقطوا صورة مهيرة من خلف الزجاج، وهي عنهم غافلة. ماذا كانت المسكينة تشتري؟ فوتنج؟ ومَنْ هذا الهنديُّ الطويل الواقف بجوارها ببشرته السمراء الكالحة، وقميصه الأصفر الباهت؟ لا بد أنه زبون يشتري، أو لعله بائعٌ من أولئك الذين يعملون هناك. لا، هو ليس بائعًا. فالباعةُ من الهنود وغير الهنود، لا يجرؤون هناك على النظر هكذا بجانب أعينهم، للنسوة اللواتي يشترين من الدكاكين أو يعبرن الأزقة الضيقة. فهؤلاء الباعة مؤدَّبون، لأنهم مُهدَّدون

دومًا بالترحيل من البلاد. والتهديدُ يستجلب الأدب. ماذا كنتِ يا مهيرة تشترين من هناكِ؟ ومن أين لكِ المال؟ أعرف أن الزاد نفد من البيت، فهل نفد من يدك المال ومن قلبك الأمل؟

غدًا سأصبرُ على سُخف المحقق وأُبدي له ما يسميه «التعاون»، مع أنني قلتُ لهم سابقًا كلَّ ما أعرفه. هل أكذب عليه أو أسرد الهواجس والظنون التي كانت تخايلني؟ لا. سأقدِّم له بعض الآراء والرؤى، فأكسب بذلك تعاطفه، ولسوف أُفهمه برفقٍ أنهم مهما بهرجوا على الناس بقوتهم الغشوم، فهم في خاتمة المطاف قومٌ لا يفقهون ولا يعرفون أنهم لا يعرفون. لا لن أثير حفيظته، سأترفَّق معه في الكلام. فالرفق ما دخل في شيء إلا زانه، وما خرج من شيءٍ إلا شانه. صدقتَ يا رسول الله. سوف أقنع المحقق ببراءتي وأجيبُ عليه بكل صبرٍ وصدق، فالصبر يُوصل للمراد، والصدق يُنجي. ثم أطلب منه الاتصال بمُهيرة لأسمع صوتها، ولو سمح لي المحقق فسأقول لها كلمات قليلة: اعذريني يا مهيرة، لم يكن بيدي أي شيء. سأعود بإذن الله إليك،

انتظريني في الدوحة ولا تذهبي إلى أمي،

لأنها تركتْ أم درمان، هي وإخوتي.

لن يطول غيابي عنك، يا مهيرة، فسوف تظهر الحقيقة،

وأتحرَّر من هنا.

لو كان بيدي الأمر، لعدت إليكِ الآن.

لكنني لن أتأخر، لا تقلقي. ولا تخرجي من البيت إلا للضرورة،

ولا تتكلَّمي مع الغرباء.

سأعود إليكِ، بإذن الله، قريبًا.

تكلَّمي يا مهيرة. تكلَّمي فإنني أُحب صوتك وخجلك عندما تتحدَّثين إليَّ، وأشتاق لاختلاج رموشك اللامعة حين تغضين بصرك عني تأدُّبًا.

تكلَّمي. قولي إنك بخير،

وإنك لا تبكين في ليل وحدتك، مثلي؛

مثل كل الوحيدين.

أنا مظلومٌ يا مهيرة،

مظلوم، لكن هؤلاء الناس لا يصدِّقون ولا يعقلون.

أعرف أنك تتعذَّبين،

ولكن لا شيء بيدي يا مهيرة، ليس بيدي شيء.

وأبي مات. لن تعرفيه أبدًا. لن يعود. لكني حين أعود لن أفارقك بعدها لأي سبب، وسأبقى دومًا بقربك آمنًا، ومؤمِّنًا. ولن يؤلمك ابتعادكِ عن الأهل بعد عودتي.

يا مهيرة، أنت امرأتي. وإن مِتُّ، فلا تتزوَّجي برجلٍ غيري، أرجوكِ، ولا تدعي أحدًا بعدي يعتليكِ عاريةً. لا تفعلي ذلك أبدًا. لن أموتَ بعيدًا عنك، سأعود وسيكون لنا يا مهيرة أطفال، عشرة أو أكثر، ويكبرون وأنت لنا الأمُّ. كلنا سنكون بقربك دائمًا. سوف يأتونك في الصباح بكوب الفوتنج الدافئ الفوَّاح الذي تحبين

احتساءه. وسوف يتزوَّجون بعد حينٍ وينجبون لنا أحفادًا كثيرين، وأكون أنا الجدَّ بشعره الأبيض على البشرة السمراء، وأنت الجدة. الجميلة. الشهية. البيضاء.

اقتربي يا مهيرة، يا أغلى الناس، فإنني أتحرَّق شوقًا لاحتضانك.

شعرك ناعم .. آهِ يا مهيرة..

ن ن ن

هذا هذيان.

ن ن ن

لم تمرَّ عليَّ أوقاتٌ أحلك من هذه الليلة ولا أطول. اسودادُها فحميٌّ فادحٌ، وصُبحها عصيٌّ على الطلوع. مَنْ عساه يمسح عن وجهي الدموع، أو ينقذني من خَبَل الخيالات، أو يعصمني من انحداري إلى هاوية اللارجوع؟ لا أحد. مذاقُ الانتظار مُرٌّ، ومرور اللحظات حين ينفد الصبرُ مريعٌ، يا ربّ، سأصلّي حتى يأتي الحراسُ فيأخذوني للمحقِّق. سأصلِّي وأدعوك فاستجبْ فأنت القائل: ﴿ادعوني أستجبْ لكم﴾..استجبْ هذه المرة فحسب يا رب العالمين ثم افعل بي من بعد ذلك ما تشاء.

الحارسُ الصباحي مَرَّ بلفافات الإفطار وألقى إليَّ بواحدةٍ، ومضى مسرعًا. ما عادوا ينتظرون حتى آكل أمامهم وأُعطيهم الورق الشفَّاف المغلَّف، فقد أدركوا أخيرًا عدم جدواه لأيِّ شيء. يأخذون وقتًا طويلًا لإدراك الأمور الواضحة، المهم، متى يأتون ليأخذوني لجلسة التحقيق؟ رحُتُ أتأمل الشطيرة الملقاة قرب ركبتي من دون اشتهاءٍ للطعام، فالانفرادُ يُفقدنا الاشتهاء. في

طفولتي كانت أمي تدعونا للأكل على طاولةٍ واحدةٍ مجتمعين، ولا تحب لأحدنا أن يأكل وحده، وكانت تقول لنا إن الأسود تأكل معًا والكلب هو الذي يأكل وحده. كان أبي يؤكِّد كلامها دومًا بقوله: «البَركة في اللَّمة»، فنصدِّق كلامه ونقبله؛ لأن قلوب أهل الابتداء كالشمع تقبل كل نقش. لما كبرتُ أدركتُ أن كلامهما كان تهويمًا وإيهامًا؛ كي نعرف لذة الطعام عند الاجتماع معًا، لكنني بقيتُ دائمًا أستشعر الكلبية كلما أكلتُ وحدي. ولكن ما الذي بمقدوري اليوم وقد صرتُ حبيسًا، تحوطني قضبانٌ وأسوارٌ وآلام.

ساعاتُ النهار تمضي وما بعث المحقِّقُ مَنْ يسوقُني إليه، وهذا أوانُ العصر قد اقترب. لو أقدر على النوم فيأتي الحراسُ ويوقظوني من غفوتي ليأخذوني إليه، فأذهبَ مستريحًا وقادرًا على إقناعه بخطأ الذين قاموا باعتقالي، وبأنني لا أحبُّ التطرف ولا الإرهاب. سأقول له إن الأمر كله كان بسبب سوء الفهم، وإنني أعذرهم، ولن أطالبهم باعتذارٍ أو تعويضٍ مالي. الأمريكيون لا يهتمون إلا بالمال، ولا يقدِّسون سواه. لا أريد منهم مالًا ولسوف أسامحهم على كل ما جنوه ظلمًا، وليس عليهم جُناح إذا أطلقوني الآن. سوف أتسامح، ليبرأ قلبي من الغلِّ والمقت، فالمهم عندي الآن أن مُهيرة وحدها وأمي تحتاجني، وإخوتي الصغارَ صغار.. ظلالُ المساء امتدت وما جاء الحراس، ولا تحقيقات بعد الغروب. كَفَى يا ربُّ.

بعد يومين لم أذُق فيهما الزاد ولا عرفتُ هَدْأة نعاس، جاء الحراسُ ليأخذوني إلى المحقِّق من الطريق الخلفي، وفي الغرفة الخشبية ذاتها وخلف الطاولة البائسة نحيلة القوائم، التي عليها التلفون ذاته ذو اللون الملتهب، جلس المحقق بوجه طافحٍ

بأثـر الإجهاد والسـأم، وبدأ حديثه: لقد تأخـرتُ عليك لاضطراري للسـفر في مهمـة طارئة، ولعلهـا كانت فرصة لك؛كـي تفكر بهدوء وتقرِّر أن تتعاون معنا.

- *نعم، سأتعاون.*

- *عظيم، أخبرني أولًا عما تعرفه عن الخلايا الإرهابية في وسط آسيا، بالأسماء.*

- *تقصد أوزبكستان؟*

- *نعم، وأفغانستان.*

قلتُ له والقلب فيه من الأسـى ما فيه، إن الناس هناك مسـلمون طيبون لكنهم لا يعرفون كثيرًا عن الإسـلام، وهم طيلة تاريخهم من «أهل السنة» ومذهبهم الفقهي هو الشافعية، أدخلها إليهم فقيهٌ قديم اسـمه أبو بكر القفَّال الشاشـي نسبةً إلى شـاش، وهو الاسم القديم لمدينة «طشقند» التي هي اليوم عاصمة البلاد.

- *دعنـا مـن التاريخ والجغرافيـا. قل لي ما يجري اليـوم، واذكرْ أسماء الأشخاص المتطرِّفين الذين عرفتهم هناك.*

- *كانـت زياراتـي المتكـرِّرة كلها قصيـرة، ولـم أتعـرَّف خلالها إلـى كثيريـن مـن الأوزبـك، ولـم ألاحـظ أيامهـا أنهـم إرهابيـون أو متطرفـون. لكنهـم فـي الحقيقـة لا يحبـون الـروس، ويعـدُّون فتـرة الاتحـاد السـوفيتي زمـنَ احتـلالٍ لبلادهـم، جـرى فيـه إبعادهـم عـن دينهـم الإسـلامي قهرًا وظلمًا.*

- *ولماذا يكره الإسلاميون الأوزبك رئيسهم الحالي «إسلام كريموف»، ويحاولون اغتياله؟*

- *لأن هذا الرئيس كان أمين الحزب الشيوعي قبل استقلال البلاد، وهو يدين بالولاء للروس، لكنه يتقرَّب إلى المسلمين بتأليف الكتب عن سماحة الإسلام، ويهتم بالاحتفال الشكلي بذكرى علماء المسلمين الذين كانوا من أصول أوزبكية، ولكنه لا يطبِّق الشريعة..*

بتأففٍ يدل على قرب نفاد صبره، سألني المحقِّقُ عن محاولة المتطرفين الإسلاميين اغتيال الرئيس الأوزبكي سنة ١٩٩٧ وتفجيرهم لمبنى البرلمان أثناء تلك المحاولة الفاشلة، فقلتُ له إنني زرتُ البلاد بعد هذا التاريخ بسنوات، وهم هناك لم يذكروا أمامي شيئًا عن تلك الواقعة لأنهم يخافون من الكلام في السياسة. بدا غير مقتنعٍ بما أقول، مع أنني لم أكذب عليه في أيِّ شيءٍ، وبالصدق أُحدِّثه، لأنجو. فاجأني سؤاله: وماذا عن الخمسة الآلاف مقاتل إسلامي، الذين يختبئون في وادي فرغانة.

- لم أذهب إلى هذا الوادي، ولا أعرف أحدًا هناك. وهذه البلاد واسعة جدًّا، وأنا لم أقضِ فيها وقتًا طويلًا.

- *ولماذا تزوَّجت منهم؟*

- *كنتُ أعيش وحدي وخشيتُ من فتنة النساء، فتزوَّجت فتاةً فقيرة لأعصم نفسي من الزنا.*

ملامح المحقق لا تدلُّ على رضاه، كأنه كان يتوقَّع تفاصيل أكثر أو دلائل إدانةٍ لأي أحدٍ. سكتَ لحظةً ثم أدار دفَّة الكلام إلى

فترة إقامتي بالخليج وطلب مني أسماء الذين كنتُ أتعامل معهم هناك، فذكرتُ له ما تذكَّرتُ من أسماء العرب والهنود حتى قاطعني بصوتٍ كالزعيق: أنت تعرف النوعية التي أسألك عنها، فلا تراوغ.

خشيتُ فقدان الأمل في الاتصال بمهيرة، فتحلَّيتُ بالصبر الجميل وجاوبته بأنني لا أريد إثارة غضبه، لكنني لم أعرف متطرفين أو إرهابيين بمنطقة الخليج، وكل ما أريده الآن هو الاتصال بزوجتي لأطمئن عليها حسبما وعدني، ولو لدقيقةٍ واحدةٍ، فهي هناك وحدها. علا صوته:

- *هي ليست وحدها. المهم الآن، هل ستخبرني بأسرار علاقاتك مع طالبان وتنظيم القاعدة؟*

يا أرحم الراحمين. ها نحن نعود من جديد إلى نقطة الصفر، ولا دواء للغباء، فهذا المحقِّق مثل سابقيه يصرُّ على معرفة ما لم يكن. ولو كان هذا الذي ما لم يكن، لاسترحتُ بالإفصاح عنه بدلًا من مواجهة هذا الهباء. أفهمته أن معلومات غير دقيقة ربما تكون قد وصلتهم، فجعلتهم يتوهمون أشياءَ ويريدون إثباتها.. وليتني ما صارحته بذلك، فقد اهتاج فجأةً كأنني اعتديتُ على حصنه الحصين، وزعق فيَّ بوجهٍ صار بغتةً قبيحًا: لا تنتقد طريقة عملنا ولا تحكم علينا، نحن نعرف كل ما تخفيه عنا، ولكننا نريد إعطاءك الفرصة للخلاص من شرورك السابقة، ونسمح بمحاكمتك..

- *أستغفر الله.*

- *ماذا تقول؟ تحدَّث بالإنجليزية.*

غضبه بلغ الغاية القصوى، وكذلك يأسي. لا سبيلَ لما يريد، ولا وسيلةَ لما أريد. ضاقت بي الأرضُ وضُيِّقتْ عليَّ السماء لحظة أدركتُ أن محاولاتي مع المحقِّق تذهب سُدًى، وما عاد الصبرُ عليه يُجدي، ولن يصير في خاتمة المطاف إلا ما كتبه الله لي. وعندئذٍ صحتُ فيه بقوةٍ لا أعرف كيف واتتني، قائلًا: لن أتحدَّث معك بأي لغة، وما دمتُ عندكم أسير حرب كما تدَّعون، فإن لي حقوقًا قانونية. وقد وعدتني أن أكلم زوجتي، فالتزم بوعدك ولا تكن مثل بقية المحقِّقين الجهلة، فأنا لم أفعل شيئًا ضدكم، ولا أريد إلا الاتصال بزوجتي.

- *لن تتصل بعاهرتك الرخيصة، وستبقى مسجونًا هنا حتى تموت.*

«عاهرة، ورخيصة! مهيرة». هذا إذن وقتُ الجنون والانفجار، فما دمتُ محرومًا على كل حالٍ وميتًا، فليكن موتي بشرف. كان المحقق قد تلفَّظ بالفاحشة وهو يميل برأسه إلى منتصف الطاولة، مُنفعلًا، ويضع يده اليسرى على التلفون. وكالصاعقة الخاطفة نهضتُ إليه بأصفادي ونطحتُ جبهته برأسي المتيِّبس اليائس، فانفجر منه الدمُ وراح يصرخ مثل امرأةٍ منعَّمة رأت تحت لحافها ثعابين تسعى. وبفزعٍ صبياني أخذ يصيح: ساعدوني، ساعدوني! سعيتُ للإمساك بالتلفون فمنعتني السلاسل، وبسرعةٍ جاءتني ضربةٌ قويةٌ من تلك التي تقصم الظهر، فألقتني على الطاولة التي انكسرت قوائمها النحيلة تحتي، فهويتُ معها إلى الأرض. التلفون تفتَّتَ قطعًا وصار لونه الأحمر يكسو كُلَّ ما حولي، وكان الاحمرار هو آخر ما رأيتُ قبل استفاقتي على سرير العيادة، العيادةُ الأولى

التـي يتقزَّز فيها الطبيبُ الذي لا يشـبه الأطباء. وجدته جالسًـا على كرســي الكراهية ينظر نحوي بمقتٍ، ولما رآني أسـتفيقُ أسـرع إليَّ بحقنـةٍ رشـقها بأعلـى كتفـي، فدار برأسـي إعصـارٌ فيه نـارٌ أفقدني وعيي مـن جديـد. الخيـالاتُ تملؤنـي، وأصـداءُ أصـواتٍ بعيـدة تأتينـي مـن داخلـي، ومعها صرخـاتٌ. أودُّ لـو أفيق فأفتـح عينيَّ أو أحـرِّك أصابعي، لكن الجفون وأطراف الأصابع لا تطاوعني. يداي وقدماي وبطني المقيد، مخدَّرةٌ تمامًا، ورأسي متحجِّرٌ جافٌّ يجرفه الشعورُ بالانزلاق إلى هاويةٍ لا قعر لها ولا قرار.

بـرأسٍ خـاوٍ تطـنُّ بجوفه ذبابـاتٌ، بقيـتُ على السـرير مكتوفَ الأطـرافِ أيامًـا لا يعـرف عدتها إلا اللـه، ثم وجدتنـي على أرضية زنزانتـي كالنائم في عتمةٍ وفوق أشـواك. تحاملتُ حتى اعتدلتُ في جلسـتي، وبللتُ ريقي بشـربةٍ من الدلو الطافح مـاؤه برائحةٍ عَطِنة، ولـم أقدر على الوضوء أو القيام لأداء الصلوات الحاضرة والفائتة. كـم صلاة فاتتنـي؟ من بيـن قضبان الباب لمحتُ الشـجرة اليابسـة تضربها الأضواءُ الدوَّارة، فتستخرج منها المزيد من مرعبات الصور والخيـالات. أردتُ الابتعـاد عن البـاب فما اسـتطعتُ، فأغمضتُ عيني لأعصمني من شـلال الهلاوس المهتاجـة، وتذكرتُ ما جرى فـي التحقيق الأخير.. لماذا لم يُطلق عليَّ الحراس النيران في غمرة هجومـي علـى المحقِّق السـافل؟ أرى النـاس تموتُ مـرةً واحدةً، وتسـتريح، فهل كتب الله عليَّ أن أشـهد موتي مرات؟ أمرُ الله. لله في خلْقه شئونٌ وشجون، والمفترضُ أنها جميعًا عادلة!

بعـد حينٍ رفعتُ رأسـي وبقيتُ جالسًـا كالموتى حين يحلمون، أهيـمُ في ملكوتٍ لم يُسـمع به وأحـدِّقُ في الفراغ بعينٍ وَسْـنى. لم

أُدركُ إن كنتُ مغمض العينين أم ناظرًا، لحظةَ رأيت الشيخ «نقطة الأكبري» يمرُّ في شارع الزنازين بساقين سليمتين. على رأسه عمامته وخلف ظهره مخلاةٌ يجمع فيها ما يلتقطه من الحصى، وكلما انحنى إلى الأرض ليلتقط حجرًا صغيرًا أو حصاةً شعَّ منها نورٌ برَّاق، كأن الأرضَ سماءٌ والشيخَ يلتقط منها النجوم. ما سرُّ هذا المشهد الغريب؟

اجتهدتُ حتى وقفت في وسط الزنزانة مذهولًا، وقد خطر ببالي مع اقتراب الفجر أن ما أراه، هلاوسُ يسببها عَقَارٌ حقنني به الطبيبُ المتقزِّز. ما كنتُ أدري أنني سأعود إليه بعد ساعات، محمولًا على محفَّة. ففي أول النهار سألني الحارسُ «توم» حين جاء بلفافة الإفطار، عن بقعة دمٍ رآها على ظهر ثوبي حين مِلتُ لآتيه بدلو الماء الفارغ. بدا فَزِعًا، فأفزعني. مسستُ الموضع المبتلَّ بأطراف يدي، فعادت إليَّ أصابعي باحمرار يسيل. كرَّر الحارسُ سؤاله وهو مرتاعٌ، فقلتُ: لا أدري. نادى على زملاء له، فجاءوا مُسرعين لكنني ما عدتُ واعيًا بما به يتحدَّثون؛ لأنني شعرتُ بدوارٍ مفاجئ فاستندتُ إلى القضبان وقد سالت ساقاي حتى قعدت على الأرض. الدُّوَارُ يلفُّني ويُزيغ عينيَّ. بالكاد لمحتُ الحراس الذين حملوني على محفَّةٍ إلى العيادة، ورأيتُ السماءَ فوقي تهتزُّ وترتجُّ أرضي، وسمعتُ الأسرى يتصايحون بعبارات وصلتني كأصداءٍ آتيةٍ من عالم بعيد: الله معك.. أبو بلال.. السلامة يا أخا الإسلام.. استرْ يا ستَّار! ثم تخافتت أصواتهم حتى اختفت.

غاضبًا، سألني الطبيبُ في العيادة عما فعلته بنفسي أثناء الليل، فلم أستطع الجواب بسبب سقوط قواي واحتقان حَلْقي. أمر الحراس فجرَّدوني مما ألبس وبطحوني على بطني، ليرى نزيف

ظهـري. كان بعضهم يضحـك. لكنني ما عدتُ أكترث أو أقدر على الاكتـراث، وبينما المتقـزِّزُ ينظر في موضع النـزف اسـتعدتُ بعضًا مـن وعيي وتذكَّرتُ، فذكـرتُ للطبيب ما جرى معـي في «قندهار» ومـا قيل لـي أيامها مـن أنهم وضعوا بظهـري شـريحةً تـدلُّهم على مكانـي دومًـا. لـم يهتـم. أعطانـي مخـدِّرًا غيَّبنـي وقتًا غيـر معلوم وجدتُني بعده ملفوف البطن ونائمًا عليها، وفي قدميَّ ويديَّ سلسلةٌ تربطني بالسرير. في هذه العيادة، العلاجُ والعقاب.

لا أعـرف عُـدة الأيـام أو الأسـابيع التـي قضيتهـا مصلوبًـا على السـرير، لكـن الألـم كان يخفـتُ رويـدًا مـع مـرور الوقـت، ومـع النـوم بعد النوم. ما الذي أسـال منـي الدم، ولماذا أتـوا بي إلى هذه العيادة البائسـة ولـم يذهبوا بي إلى الأخـرى الأرحم؛ حيث الطبيب الأطيب؟ ولماذا لم يرحموني ويتركوني أنزف حتى أموت؟ قدَّرتُ أنهم نزعوا عني الشـريحة التي زعموا، أو أنهم أصلًا كانوا يكذبون، لكننـي ارتحـتُ لـزوال الآلام وللإغمـاء الدائـم. في يومـي الأخير بالعيـادة كنتُ فـي معظم الأوقـات واعيًا بما يـدور حولـي من كلام الحـراس، وإن بقيتُ أمامهم مغمض العينيـن بلا انفعالٍ ظاهر. كان بالعيـادة ثلاثةُ مرضى آخرين، من المسـجونين، وكثيرٌ من الحراس الذين سمعتهم يتذمَّرون فيما بينهم ويشتكون من أمورٍ يرونها مهمة، فأحدهـم يشـكو لصاحبه مـن رداءة نوع الشـيكولاتة التـي وزَّعوها عليهم في بداية الأسبوع، مؤكِّدًا أنها لا تجلب البهجة. وآخرُ يشكو لزميلته عَنَتَ ضابطه، ويعبِّر لها بمرتعد الكلمات عن خوفه من تلك العقارب التي رآها تدبُّ ليلًا عند حواف المباني والأسـوار. وثالثٌ يبثُّ صديقه الصامت، ما يعانيه من آلام الهوى وتباريح العشق لفتاةٍ اكتشف أنها غير مخلصة، لكنها ممتعة الملاعبة في الفراش!

قبل مفارقتي العيادة بساعاتٍ، توسَّمتُ الطيبةَ في حارس صغير السن بريء القسمات، فسألته عن الوقت الذي قضيته بالعيادة تحت العلاج، وعن تاريخ اليوم الذي نحن فيه. نظر في عيني طويلًا بعينين تلمعان بُزرقةٍ برَّاقةٍ، كأنه لا يجد ما يُجيب به، ثم قال لي بعد حيرةٍ: لا تَعُدَّ الأيام.

أعادوني إلى زنزانتي ظُهرًا والحرُّ شديدُ الوطأة، كأن الصيف قد هجم على العالم فجأةً. كنتُ أشعرُ بأشعة الشمس تغوص في بدني المحمول على المحفة، بينما الهلاوس تُزيغ بصري وتشوِّش عليَّ السمع. ما الذي يحقنني به هذا الطبيبُ الذي لا يشبه الأطباء؟ في الزنزانة نمتُ مؤرَّقًا حتى تخلَّصتُ من آخر الغفوات فجرًا، وفي حلقي مراراتٌ لا تُحتمل، وفي نفسي سكونٌ كأنه استسلامٌ أو يأسٌ. «ما يدوم إلا الدايم». الآن عرفتُ معنى هذه العبارة التي طالما سمعتُ الشيخ «نقطة» يتنهَّد بها، فكنتُ أهزُّ رأسي أمامه موافقًا من دون فهم، فيلتفتُ نحوي ويقول: «الأحوالُ تَحولُ» ثم ينظر إلى بعيدٍ، كأنه كان يعلم أن الفهم سوف يوافيني بعد حينٍ من الدهر.

الأيامُ تثاقلت زكثر نومي نهارًا وليلًا فترحَّلتْ عن جسمي الأوجاعُ رويدًا، واعتادت عيناي ثبات المعتاد رؤيته، وأدمنتُ النوم في آخر الزنزانة وساقاي مضمومتان إلى صدري؛ خشيةَ أن ينخس أحدهم قدمي الحافية أو يدبَّ إليها عقربٌ فأفزعه، فيلدغني، فأموت من هَبَّة الفزع.

غير أنني في ليلةٍ اكتمل فيها البدرُ رأيتُني راضيًا بلا مبررٍ ظاهر، كأن الله قد أفرغ عليَّ زَخَّاتٍ من الصبر، فأخذتُ أسبِّح بعد صلاتي باسمه تعالى «القهَّار»، ثم استطبتُ التمدُّد على الأرضية المعدنية. كان رأسي ناحية الباب، وعيناي تنحدران بالنظر إلى التراب الممتد

علـى الأرض قبالة الزنزانة. رأيت الترابَ كتابًا مبهم المفردات، ولا انتهاءَ له، ثـم رأيته بحرًا يتموَّج بنورٍ فضيٍّ خافتٍ تلمع فيه الأحجارُ الصغـارُ كأنهـا اللؤلؤ المنثور على غير نظام. نمـتُ على تلك الهيئة محمولًا على أجنحةٍ صغيرة لا حصر لعددها، لريشِها لون السحاب في أيام الشـتاء. في مبتدأ الأمر أحسسـتُ بأنني مسـحورٌ، مسحوبٌ إلـى سـطح كوكـب بعيـد ومحبـوسٌ هناك فـي زنزانـة كتلـك التي أسـكنها هنـا، لكنها محاطةٌ بـآلاف الزنازين. وفي آخـر النوم رأيت أبواب الزنازين تنفتحُ إلى أعلى كأنها تتحرك بضربٍ من السِّحر، أو بالكهرباء، فتنفسـحُ مداخلُ الزنازين كلها ويخرج منها المحبوسون وأنا بينهم، وقد صرنا على هيئاتٍ عجيبةٍ، مفزعةِ المنظر. كأننا اليوم في خَلْقٍ جديد. كُنَّا كائنات مهتاجة مثل وحوشٍ غاضبةٍ خرجتْ في الليل تجوس سـعيًا للافتراس. هذا يشـبه الفهد الذي له رأس ضبع، وذاك في صورة أَسَـدٍ أَسْـود جسـمه عجيبُ الاسـتطالة. وعلى هذه الأنحاء الغريبة المفزعة، تشكَّل المعتقلون جميعًا، وكنتُ على هيئةٍ أغرب منهم كلهم. هيئةٍ ذات شكلٍ عجيب لم أعرف شيئًا من قبل، ولا رأيت شبيهًا لها، ولا علَّم اللهُ اسمها للإنسان.

ن ن ن

مـرَّ علـيَّ حينٌ من الدهر توهَّمـتُ فيه أن وجودي قـد انعدم فلم أعُـد شـيئًا مذكورًا، أو ربمـا قامت قيامتـي التي طالمـا انتظرتها، أو هي موشـكةٌ على القيام بعدما اسـتطال القعود. مـا عاد في خاطري شـيءٌ مـن القرآن لأتلـوه إلا آيةً وحيـدةً راح قلبي يُعيدها عليَّ سـرًّا أو جهرًا: فليدعُ ناديه، سـندعُ الزبانية .. فليدعُ ناديه سـندعُ الزبانية.. فليدعُ ناديه..

أدركـتُ بطريقـةٍ خفيـة أننـي في حلـمٍ قد يسـوقني إلـى كهوف الكوابيس. لكنني لم أشـأ الانفلات من أَسْره، واستسلمت لأي أمرٍ قـد يصيـر، بل صبـوتُ إلى الرحلة التـي لا رجوع منهـا. قبل الفجر رجعتُ إليَّ، وكأنني اسـترجعتُ شـيئًا كان قد فُقـد، وعاد إلى قلبي القـرآنُ فتوضَّأت ونويتُ الصـلاة. لحظتها ملأني شـعـورٌ غـريبٌ، ناداني من داخلي هاتفٌ يقول بلسـانٍ عربيٍّ مبين: أَقمِ الصلاة، فهذه البقعة من الأرض لم يُعبد فيها الله من قبل، ولا ارتفع فيها الأذانُ.

دفعتُ عني الكسـلَ والاستسلام المهين، وانتقلتُ بلا سببٍ إلى حالٍ جديدة بعدما تحقَّقت بأن الله هو القويُّ المتينُ، وما عداه هشٌّ وقشٌّ تذروه الرياح. رياحُ الله صرصرٌ عاتية. جالسًا في جوف الليل عنـد بـاب الزنزانة، بدأت بتلاوةٍ مسـموعة للسـور القصـار بالغات الأثـر ﴿اقتربتِ السـاعةُ وانشـقَّ القمر﴾ لـن يندفع القَـدَرُ إلا بقَدَر، ولله في الخلق مهما غفلنا عن الحقائق، أحكامٌ خفية ﴿وإن يروا آيةً يُعرضوا، ويقولوا هذا سـحرٌ مُسـتمر﴾ فما عاد عذرٌ للكافرين، ولله الحجـة البالغة على الذي آمن والذي كفر ﴿ولقد جاءهم من الأنباء مـا فيه مزدجر، حكمـةٌ بالغةٌ فما تغني النُّـذُر﴾.. كأنني غفوت برهةً على هذه الهيئة وتلك الواردات، بينما لسـاني لا يزال يلهج بالآيات على ترتيب السـور. فقد انتبهتُ، فوجدتني أقـرأ الآية: ﴿والليل إذا عسـعس والصبح إذا تنفَّس﴾ ولما رأيتُ في الأفق أول ضوء للنهار قد أتى متسللًا على استحياءٍ، وصبغ طرف السماء بلون النور، قمتُ فأسبغتُ الوضوء مجددًا واستقمتُ كما أُمرتُ ناويًا الصلاة حاضرةً قبل بزوغ الشـمس. المـدد الرباني أتاني فجـأةً، فاندفقتْ في باطني البراكيـن وأيقنـتُ بأنني قلمٌ يكتب به الله في كتاب الكون ما يشـاء،

فاستجمعتُ ذاتي وأمسكتُ بقضبان باب القفص. وبكلِّ ما فيَّ من ألمٍ دفين، ومن اشتياق إلى الله رب العالمين، رفعتُ «الأذان» عاليًا ونغّمتُ الكلمات الخالدات: الله أكبر، الله أكبر..

اهتاجت الزنازين كلها بالتكبيرات، كأنها كانت تنتظر الإشارة منذ زمنٍ سحيق. وعند قولي: ﴿حيّ على الفلاح﴾ أتاني جنديٌّ غاضبٌ نخسني بفوّهة سلاحه، فابتعدتُ عنه إلى داخل الزنزانة وعلوتُ أكثر ببقية الأذان وقد امتلأتُ حماسةً، وزادني الله قوةً واستطاعةً وصفوًا في الصوت. التهبتِ الأجواءُ. في الحال توافد جنودٌ أشداء بأيديهم العِصِيّ، وعلى عجلٍ فتحوا بابي وانهالوا عليَّ بالضرب المميت المسكت، فما سكتُّ ولا انكسرتُ. عصمتُ رأسي من مطر عِصيهم بذراعيَّ، وصار صوتي كالرعد المدوِّي في الليلات المطيرة: «الله أكبر، الله أكبر».. كلما اشتدَّ ضربهم اشتددتُ في التكبير، حتى غدت كلمةُ الله هي العُليا، ولما جاوبني بقيةُ الأسرى زاعقين بالتكبير والتهليل، أضحى المكانُ أرضَ جهادٍ تُعلي النداء السماوي فتبلغ أصداؤه المدى.

من خارج قفصي صاح في الضاربين ضابطُهم الطويلُ النحيلُ، بلهجةٍ آمرة Stop, stop فتوقّفوا عن ضرباتهم التي ما عادت موجعة، أو ما عدتُ أشعرُ بها مع عزيمة الاحتمال التي وهبني الله، وأسرعوا بالخروج من الزنزانة وأغلقوا خلفهم بابها بالقفل الكبير. ما راعني خيط الدم الذي بدا بوسط راحتي حين مسستُ رأسي، إذ انطرح عني الوجلُ من انقضاء الأجل فتحاملتُ حتى وقفتُ وسط الزنزانة مُتحديًا كل ما كان. وكل ما سوف يكون.. اقترب الضابطُ بوجهٍ حجريٍّ عابسٍ، ونظر إليَّ من بين القضبان بعينٍ يملؤها الغلُّ، قال ما ترجمته: كان يجب أن نتركك تموت بدلًا من علاجك،

ولكن لا بأس، سوف تُعاقب على هذا الإجرام.. كان يزعق بالكلام ومن خلفه يضطربُ جنودُ الخزي وهم خاسئون، يلهثون مثل كلابٍ تهارشت حتى تمزَّقت آذانها وتسلَّخت ظهورها. والأمرُ يومئذٍ لله.

منعوا عني الطعام يومين، والأدوية، فما وهنتُ وما توقفتُ عن إعلاء كلمة الله وعن رفع الأذان في مواقيته، بحسب ما أستطيع التحديد. من اليسير معرفة مواقيت الفجر والظهر والمغرب، فالشمسُ تدلُّ عليها والظلُّ المختبئ. أما صلاة العصر والعشاء فكنت أجتهد في تقدير وقتيهما، وكان المحبوسون يفرحون بالأذان ويعقِّبون عليه بأصواتٍ عاليةٍ تأتيني من بعيدٍ، مختومةً بعبارات من نوع «أكرمك الله يا أبا بلال.. والله ما قصَّرت يا صوت الحق.. حيَّاك الله يا أخي» فيزداد حنقُ الحراس وغيظهم من ارتفاع الأذان، كأنه يلسع قلوبهم أو يستجلب إليهم زبانية العذاب أو يمزق قلوبهم الغُلف ويفجِّر أقفالها. هذا جزاؤهم. بعد اليومين منعوا عني الماء أيضًا، فما ارتدعتُ؛ فقد نويتُ أن أموت شهيدًا ما دمتُ ميتًا على كل حال.

في اليوم الرابع أمضيتُ طيلة نهاري راضيًا، مُستطيبًا أحوالي، مستهينًا بالعطش والجوع. ومتحقِّقًا بمعنى قول النبي: أرحنا بها يا بلال.. رأيتني قد صرتُ هانئًا بما صرتُ فيه، ومُصرًّا عليه حتى تقوم قيامتي، وقد اقترب أوان فراقي للحياة على كل حال. يومها، عند دخول العتمة الليلية جاء ثلاثةٌ من جنود الأعداء، أشداء، وقيَّدوني بإحكامٍ وساقوني في الظلام من خلف الزنازين متسلسلًا، مكمَّم الفم، مُغمَّى العينين. كانوا يسيرون بي من دون صوتٍ، كسارقين

يتسلَّلون بما غنموه تحت سُتُر الليل. عددتُ الخطوات التي أمشيها محاطًا بأنفاسهم المتهدِّجة، فكانت ثلاثًا وسبعين وسبعمائة خطوة، بحسب ما سمح القيدُ لقدميَّ بالخطو.. إلى أين يأخذونني؟

اختطافهم الليلي انتهى بي إلى قفصٍ صَدِئٍ كبيرٍ يعلو مترًا عن الأرض، على أعمدة معدنية، ويُصعد إلى بابه بدرَجٍ معدنيٍّ يتصاعد بثلاث عتباتٍ عريضة. بداخل القفص كشفوا عن عيني القناع وعن فمي الكمامة، وتركوني ومعي لفافتان من الطعام البارد ودلوٌ فيه ماءٌ، بعدما فحَّ أحدهم بلسانِ التشفِّي قائلًا: لن يسمعك هنا إلا هذا الدلو، فتحدَّث معه واشربْ منه ثم اقضِ فيه حاجتك، يا حيوان.

الزنزانةُ الجديدة البعيدة، فسيحةٌ وباردةٌ ومصمتةُ الأجناب بحوائطَ معدنيةٍ متينةٍ لا لون لها. لها هيئةُ الحاويات القديمة الصدئة. لم ألحظْ في عتمة الليل أنها قفصان كبيران يفصل بينهما حاجزٌ من القضبان القوية الطولية، ولكل قفصٍ منهما بابان. الأول يفتح إلى الداخل وليس فيه إلا عيدان الحديد وفتحات المناولة والتقييد، والبابُ الآخر خارجيٌّ ينزلق على عجلاتٍ من تحته ومن فوقه أيضًا عجلاتٌ معدنية، وهو مصمتٌ تمامًا كالجدار المتين. فإذا انغلق البابان على القفصين صار المكان كالقبر الصامت، المعتم، فلا يصله ولا يصل منه أيُّ صوت أو ضوء.

أدركتُ في أول ساعةٍ أن مقصودهم فصلُ صوتي عن بقية المحبوسين، وتأكَّدتُ من ذلك عندما رأيتُ حرصهم على إغلاق البابيْن الخارجييْن عليَّ عند مواقيت الصلاة، وعند دخول المساء، فلم أعد أرى الضوء إلا لمامًا. لا يهم! بقيتُ أرفع الأذان في عُزلتي، فلا يصل صداه إلا لأُذنيَّ. لا يهم! وكنتُ في معظم النهار وفي أول

الليل، أسمعُ أصواتًا كالهسيس ولا أرى شيئًا من خلف الحوائط الحديدية المحيطة بي من الجهات الخمس أحيانًا، ومن الجهات جميعها في أغلب الأوقات. لا يهم، فالمهم أنني صرتُ حقًّا وصدقًا «أبو بلال» ولن أضلَّ ثانيةً عن هذا الطريق، بعدما هداني الله إليه، وإليَّ، بطُرقه الخفية.

كانوا كلما أغلقوا عليَّ الباب الذي بعد الباب، شققتُ الفراغ المحيط بي وبددتُ البرودة والعتمة ورائحة الصدأ، بالترتيل والتلاوة. لقراءة القرآن في العتمة حلاوةٌ لا يعرفها غير عباد الله المؤمنين، ولله في خلقه أسرار لا يعلمها إلا هو. سبحانه. الحراسُ حانقون عليَّ كأن لهم ثأرًا عندي، ويتفنَّنون في إيذائي بحيلٍ كثيرةٍ معظمها قبيحٌ لا يُحتمل. يأتون أحيانًا بكلابٍ أشرس من الذئاب، بل أحرُّ منها مزاجًا وأشنعُ منظرًا، فيخرجونني متسلسلًا إلى البقعة الخالية التي أمام هذه الزنزانة المزدوجة، ويهيِّجون كلابهم حتى تودّ لو تنقضُّ عليَّ بأنيابها الفاتكة المشرعة بقربي كالنصال، ويتضاحكون كأنهم يمرحون. لكنهم في حقيقة الحال ينفِّسون عن غيظهم الكظيم، ويتشفُّون. كلما تجمَّعوا لفعل ذلك تلوتُ الشهادة، ثم سكنتُ في جلستي على الأرض مستسلمًا لأقدار الله، حتى يكفَّ عني أذاهم ويترحَّلوا عني وقد سأموا من هذا العبث الخطير. لو انفلت كلبٌ من يد ماسكه، لفتك بأحشائي ومزَّقني.

أحيانًا يأتي الكلابُ بكلابهم وهي مهتاجةٌ، ويطلقونها في النصف الآخر من الزنزانة ويغلقون عليها الباب، فتُجَنُّ ولا ترى أمامها في الضوء الخافت غيري، فيعلو نباحها وتتدافع نحو فاصل القضبان وهي تريد أن تخترقه وتلتهمني. الله ستر وسكَّن باطني

وحفظني من الهلاك ببركة ما أحفظه من القرآن، لكنني أرى في نومي المتقطع كلابًا ضخمةً شنيعةَ المنظر، تهمُّ بافتراسي، فأهبُّ من خطفات الوسن مذعورًا مرتجفَ الأكتافِ. بعد مراتٍ مريرة من هذا التعذيب العابث، تغيَّر الحراسُ وجاء بدلًا منهم جماعةٌ جديدةٌ فيها مجنداتٌ كثيرات، فكان هؤلاء أقرب إلى بني الإنسان من سابقيهم. أو لعل أحدًا نهى هؤلاء عن الإفراط في الإيذاء، فما عادوا يفعلون بي الشنائع كسابقيهم.

مع مرور الأيام هدأتْ خواطري وسكنتْ أوقاتي، فأكثرتُ من القيام والتلاوة والتفكُّر في ملكوت الله؛ تلبيةً لما ورد في آي القرآن. وأمضيتُ على هذا الحال شهورًا مرَّت عليَّ رتيبةً، إلا في المرات التي أخذوني فيها إلى غرفة تحقيقٍ قريبة، غير تلك المثلَّجة الأولى والملهبة الثانية. يستغرق الوصول إليها ثلاثًا وستين ومائة خطوة. جرت فيها التحقيقاتُ كلها على المنوال ذاته، عدا التحقيق الأول. فهم في كل مرةٍ يسألون، وأنا أسكتُ، وأتلقَّى من خلفي الوكزات والوخزات والضربات. التحقيق الأول المختلف، كان بعد انتقالي للقفص الجديد بيومين. ففي ساعة الضحى اقتادني خمسةٌ من أحفاد العماليق إلى تلك الغرفة القريبة، فوجدتُ فيها محققًا نحيلَ القوام وضابطة شمطاءَ ضيقة الأكتاف تتكلم من أنفها. كلاهما يلبس الزيَّ العسكري. في المواجهة منهما جلستُ مرفوع الرأس، مردِّدًا في سرِّي: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ حتى ابتدرني المحقِّق بصوتٍ كالزعيق: إذن، أنت من مثيري الشَّغَب والاضطراب..لم أُجِبْ.. قالت الشمطاءُ بصوتٍ كالفحيح: لماذا تخالف النظام وتنشر الفوضى؟ قلتُ:

- *رفعُ الأذان واجبٌ وليس فوضى، هذا نظام الله للمسلمين.*
- *لا شأن الآن لنا بالدين. النظامُ هنا هو طاعة الحراس، والالتزام بالقواعد الواضحة لهذا السجن.*
- *طاعة الله أهمُّ عندي، وأَوْلى، وهذا ليس سجنًا.*
- *وما هو في رأيك، إذن؟*
- *جحيمٌ أرضيٌّ تضعون فيه سبعمائة بريء؛ لأنكم ظالمون ولا تعرفون الحق.*

بوغت المحقق من كلامي، فقال من فوره بلسانٍ يتوتَّر: كيف عرفت هذا العدد، ما مصدرك؟ فلم أنطق بشيء. تدخلتِ المرأةُ مجدَّدًا وقالت بنبرةٍ أرقّ وأخبث: أوكِّي، ولكن لماذا تتخيَّل أن عددْ الأسرى هنا سبعمائة؟ هل رأيتهم جميعًا، أم إنك عرفت ذلك من أحد الحراس؟ نظرتُ إليهما باحتقارٍ يستحقه الكافرون، وقلتُ لها لأزيدهما غيظًا على غيظ: عرفت العدد من غباء القائمين على هذا الجحيم الذي تسمونه سجنًا، فقد أعطوني الرقم ستة سبعة ستة، فدلَّني ذلك على أن عدد المحبوسين هنا يقارب السبعمائة.

كأنني ألقمتُ المرأة حجرًا. فقد اضطربت نظرتها وارتبكت، فأدركها زميلها بأنْ تدخَّل في الكلام وهو يحكُّ بأطراف أصابعه جانبي وجهه الطويل كوجوه الكلاب والذئاب. قال ببطءٍ: انظرْ، ليس من صالحك إثارة الفوضى هنا، لن تستطيع شيئًا، ولن نسكت على أفعالك، سوف نعاقبك بشدة لتكون عبرة للآخرين..

- *لم يعد يهمُّني.*
- *ماذا، هل تُعلن العصيان؟*

- بـل أُعلن أنني بريء وأنكم ظالمـون، وليس بأيديكم أكثر مما فعلتم سـابقًا بي. والاختيار الآن لكم، فإما أن تطلقوني، وإما أن تقتلوني فتستريحوا مني وأستريح.

- نعم، فهمتُ. أنتَ إذن من الجهاديين الانتحاريين..

- أنـت لـم تفهم شـيئًا، ولن تفهم أبدًا. ولـن أردَّ بعد الآن عليك، ولا على أيِّ واحدٍ منكم.

حاولـتِ القبيحةُ الإمسـاك بزمام الكلام بأن سـألتني المعتاد من أسـئلة المحققيـن. الأسـئلة التـي تنـزُّ غبـاءً وجهلًا. فلـم أردَّ عليها بكلمـةٍ واحدة، ولـم أُظهر الجزع حين نخسـني الحارسُ من خلفي بمقدِّمة البندقية لأنطق، فما نطقتُ مع أن أَذِيَّـتَـهُ كانت مؤلمةً.. راح المحقِّقان يراوداني عن صمتي، فاستمسكتُ بالقراءة الهامسة للآية ﴿وجعلنا من بين أيديهم سـدًّا ومن خلفهم سدًّا، فأغشيناهم فهم لا يبصـرون﴾ وأخـذتُ أكرِّرها متغافـلًا عما يقولان. رفسـني حارسٌ فانزلقتُ من فوق الكرسي، ولـم أسعَ للقيام حتى رفعني واحدٌ منهم من ياقتي البرتقالية المبلَّلة بالعَـرَق، وشـدَّني زملاؤه من سلاسـلي فأجلسوني مجدَّدًا. لم تنجح صفعاتهم التالية في إنطاقي بأيِّ شيء، أو حتى الاسـتماع لأسـئلة التحقيق، فقد بقيـتُ أتمتم بالآيات حتى اقتـرب منـي المحقِّقُ كأنه سـوف يخيفنـي، وقال من مـكانٍ قريب: ارفع صوتك، ما هذا الذي تهمس به؟

رفعتُ صوتي بقوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مسـتورًا﴾ فلم يفهم من الآية شـيئًا. وكيـف يفهم هؤلاء وقد ختم الله على قلوبهم، وجعل على عيونهم غشـاوةً فهم لا يبصرون. عاد المحقِّق إلى كرسيه، فعدتُ إلى سورة

الإسـراء أتلو بقية آياتها بصوتٍ مهموس. لسـورة الإسـراء أسـرارٌ. عندما وصلت إلى قولـه تعالى: ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾ قام المحققُ والمـرأةُ فانصرفا خاسئيْنِ، فحمـدتُ الله على آلائـه التي لا يبلغها الإحصاءُ، وأسـلمتُ له الأمـور جميعها. اسـتكملتُ التلاوة خلال رحلـة رجوعي إلـى الزنزانة، محجوب النظر، فوصلـتُ إلى الدَّرَج الصاعد إليها وقد وصلت للآية: ﴿ولولا أن ثبَّتناك، لقد كدتَ تركن إليهم شيئًا قليلًا﴾ لله ألطافٌ خفيةٌ.

ما جرى جديـدٌ في مرات التحقيق التالية، كانت الأسـئلةُ الغبيةُ هـي هـي، وصمتي الممـلُّ هو هو، وكانـت هذه الجلسـات العبثية تطول حتى يسـتغرق البعـض منها النهار كله، لكـنَّ تحقيقًا منها لم يسـتمر إلا دقيقـة أو اثنتين. إذ جلس يومهـا أمامي محققان لم أهتم بالنظـر إلـى وجهيهمـا، بدأ أحدهمـا الـكلام بقوله إنهما مـن فرقة التحقيق الجنائي فلم أفهم من ذلك شـيئًا، ثم أضاف: سؤالي الأولُ هـو: هـل تعرَّضتَّ لأي نوع مـن أنواع التعذيب؟ فقلـتُ: تعرضتُ لكل الأنواع..

سـألني المحقِّـقُ الآخـر إن كنتُ قـد أمضيت أكثر من شـهر في الحبـس الانفرادي، فقلـت: أكثر بكثير! فقاما مـن فورهما وتركاني مـن دون أن ينظـرا خلفهمـا وانصرفـا غاضبيـنِ مـن غير اسـتكمال التحقيق، وعاد بي الجنود وهم متجهِّمون. ما عدا ذلك من جلسات التحقيق، كان متشـابهًا في عبثيته وكنتُ أسـأمُ منه وأنفرُ من سُـخف هذه الجلسـات، مع أنها السـبيل الوحيد للاغتسـال بضوء الشـمس في ذهابي والإياب. وصرتُ في كل مرة أتعجَّلُ الانتهاء، وأحنُّ إلى العودة بسـرعة إلى الزنزانة المنـزوية حيث أمـلأ أوقاتي بالصلوات

الفرائـض والنوافـل، وبالتـلاوة؛ كيـلا تنفلـت مـن حفظـي الآياتُ القرآنية. وكنتُ أتوغَّـلُ أثناء التلاوة في مفاوزِ المفردات والمعاني، فتبدو لي أمورٌ كانت من قبلُ محجوبةً عني. منها أن الله أراد بسـابق علمـه الأزلي أن يبعدني عمن أحبهـم؛ ليكون الحب خالصًا لوجهه الكريم وليس مشـوبًا بسـواه. فحسـبما قال النبي حقًّا وصدقًا، وهو أصدق القائلين: إن الله إذا أحبَّ عبدًا، ابتلاه، فإذا أحبَّه الحبَّ الجمَّ قَطَعه فلم يُبْقِ له مالًا ولا ولدًا.

وقـد كنتُ قبلًا بلا ولـدٍ وبلا مالٍ يعتدُّ به، فصرتُ الآن خالصًا له تعالى بلا تعلُّقٍ ولا ميلٍ إلا إليه. وقد طابت بالقُرب نفسي وتحقَّقتُ مـن أنني كادحٌ نحـوه كدحًا حتى أُلاقيـه، وأدركتُ حقًّـا وصِدقًا أن الفاريـن منـه والفاريـن إليه سينتهي سـعيُهُم عنده. في غيـر أوقات الصـلاة، أروِّحُ عن نفسـي بحركاتٍ لو عرفها عنـي الآخرون لقالوا إننـي مجنون، كأن أُغمضَ عيني وأنا جالس في سـكونٍ كالراكعين، فتتأرجـح ببطءٍ رأسـي وتنسـحب روحي رويدًا إلى أسـافلي، وعند خروجهـا تُدغـدغُ مؤخـرةَ دماغـي وأطـراف كتفـيَّ وظهـري، ثـم تحملني وتحلِّق بي في الفراغ حتى أطيرَ في سماوات غير تلك التي يعرفهـا الناس، وأشـاهد من عجائـب الخلق ما لا عيـنٌ رأت. أعلو فوق الشـواهق كلها، وفوق العلو، فإن خفتُ الوقوع أفتح عيني بغتةً فأجدني جالسًا في أمانٍ، فأبتسمُ.

وصرت أحادثُ الشيخ «نقطة» كثيرًا في رؤي النوم واليقظة، من دون التلفُّـظ بحـرف. نتحاور بالنظر. أسـأله بعينيَّ عـن حال أحبتي البعيدين، فتأتيني منه نظراتٌ مُطمئنةٌ تُشـيع فيَّ الراحة. وأسـاله عن الآتي، فتشـرقُ عيناه بمعنًى غريب كنتُ أسـمعه منه في شبابي، ولا

أفهمـه: زَمانُـكَ حَالُكَ، بـلا ماضٍ لك ولا آتٍ إليـك! أما الحراسُ، فما عدتُ أدري إن كنتُ قد نسيتُ وجودهم فنسـوني، أم كَفَّ الله عنـي أذاهم فانصرفوا عن عبثهم القديـم، أم تغيرت أحوالهم بأوامر جاءتهـم فصـاروا أخـفَّ وطـأةً. في أمسـيةٍ سـاكنةٍ قلتُ في نفسـي مواسـيًا: لعلهم مثلي محبوسـون! فجاوبني الشيخُ من دون صوت: بل هم محرومون يـا ولدي؛ لأنهم هاوون في هاوية الكراهية. ومن اليسـير على الناس أن يكرهوا، وسهلٌ عليهم أن يجهلوا فلا يفهموا أو يتفهَّموا، أما الحبُّ فيحتاج مغامرةً وجهدًا وإجلاءً لمرآة الروح. الحـبُّ هو أجنحةُ الحرية، وهو فضاؤها الفسـيح.. هل كان الشـيخ يحدِّثني بذلك، أم كنتُ الشيخ والمريد؟!

عندمـا خَفَّ عَنَتُ الجنود قلَّ إغلاقهم للبابِ الخارجي. فصرتُ فـي معظم الأحيان أرى ما أمام زنزانتـي، وأتطلَّع طويلًا في الأرض الجرداء البادية من بين قضبان الباب الداخلي.. قمتُ مرةً من سجدةٍ طويلة فلمحتُ خلف القضبان مجنَّدةً تُحملق فيَّ بعينين تندهشـان، ولما ختمتُ صلاتي سـألتني بلسـانٍ طفوليٍّ يناسب ملامح وجهها: ما هذا الذي تفعله؟ لم أجبها بشـيءٍ وصرفتُ عنها عينيَّ إلى داخل الزنزانـة، فانصرفـتْ مـن أمامي ولم تغلـق الباب الخارجـي. ليلتَها رأيـتُ علـى ضوء الكشَّـاف الـدوَّار، خيطًـا يلمع علـى الأرض في العتمـة. قمتُ إلى القضبان لأتحقَّق مما لمحتُ، فرأيتُ ثعبانًا بطول ذراعٍ يسبح حُرًّا طليقًا فوق صفحة التراب، متجهًا إلى السور الشائك المقابل. أتراه يسكن تحت زنزانتي وخرج الآن يطلب الرزق المقدَّر له مُذ الأزل، أم جعله الله يعبر أمامي بعد إطلالة المجندة، لأُدرك أن الثعبان والمرأة بينهما صلة قربى. وكلاهما سام؟ غاص قلبي لوهلةٍ

ثم تذكَّرتُ أن الثعابين لا تهاجم الناس ابتداءً؟ ولا تقتات على لحم البشر، أما النساء فهنَّ الفتنةُ التي لا تكفّ شرورها. كأنني لمحتُ الشيخ يشيح عني بوجهه، ففهمتُ الإشارة وطردتُ عني الخواطر المشوّشة، وذكرتُ بقلبي قوله تعالى: ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ فهدأت روحي واستطابتِ الأوقات. جلستُ بآخر الزنزانة متفكِّرًا في تصاريف القَدَر، وكيف اقتضتْ أن أحسد ثعبانًا على حريته وسعيه وراء قوته. في الصباح قلت للحارس الذي جاءني بالطعام والماء، إنني رأيتُ الليلة الفائتة ثعبانًا قرب الزنزانة، فقال مستخفًّا: لا تقلق، فالثعابين لا تنهش الثعابين. غضضت النظر عن سماجة جوابه، وسألته مجدِّدًا عن السبب في ترك الزنزانة المجاورة خاليةً من المسجونين، فقال وقد استغرب السؤال: هذا حبسٌ انفرادي، فكيف تريد صحبةً فيه؟

فهمتُ من كلامه ما لم يقصده وأدركتُ أن الأنس يكون مع الله، وبالله، وليس الناس. ومن يومها استأنستُ بوحدتي راضيًا بما أراده الله، وصابرًا، ولولا ثورانُ النفس أحيانًا لصرتُ راضيًا بالقضاء قلبًا وقالبًا. لكن الرضا التامَّ حالٌ عزيزة، لا نحظى بها إلا إذا سبق الله أولًا بالرضا حسبما قال تعالى: ﴿رضي الله عنهم، ورضوا عنه﴾.

لاحظتُ مع استطالة الوقت أن الحراس يتبدَّلون كل فترةٍ، وتختلف وجوههم وطريقتهم كلما تغيَّروا. وقد عرفتُ الفترة التي يقضونها هنا، عَرَضًا، حين جاءني الحارس المسمى «توم» يومًا ووقف أمام بابي ممسكًا بقضبانه وقال: جئت لأودِّعك يا برسّ فقد انتهت الستة الأشهر، وكنتُ أتمنى أن أتكلَّم معك أكثر لأعرف المزيد عن الإسلام، فأنا من «المورمون» وبيننا تشابهٌ في بعض الأمور.

لـم أعرف مـا حقيقة هؤلاء «المورمون» إلا بعـد زمن، فلم أفهم يومهـا مـراده مـن قوله إننا نتشـابه في أمـور. لكنني رأيـتُ في عينيه الحيـرة التـي تهتاج في قلبـه وتؤرِّقه، فقلتُ له مـن دون أن أقوم من جلسـتي عقب الصلاة بِما ترجمته: ربما نلتقي مرةً أخرى في ظروفٍ أفضـل، ويمكنك معرفة المزيد عن الإسـلام بقراءة بعض الكتب.. هَـزَّ رأسـه موافقًـا ومضى مـن أمامـي بخُطًى متثاقلـة فقمتُ نَشِـطًا واسـتكملت صلاة النوافل، وأثناء سجودي داهمني خاطرٌ عجيب. «الكل محبوس، داخل زنزانةٍ، أو خارجها».

المجموعـة الجديدة التي جاءت بعد رحيل هذا الولد المسـمى «توم»، أسـميتهم في سـرِّي اللاهين. كان عددهم أكبر من سابقيهم وميلهـم للعبث أكثر، كأنهـم طلابٌ غير مجتهدين خرجوا في رحلة أثناء اليوم الدراسي. ما اهتممتُ بالتعرف إليهم. لا أميلُ إلى الكلام مع الحراس اتقاءً لشرورهم، واستغناءً بالله عن العالمين، والصمتُ معهـم فـي غالب الأحيان أسـلم. الحـراسُ والحارسـاتُ معظمهم مجنـدون جُـدُد، أعمارهم تدلُّ على ذلك، ولكـنْ فيهم بعضُ العتاة من القُدامى المهووسـين منذ الصغر. مع مرور الوقت صار بعضهم يأتـي إلـى زنزانتـي بخُطـى السـأم، فيجلس علـى الـدرج المعدني الصاعـد إلـيَّ ويسـألني عن أمـورٍ تافهـة، فـأردُّ عليه أو عليهـا بأقل جواب، أو أشـيح بوجهي. هم يكرِّرون أسـئلةً غريبـةً غير تلك التي يكررها المحققون، فيسـألون: لماذا أنت مسـلم، ولماذا المسلمون إرهابيون؟ كيف يعيـش المصريون في الكهوف والصحراء، ولماذا يختنون البنات، وما سـرُّ تقديس المسـلمين للقرآن؟ وغير ذلك من الأسـئلة الدالـة على الجهـل المسـتحكم، وعلى ضحالـة معرفتهم

بغيرهم. كنتُ أحيانًا أجيبهم بحسب الحال وأحيانًا لا أكترث، وقد لاحظتُ مع مرور الوقت أنهم يتحاشون الإفصاح عن أسمائهم كاملة، كأنها أسرار، مكتفين بتعريف أنفسهم بأسماء التدليل «نيكي، ماجي، جيك» ومثل ذلك. وعرفتُ أن كثيرًا منهم نشأوا في أحياءٍ فقيرةٍ أو ملاجئ أيتام، ولاحظتُ أن الزنوج منهم وسُمر الوجوه أكثر لطفًا معي، ربما لاشتراكنا في اللون. من هؤلاء حارسةٌ زنجية الملامح اسمها «سالي» كانت تأتيني بوجباتٍ إضافية، وتملأ لي دلو الماء النظيف قبل الموعد إذا طلبتُ منها ذلك، وتراقبني باسمةً حين أتوضَّأ وهي مندهشةٌ مما أفعل، وكثيرًا ما كانت تسألني: *لماذا لا تنظر نحوي حين تكلِّمني؟* فأجيبُ: *تلك آداب الإسلام.*

بيضُ البشرة والشُّقر من الحارسات والحرّاس، أكثر فحشًا، وقد رأيت منهم ومنهنَّ ما يندَى الجبينُ خجلًا عند ذكره. خصوصًا في تلك الأيام التي يأخذونني فيها للاستحمام في الكوخ القريب من زنزانتي، فأقف أمامهم عاريًا وهم يتغامزون ويتضاحكون، ويفعلون ما يدل على سقوطهم. وحتى في غير أيام الاستحمام، هم لا يكفون عن شنائع أفعالهم وقبائح المزاح. كان واحدٌ منهم يقف خلف قضبان بابي ويتفاحش، بينما أصحابه من حوله يتضاحكون من خَبَل أفعاله وهو يفضح نفسه على الملأ، ويؤرجح عضوه بيده ليغيظني. كنتُ أغضُّ بصري وأشيح عنه وأتلو في سري سورة (الكافرون) ثم أتلوها بالمعوذتين، وأعيد التلاوة جهرًا حتى ينصرف عني خائبًا خاسئًا وهو حسير، فأواسي نفسي بقراءة الآية: ﴿وكلما مَرَّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه، قال إن تسخروا منا، فإنا نسخرُ منكم كما تسخرون﴾.

في مراتٍ أتت حارسـاتٌ شقراوات شغوفات بالفحش، فكانت الواحـدة منهـنَّ تفعل أمامـي سـافل الأعاجيب. كأن ترتقـي الدرج وتقـف قبالـة قضباني، أو تدخـل إلى الزنزانـة المجـاورة، ثم تغنج وتتأوَّه وتُسـمعني سـاقط الكلمـات وهـي تتمايل أو تفـكّ أزرارها وتدعـك أنحاءها الحصينة آملةً في إهاجتـي والإزراء بي؛ ليضحك الذين حولها. أستغفر اللـه ﴿فليضحكوا قليلًا وليبكـوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسـبون﴾. كنـتُ أحوِّل عنهنَّ وجهتي وأقـرأ قرآني حتى يصـرف الله عنـي السـوء والفحشـاء، فترحل البائسـةُ منهـنَّ خائبةَ المسـعى مـن دون أن تدرك وهي المسـكينة، أن الله قـد عافاني من الرجـس وأَذْهـب مـن قلبي شـهوة النسـاء التـي ابتلى بها كثيـرًا من العبـاد. للـه ألطافٌ خفيـة. ومن آيـات رحمته تعالى، أنـه أخمد في نفسـي الطلب الفطري وأذهب عني اشـتهاء النساء، فما عدتُ أميلُ إليهنَّ أو أزيغُ. ولا اشـتهاء إلا بميلٍ وزيغ ﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب﴾.

على هـذا اليقين بقيتُ زمنًا، سـالمًا ومسـتريحًا لأوهامي، حتى ابتلانـي اللـه بتلك الحارسـة التي اسـمها «سـالي»، وهزَّني ضعفي وأعانـه خائنـةُ عيني وما أخفاه صدري. ففي ظهيرةٍ شـتويةٍ مُشمسـةٍ أسـندتُ ظهري إلى القضبان الفاصلة بين الزنزانتين، وملت برأسي إلى قضبان بابي مُتمنيًا لو كنتُ جالسًا تحت هذه الشمس المفروش نورهـا أمـام زنزانتي. كان الضجـرُ يطوِّقني حين رأيتُ «سـالي» آتيةً نحوي بطعام الغداء ومعه تفاحةٌ فوَّاحةٌ بعبيرها، برَّاقةٌ بلونها القاني. وقفتْ بجوار الدرج ولـم تصعده، ومدَّت لي ما معها فأخذته منها بيدِ الرضـا ولأنني كنتُ أعلـى منها موضعًا، ولأنها نسـيت الزِّرَّ الأعلى

مـن قميصها مفتوحًا وكاشـفًا عن انضمامة نهديهـا المتمرِّدين، فقد استنامت عيناي لوهلةٍ على الشقِّ الأسـمر الناعم. اللامع. الشهي. لحظتها غلبتني نفسـي الأمَّارة بالسـوء، فوددتُ لو ألمس في خيالي هذا المنحدر القويَّ الطريَّ، أو أخمشه بأطراف أناملي، أو ألصق به باطـن راحتي فأرتـاحُ حينًا بهذا المسِّ المسـتحيل. هي لـم تلحظ ما عصف بي، ولم تفهم قولي: «أستغفر الله». توهَّمتْ أنني أشـكرها على التفاحةِ والطعامِ المضاعف، فابتسـمتْ لي ورجعت إلى حيث جـاءت، غيـر عابئـةٍ باللهب الـذي قدح صدرُهـا الجميلُ شـرارته. استغربتُ بعـد رحيلهـا حالـي وثورانـي المفاجـئ، فاسـتعصمتُ بالتلاوة لكن خواطري ظلت تتداخلَ فيما بينها، وتشوِّش عليَّ.

صبيحةَ اليوم التالي، بعد ليلةٍ أمضيتها مسهَّدًا، جاءت إليَّ بإفطاري وسألتني إن كنتُ أريد بعض الكتب، فأجبتها من فوري: طبعًا، هاتي منهـا قَدْر ما تسـتطيعين.. لحظتها ابتسـمتْ، فبدتْ أجمل. أسـنانها المصفوفـة بإتقانٍ باهرةُ البياض بديعةُ اللمعان، وشـفتاها الشـهيتان تغلِّف بالاسـمرار احمرارًا لاهبًا، لا يبدو للناظر إلا إذا ابتسـمت له من مكان قريب. لمـا ابتعدتْ عني بخطواتٍ، ناديتُ عليها لأعطيها بواقـي طعـامٍ مُلقى في الزاوية؛ كيلا يسـتجلب الفئـران إلى زنزانتي والثعابيـن. عـادت إلـيَّ وأخذت مـا مددته لهـا من خبزٍ متخشـبٍ كباطني، وشـكرتها، ولمحتُ نعومة عُنقها فاهتزَّت سواكني. كانت عيناها الواسـعتانِ تتوهَّجانِ بألقٍ لم أعرفه من قبـل، أو كـنتُ أعرفه لكني نسيتُ سحره الذي يسلب الألباب ويذهب بالتُّقى. لما توارت عن عيني، اسـتحضرتُ في نفسـي صورتَها فاستدام عندي نصوعها واسـتطال، حتـى خايلتنـي ملامحها فـي منامي وأشـاعت في بدني دفئًا غريبًا، مشـوبًا بما يشبه سريان الكهرباء الخفيفة. جمح بي قبيل

الفجـر الخيـالُ وزال طُهـري، ولم يصحَّ لـي الوضوء، فلـم أتمكَّن من أداء صلاتي.

بعد ثلاثة أيام جاءتني بالكتب والمجلات القديمة، ظُهرًا، وكنتُ صباحًـا قد تحمَّمتُ وأسبغتُ الوضوء، فأطلتُ فـي الصلوات بعد رجوعهم بي إلى الزنزانة المفردة. توهمتُ أني نسـيتُ سالي، لكنها جـاءت. غضضتُ بصـري عنها وتناولتُ منهـا المجلات والكتب، مُستعصمًا بالاستغفار كيلا يخوض خيالي مجدَّدًا في المستحيل، وكيـلا تميـل خواطري إذا نظرت مليًّـا نحو مفاتنها. عُـذتُ من ذاك بربِّ العالمين الذي أكرمني بسـوابق آلائه، وجعلني من عباده الذين يجتنبـون كبائـر الإثـم والفواحـش، إلا اللَّمَـم. ومَـرَّ الأمرُ بسـلامٍ، فحمـدتُ الله لأنه جعل من عدم الاستطاعة بابًا للعصمة، وفهمتُ مـا كنـتُ قد قرأتـه يومًا فـي كتابٍ غمض علـيَّ معناه: مـن العصمة ألا تقدر.

المجلاتُ القديمة، منـزوعةُ الأغلفة، أحيتْ في نفسي أحاسيس قديمـة. فقـد أبهرتني ألوانُ الصفحـات اللامعة، والصورُ الباسـمة، والمناظـرُ الخلابة، والإعلاناتُ المصورة، ومقـالاتُ الذين يظنون أنهـم يفهمـون، ووجـوهُ النسـوة اللواتـي لا يخجلـن مـن الأنوثة. ومثـل ذلك من أمورٍ تثير في النفس الإحسـاس بالحيـاة المزخرفة، فتدفعنا إلـى التعلُّق الدنيوي. انهمكتُ فـي تقليب الصفحات بفرحٍ طفولـيٍّ، حتى صدمنـي خاطرٌ نبَّهني إلى أن هـذه دُنياهم، لا دُنياي، وتلـكِ حياتهم التي ليس لـي منها نصيب. ومن التعذيب الخفي، أن نتعلَّـق بما ليس لنـا. أزحتُ المجلات إلـى زاوية الزنزانـة، ونويتُ

أن أفرشـها في الليل سـريرًا؛ حتى يطلبوها مني. سالي أخبرتني أنها إعارة لعدة أيام. لا بأس. همسـتُ إلى نفسـي بأن الكتب أكثر إفادةً، فأخذتُ الثلاثة وجلسـتُ قرب الباب حيث الضـوء أوفر، والهواء: الكتـابُ الأول عجيـب، تتحـدَّثُ صفحاتـه عـن عنوانـه الجـاذب «أرواح وأشـباح» فيفيـضُ فـي خرافات لا ضابط لها، من شـأنها أن تثيـر الهواجس عند التفكُّر فيهـا، وتُهيج عند النـوم الكوابيس. وقد نهانا الشـيخُ «نقطة» قديمًا، عن الخوض في مثل هذه الأمور الخفية بحُجةٍ قوية: لو كان في ذلك الخفي خيرٌ، لما ستره الله عنّا.. قال لنا هذا المعنى بعبارةٍ بليغة، ما عدتُ الآن أتذكَّر نصها.

الكتابان الآخران أحدهما يدلُّ عنوانه على محتواه «عذاب القبر وأهـوال يوم القيامـة» وكله مـن كلام خطباء الجمعة في المسـاجد الصغيرة والجوامع، ومما يعرفه عوام المسلمين. لا غناء في ذلك ولا فائدة، إلا رؤية الحـروف العربية مكتوبةً، وهذا مما يؤنسُ المعزول ويفكُّ اشـتباك الشـجون في قلب المسـجون. الكتـابُ الثالث كان هـو الأغرب، ابتـداءً من عنوانه «أنفاس الأماكـن» ومن مقدمته التي تؤكِّـد أن العارفين، هم وحدهم الذين يدركـون الحقائق الغائبة عن معظم الناس، ومن تلك الحقائق أن الناس أنفاس. وكذلك الأماكن والمسـاكن. أعجبنـي الكتاب فالتهمتُ في الصبـاح التالي صفحاته التي تزيد على المائتين بخمسـةٍ وعشـرين؛ لأن ظلام المساء عاقني عن اسـتكمال القـراءة بعد الغروب. في الفصـل الأول كلامٌ غريبٌ يسـتحق التأمُّل والنظر، مفـاده أن لكل مكانٍ روحًا تخصُّه وأنفاسًـا يستشـعرها العارفـون. والأماكن تُحِـبُّ وتُحَبُّ، وتكـرهُ إذا كُرهت وتَحـنُّ حين يُحنُّ إليها. ولذلك نصلِّي ركعتين تحيةً للمسـجد حين

ندخلـه، لتحتفي بنـا أنحاؤه وحنايـاه بعد تلك التحيـة ولا يجفو إذا تجافينـا عنـه. ومن هنا قد يتعلَّق القلبُ بمسـاجد معينة، وقد جاءت الإشارةُ إلى أن الرجلِ الذي يتعلَّق قلبه بالمساجد، يكون من السبعة الذين يُظلّهم اللهُ بظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلّه. ودليلٌ آخرُ يسوقه مؤلف الكتاب بكلماتٍ رقيقةٍ حانيةٍ الحروف، حين يشرح الحديث النبوي الشريف: أُحُدٌ جبل يُحبنا ونحبه.

العوامُ من الناس، حسبما يقـول المؤلِّفُ الغريـب، قد يفهمون حُـبَّ النبـي لجبل «أُحُـد» القريب من مكة، لكـن العارفين وحدهم يدركـون كيـف يُحـبُّ الجبلُ النبـيَّ. ويعرفون سـرَّ ابتـداء الحديث الشـريف بالإشـارة إلى حُـبِّ المكان للنبـي، قبل الإشـارة إلى حُبِّه صلى الله عليه وسلم، له.. «يُحبُّنا ونُحبّه».. والكلام هنا جاء بصيغة الجمع ليدخل المسـلمون في دائرة المحبة هـذه، مع أن هذا الجبل المحبَّ المحبوب، كان أوائل المسلمين قد هُزموا عنده في الموقعة المشـهورة، وكان الأَوْلـى أن يكون جبـل «أُحُد» كارهًـا ومكروهًا، لكن المحبة سبقت وغلبت على الكراهية. كلامٌ عجيب.

أنهيـتُ الكتـاب عصـرًا وجلسـتُ غارقًـا فـي خضـم أفـكاره، ومتفكِّرًا في الأماكنِ والمحَال التي أحببتها حين سـكنتها وسـكنتُ فيهـا، فأحبَّتنـي وحنَّـتْ علـيَّ: بحيـرةُ النوبـة التـي خلف السـد في جنوب أسـوان، ضفَّـة النيل الشـرقية بالأقصـر، زاوية الشـيخ نقطة الأكبـري بأطراف أم درمـان، البوابة القديمة ببلـدة بُخارى، والبيت الذي كانت «مهيرة» تسـكنه وفيه سـكنتُ فيها أولَ مرةٍ فعرفتُ سـرَّ الانبلاج بالإيلاج، وسـحر الارتياح في رَحِم. مهيرة، ما عساك الآن تفعليـن؟ هل تجلسـين علـى الأرض قُرب شـرفة شـقَّتنا بالدوحة،

كيلا يراكِ الجيران، وتمشِّطين تحت الشمس شعرك الشبيه بشلّال ليلٍ ينهمر حول وجهك المشرق مثل وَضَح النهار؟ هذه الشقة لم تحبني من اليوم الأول، فلم أحبها قَطُّ؛ وكانت أنفاسُها عليَّ أثناء سُكناها ثقيلة الوطءِ، معدومة التحنان. الدوحة كلها كانت تكرهني وتلفحني بأنفاسِ الجفاء، فلم أكن بكاملي هناك، مثلما كنتُ بكل ما فيَّ بالإسكندرية مع نورا. النواحي السكندرية أحبَّتني، فأحببتُها: المنتزه، القلعة، المنشية، شقة المندرة، محطة القصار.. أين ذهبت هذه اللحظات، والأماكن؟ السكينة التامة في سَكنٍ والإمساك باللحظة الدافقة، كلاهما محال.

وكان الأعجبُ مما سبق، ما قرأته في الفصل الثاني من كتاب «أنفاس الأماكن» حيث يدخل المؤلف مدخلًا غريبًا إلى نقطة دقيقة أراد أن يوصلها لي، ويقلبَ بها رأسي رأسًا على عقب. فقد بدأ بالآية الكريمة من سورة الإسراء: ﴿تسبِّح له السماوات السبع والأرض، ومَنْ فيهنَّ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وانتهى إلى تأكيد هذه الحقيقة الغائبة عن معظم الناس: باطن كل إنسان، يسبِّح الرحمن بطريقةٍ مبهمةٍ خفية، لا يعي بها عقلُه عادةً. وكذلك الأماكن. وأنفاسُ الأماكن هي تسبيحها، الذي لا يفقهه معظم الناس، ولا يفهمونه. فإذا دخل الإنسان بيتًا أو مكانًا فاستراح له أو اطمأن فيه، فهذا يكون لاشتراك التسبيح وتناغمه بين باطن الإنسان وقلب المكان، كأن يكون تسبيحُ بواطن الداخل باسمه تعالى «الرحمن»، وأنفاسُ المكان تُسبِّح باسمه تعالى «الرحيم». وقد يقع التباعد والوحشة إذا كان المكان يسبح باسمٍ إلهي كالقهَّار، والداخلُ إليه يسبح باطنه بالاسم «الرؤوف».

وعلى هذا المنوال ارتحل بي الكتاب في مفاوزَ بعيدةٍ كادت تطيش بعقلي، لكنها نبَّهتني إلى شيءٍ كنتُ فيه وما كنتُ أدركه. فهذه الزنزانة كان من المفترض منذ زمنٍ أن تقتلني شناعتها ووجدتي فيها، وتوحُّدي، فهي من حيث الظاهر موحشةٌ منفِّرة ومنفردةٌ قاسية، لكنني أنستُ إليها على نحوٍ لم أشعر بمثله في الزنزانة الأولى، الواقعة في شارع الزنازين العامر بإخواني المسجونين، المسلمين، المظلومين مثلي. فما الذي أراحني هنا، وكان يعذِّبني هناك؟ ربما كان كلامُ الكتاب صحيحًا، وتسبيحُ باطني موافقًا للأنفاس الباطنة لهذا المكان!

في الفصل الثالث من الكتاب العجيب يصرِّح المؤلف بأن أباه عربيٌّ وأمه إيطالية، وبأنه كان قد اعتاد زيارة أخواله صيفًا، منذ صغره. ولما تخطى سنوات الشباب وبلغ الأربعين، أدرك هذه الأسرار التي يتحدَّث عنها في كتابه، فجأةً، من خلال ما أسماه: مشهد رؤياي. فقد كان في زيارته الصيفية يختلي وحيدًا بموضعٍ ناءٍ بشمال إيطاليا، يسمونه هناك «جبل النور»، فيمضي أيامه ولياليه في صلاةٍ وتسبيحٍ وقيام. وفي آخر ليلةٍ صيفيةٍ رائقة، أدرك قبيل الفجر بأن الله قد نزلَ إلى السماء الدنيا، فابتهجتْ به الأنحاءُ وابتهلت له. وآنذاك أشرق قلبه، فسمع تسبيح الكائنات التي بالمكان من نباتٍ وشجر وترابٍ وحجر، وكانت جميعها تسبِّح بطريقةٍ لا يفقهها إلا أصحاب الكشف، وباسمٍ إلهي لا يعرفه معظم الناس. المحبوب. وفي تلك اللحظة رَاحَ يسبِّح معها بهذا الاسم البديع، حتى دخل مع الوجود المحيط في حالة وحدةٍ، سمحتْ له بالإحساس بأنفاس المكان. أو حسبما عبَّر عن ذلك في الكتاب بقوله: وجدتُ أنفاس المكان تلفُّني، فأشمُّ عبيرها الفوَّاح، وأشاركها حالها فتحتويني.

.. لماذا أحضرت إليَّ «سالي» هذا الكتاب ودَسَّته بين المجلات والكتب، مثلما تُدَسُّ بين الركام أصابع المتفجرات؟ ربما لا تكون قد قصدت شيئًا، وهو مجرد كتابٍ قد لا يُقدِّم ولا يؤخِّر. وهي لا تعرف العربية أصلًا. ولكن، قد يكون أحد رؤسائها هو الذي أرسل إليَّ بالكتاب، فحملته لي وهي لا تدري بما فيه؛ أملًا في الإطاحة بالبقية الباقية من عقلي الذي انطحن هنا. لا.. فهؤلاء أدنى من ذلك وعيًا وأقلُّ فهمًا، ولا أظنهم يدركون المعاني العالية التي يشير إليها الكتاب. الأقرب، أن يكون الله سبحانه وتعالى، قد ساق إليَّ هذا الكتاب وأوصله لي بألطافه الخفية، فهو القائلُ في قرآنه: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾.. سوف أسألُ «سالي» عن أيّ كتابٍ آخر لهذا المؤلِّف، وأرى ماذا ستكون إجابتها، وهل سترتبك من سؤالي أم لا

❁ ❁ ❁

قبيل الغروب جلستُ ملتصقًا بقضبان بابي مترقِّبًا مجيء وجبة العشاء والتفاحة، وقد اهتاجت شهيَّتي للطعام على غير العادة. أتراني أريد رؤية «سالي»، أم قضم تفاحتها؟ خايلتني أحوالٌ ملتبسةٌ فدفعتها عني بتأنيب نفسي الأمارة بالسوء، وبقيتُ متقلِّبًا بين الوساوس ومُراودًا نفسي عن قلقها بأن الحارسة «سالي» تختلف عن الأخريات، فهي لم تتفاحش أمامي من قبلُ، ولم تقف يومًا مع الحراس الذين جاءوا لمشاهدة العابثات، وهي لم تتعامل معي من يومها الأول إلا بالحسنى. نعم، سالي تختلف.

الغروبُ يدخل عليَّ متثاقل الخطوِ ويزيد السكون جسامةً وعمقًا، وأمامي ليلةٌ طويلةٌ خالية الوفاض. ولا بأس لو رأيتُ ابتسامة

«سـالي» قبل نزول ستائر الإعتام، وقبل تصادم الخيالات والأضواء الدوَّارة. تمنيتُ ذلك ولكنَّ حارسًـا ضيقَ العينين عبوسَ الوجه جاء إلـيَّ بالوجبة، فوجدتني قد فقدت رغبتي في أيِّ طعام.. دخلتُ إلى زاوية الزنزانة ونمتُ مُلتفًّا على نفسي كالقوقعة حتى أشرقت السماءُ بنـور ربها، فأدركتُ صـلاةَ الفجر حاضرةً ثم جلســت موليًا ظهري إلى قضبان بابي، ومحدِّقًا في الجدار المعدني الذي أنام تحته. وفي غبـش الفجر تخيَّلـتُ الجدار بحرًا تطير فوقه النوارس السـكندرية، وتمـرحُ، وحين أغمضتُ عيني سـمعتُ في قلبـي الموجات تُمازح صخور الشـاطئ، ورأيتُ المراكب الصغـار يؤرجحها على صفحة الماءِ الموجُ البعيد. الخيالُ هنيٌّ.

أتاني من خلفي حفيفُ حذاء «سالي» على الحصى، ثم أحسستُ بهـا ترتقي الدرج المعدني الصاعد إلى بابـي، ودغدغ أنحاء دماغي قولها: كيف حالك؟ ما هذا؟ ألم تأكل عشاءك؟ اعتدلتُ في جلستي وأسندتُ ظهري إلى القضبان الفاصلة بين الزنزانتين فصار بابي عن يمينـي، وهي عن يمين اليمين. سَـرَى فيَّ بـردٌ بهيج. كان من خلف سالي الواقفة خلف القضبان حارسٌ شابٌّ، أشقر، فتوهمتُ لحظتها أن الأمر عابرٌ، لكن الوقائع جرت على غير ما توقعتُ. بعدما أخذتُ منهـا وجبـة الإفطـار وأعطيتها لفافـة العشـاء التي لم تـؤكل، ألقت سـالي اللفافة من فوق السـلم إلى الحـارس الشـاب وصرفته بعيدًا عنـا بقولها: تخلَّص من هذه القمامة واذهـب بعد ذلك إلى «تومي» لمراجعة الأوراق، سأبقى هنا قليلًا، ثم ألحق بك.

ترحَّل الحارسُ الأشـقر وجلسـتْ سـالي علـى الدرجة الأعلى فصـار بابي عن يسـارها، ولا فاصل بيننـا غير قُضبانـه. أتاني الهواءُ

برائحة جسـمها فهزَّني قلقٌ لذيذ، واسـترحتُ لهذا القرب الذي يثير الكوامن. كُنا ناظرينِ إلى الجهة ذاتها لكنها ترى أمامها أفقًا مفتوحًا، بينما يصدُّ أنظاري جدارُ حديد، ويسـدُّ السُّبُلَ أمامي البأسُ الشديد. بقيتُ أرمق إفطاري المتروك أمام ركبتيَّ، حتى تكلَّمتْ وهي تبتسمُ، فجاوبتها على استحياءٍ ومن غير جرأةٍ على توجيه وجهي نحوها:

- *برسّ، أنت لم تأكل عشاءك. هل أنت بخير؟*

- *نعـم، بخيـر. لكنني لم أشـعر بالجوع منذ أمس، ولا أشـعر به الآن شغلتني الكتب التي جئتِ بها.*

- *هل تحب الكتب! أوكّي، سـأحضر لـك المزيد منها غدًا، فقد جلبـوا لنا عـدة صناديق مليئة بمجلات وكتـب، ولا أحد هنا يهتم بالأمر كثيرًا.. لكنك تبدو اليوم حزينًا.*

- *لا، أنا بخير.*

- *أوكّي. ولكن أخبرني: لماذا لا تنظر نحوي حين نتكلم؟*

- *لأن ذلـك لا يصـح؛ فالإسـلام يدعونـا لخفـض أنظارنـا عن المرأة الجميلة.*

- *هذا مدهش، وغريب. فأنا أعرف أنكم تحبون النساء، والرجل منكم يتزوَّج بعدة نساء، ويمارس الجنس معهنَّ جميعًا.*

كلامهـا صريحٌ وصادم لكنها معذورة لأنهـا لا تعلم عنا الكثير، ومـن الواجب أن أشـرح لهـا حقيقة الحـال خصوصًا أنهـا تكلِّمني بصـدقٍ، وبمـودةٍ لـم أصادفها منذ صـرت معزولًا في هـذا القفص ولا أُحادث غيـر المحققين والأطباء والحـراس المرضى، وهؤلاء

يخاصمون الصدق والمودة. سالي تختلف عن هؤلاء. وقد وجدتُ الهواء الشتوي ساكنًا وسامحًا للشمس بإشاعة الدفء في الأنحاء، ووجدتني أرتاح لهذه المحادثة فأجبتها بنبرة هادئةٍ: لا يا سيدتي، هذا الذي تقولينه غير صحيح، معظم المسلمين متزوّجون من امرأةٍ واحدةٍ فقط، وكثيرٌ منهم لا يستطيعون الزواج أصلًا بسبب الفقر، ومع أن الدين يسمح بتعدُّد الزوجات إلا أن ذلك نادر الحدوث، ولا يفعله إلا عددٌ محدودٌ من الناس، وهم غالبًا من الأثرياء.

- *فهمتُ. وهؤلاء الأثرياء، يمكن للواحد منهم أن يتزوّج خمس نساء أو عشرًا؟*

- *لا، المسموح به أربع زوجات فقط.*

- *مذهل. رجلٌ مع أربع نساء في سرير واحد، هذا طبعًا ممتع. ولكن هل المرأة الثرية عندكم، يمكنها أن تتزوّج أربعة رجال؟*

- *لا. الإسلام يسمح بتعدُّد الزوجات، وليس الأزواج؛ لكي يحافظ على نسب الأبناء.*

- *«أوه. لا. هذا تحيُّز». صاحتْ بذلك مازحةً، وجَلْجلتْ أصداءُ ضحكتها الرنانة بين جنبات قفصي الحديدي المغلق. نكزتني في كتفي بإصبعها وهي تقوم لزميلةٍ لها نادت عليها، وذهبتْ بعيدًا عني. مع أنها لم تجالسني سوى دقائق معدودات. لم تودِّعني بكلمة ولم تنظر خلفها وهي تبتعد عن نظري بقوامها القوي المتناسق، الفتّاك. أستغفر الله. تناولتُ إفطاري على مهل ووجدتُ للطعام طعمًا كان من*

قبلُ مفقودًا، بينما رأسي يدور في آيات سورة «النساء» حيث ورد الإذن الإلهي بالتعدُّد.

في لحظة إشراقٍ مفاجئة، توقفتُ عن مضغ الطعام وقمتُ منتفضًا لأدورَ كالنمر في القفص، وقد صدمتني حقيقةٌ بدت لي بغتةً بنصوعٍ تامٍّ: ليس في الإسلام تعدُّد.. وقفتُ أحدِّق في فراغ الزنزانة المجاورة، ولما استفقتُ أمسكتُ بالقضبان بقبضتيَّ ورحتُ أهزُّ نفسي حسرةً على افتقاد شريكٍ من المسلمين، لأعرض عليه ما طفر في رأسي. ربما أكون مخطئًا، ولكن سورة النساء التي أحفظها عن ظهر قلبٍ تبدأ بآية أولى تُذهل العقول، تقول إن الله خلقنا من نفسٍ واحدةٍ وخلق «منها» زوجها. فالزوجُ المخلوقُ المذكورُ، هو المذكَّرُ، وقوله تعالى «منها» يدل على أن هذه النفس الأولى مؤنثةٌ. ثم تقول الآية: ﴿وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً﴾ ولم تقل «نساءً كثيرات ورجالًا»، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن الوفرة العددية والكثرة، كان يجب أن تكون في الرجال لا النساء، لكن الحرب والتقتيل والأَسْر وركوب الأخطار، أمورٌ تقلب هذا الميزان وتجعل عدد النساء أكثر.

ثم يتلو الآيةَ الأولى، مباشرةً، ذِكْرُ الأرحام. وهي أيضًا مؤنثةٌ، جدًّا. وبعد آية الافتتاح هذه المليئة بالمعاني والإشارات، تتوالى الآياتُ مخبرةً عن أمرٍ بعينه، هو وجوب الرحمة بالأيتام ورعايتهم. وفي خلال ذلك تقول الآياتُ المحكمات التي لا تحتاج التأويل: ﴿وإن خِفتم ألا تُقسطوا في اليتامى﴾ يعني الإناث من هؤلاء، لا الأيتام الذكور ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورُباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدةٌ، أو ما ملكت أيمانكم، ذلك

أدنى ألا تعولـوا﴾ يعنـي، تزوَّجـوا مـا طاب لكـم مـن اليتيمات أو أمهات الأيتام كيلا تصير الرعاية عبئًا على الراعي، وإن كان الأسلم للمسـلم أن يتعفَّـف عن ذلـك ويكتفي بما لديـه أو بواحدةٍ فقط من هاتيك المسكينات الحزينات؛ حتى لا يعول أكثر مما يطيق.

وعقيـب ذلك تعاود الآياتُ التذكير بحقِّ اليتامى، وما يجب لهم مـن حقوق الرعايـة الواجبة. وهذا معنـاه أن التعدُّد مشـروطٌ بحالةٍ وحيـدةٍ، هـي الخـوف مـن ظلـم اليتيمـات أو أكل أموالهـنَّ ظُلمًا، والذين يفعلون ذلك حسبما تحذِّر الآياتُ التاليات، إنما يأكلون في بطونهـم نارًا ولسـوف يصلَوْن في الآخرة سـعيرًا. نفهـم من هذا أنه يجوز أن يتزوَّج الرجل تسـع نسـاءٍ يتيمات ﴿مثنـى وثلاث ورباع﴾ لأن حـرفَ الواو يُسـتعمل للإضافة وليس للتخييـر. ولكن لا يكون ذلك التعدُّد جائزًا، إلا لرجل يرعى أيتامًا إناثًا يُخشى من عدم العدل معهـنَّ؛ لأنهـنَّ مـن غير أهلـه. فإذا تـزوَّج منهنَّ صارت هنـاك صلةٌ ومـودةٌ ورحمة، تُعين على القيـام بالأمر وتُخفِّف من عناء الرعاية.. ومعـروفٌ أن العـرب كانـوا من قبل ظهور الإسـلام، يتـزوج القادر منهم عدة نسـاء، فجاء القرآن الكريم ليضبط ذلك ويجعله مشروطًا بحالةٍ وحيدة.

وفي سورة النساء، أسرارٌ أخرى كثيرة.

بقيـتُ سـاكنًا مـن هول الذهـول حتـى هبط المسـاءُ علـيَّ بثُقَله فحَاصَرني، وحَصَرني، فقمتُ منتفضًا إلى زاوية الزنزانة وتشـاغلتُ عمَّا أعانيه، برسـم دوائرَ وهميةٍ متداخلـةٍ أخـذتُ أخُطُّها في الفراغ بإصبعـي، وعاودنـي الحنيـنُ إلـى الشِّـعر فحاولـتُ تأليـف قصيدةٍ

وددتُ أن يكـون مطلعهـا: أيـامٌ ماؤهـا كـدرُ، دورانُها عسـرُ.. لكن الكلام تعسَّـرت ولادته فصرفتُ النظرَ عـن الإكمال، ورحتُ أرعى فـي خيالي قُطعان الضجر وأسـراب الملل مواسـيًا نفسـي بأن دوام الحال، محال.

فـي الصبـاح الباكـر أتـت «سـالي» إلـيَّ بالإفطـار وثلاثـة كتب صغـار، وبعض أعدادٍ قديمة من المجلات منـزوعة الأغلفة وبعض الصفحات، كان أغلبها أعدادًا سابقة من مجلتهم المسماة «الوقت» فصـار وقتي مع صورهـا وحضورها رائقًا. مسـتريحةً كفهدٍ رشـيق يسـتلقي فوق شجرةٍ وارفة الظل، جلستْ حارسـتي الحسناء الطيبة على الدرجة العليا، وأسـندتْ كتفها اليسرى إلى قضبان بابي بدأتْ حديثها بأن تنهَّدتْ ثم قالت بلا مقدماتٍ إنها ما عادتْ تحتمل الملل في هذا المكان، ولا تدري كيف ستقضي فيه الشهور الأربعة الباقية.

- *أنتِ هنا منذ شهرين.*

- *نعم. ثمانية أسابيع كاملة، ستون يومًا. السأمُ يقتلني.*

ابتسـمتُ مـن فوري وقلـتُ بعفويـةٍ: *فمـاذا أفعل أنـا؟* فالتفتتْ نحـوي وتأمَّلتنـي مليًّـا، ثـم همسـت وهـي تنظر فـي عينـيَّ بعينيها الواسـعتين اللامعتين: *أنتَ مسكين فعلا*.. سـاد الصمتُ بيننا برهةً أطرقـتُ فيها وغضضـتُ نظري، حتى سـألتني عن أهـم الذكريات التـي تطوف بخاطري خلال وحدتي، فرفعتُ إليها وجهي لكنني لم أستطع إتمام ابتسامتي بسبب اضطرابي من مُباغتة السؤال، ومرتبكًا أجبتُهـا بما حضرني من ذكريـاتٍ بعيدة. حكيتُ لهـا عن حنوِّ أمي، وصبـر أبي، ومباهج اللعب مع الصغار أمـام باب البيت، ومباريات كرة القدم أيام المدرسة الثانوية..

- *وماذا عن الحب؟*

- *هو قليلٌ في بلادنا، ومُحاصر.*

- *دعنا الآن من بلادكم. أسألك عنك أنت، وعن تجاربك الأولى.*

- *ليس لي تجارب.. يعني .. وأنا متزوِّج.*

ضحكت سالي بصوتٍ صافٍ دارت أصداؤه بين جدران زنزانتي، وفراغ صدري، ثم مطَّت ساقها اليسرى حتى خمشت بأطراف حذائها تراب الأرض، ومالت برأسها إلى كتفها المستندة إلى الدرجة العليا وهي تقول: أنت شخصٌ خجول، لا بأس، سأحكي لك بعض ذكرياتي ولكن ذلك سيبقى بيني وبينك فقط.

«*طبعًا، أنا حافظٌ للأسرار وكتوم*» قلتُ لها هذا بلهجةٍ واثقة، فتشجَّعتْ وراحتْ تحكي كأنها تحادثُ صديقًا قديمًا مقرَّبًا. طريقتها في الحكي جذَّابةٌ وعفويةُ الاختيار للكلمات، ومحايدة، فهي تحكي عن نفسها كأنها تتحدث عن فتاةٍ أخرى. حكتْ لي ما ترجمته أنها كانت طفلةً نحيلةً ضعيفةَ البنيان، نشأتْ في ناحية يسكنها الزنوج بمدينة نيويورك اسمها «هارلم» وصفتها بأنها حيٌّ فقيرٌ، والحياةَ فيه قاسية، وكان أقرانها يسخرون من انطوائها ونُحولها وشعرها المنفوش، وينادونها بلُغتهم: «سيلي سالي» يعني سالي الحمقاء.

ولما راهقتْ «سالي» البلوغ هجرتْ بيت أسرتها، وعملتْ في مطعمٍ كبير، فكان العاملون معها يدعونها بالحمقاء فتغتاظ لدرجة

أن حياتهـا تحولـت جحيمًـا بسـبب ذلك. هكـذا قالـت. لكنها في لحظةٍ اهتـدت إلى الحلِّ، وراحت تتردَّد إلى سـاحةٍ رياضية لكمال الأجسـام والملاكمة، كانت في الأصل مخزنًـا كبيرًا يعود بناؤه إلى عشـرات السـنين ويفتخرون هناك بأنه لم يدخله قَطُّ شخصٌ أبيض. كانت هذه الساحةُ رحبةً وفيها غرفٌ عتيقة، وكان يتردَّد إليها الرجالُ والنسـاء الذيـن يرغبـون في تضخيم عضلات أجسـامهم ويسـعون إلـى تناسـق البنيـان، فـكان فيهم حسـبما قالـت: كثيرٌ من الأشـرار وقليـلٌ من الأخيار.. أضافت بحروفٍ لطيفـةٍ، رقَّتُها تُذيبُ الحديد: خـلال السـنوات الخمس التي سـبقت التحاقي بالجيش، اكتسـبت في السـاحة الرياضية قوامي الجميل هذا، وتعلمتُ الكثير، وعرفت روعة «الأجركسوفيليا».

لـم أفهم معنـى الكلمـة الأخيرة فاسـتوضحت منهـا، فضحكَتْ حتى لمعت أسنانها الشـهباء ونظرتْ ناحية الأسوار التي لا أراها من موضعـي، ثـم تنهَّدت وهي تقـول ما ترجمته: هي لذةٌ منسيةٌ، عرفها الناسُ أيام كانوا يسكنون الكهوف! زادني هذا التعريف جهلًا وأهاج شـغفي لمعرفة معنى الكلمة، فأعدت عليها السؤال لأفهم. وليتني ما فعلـتُ، فقد هزَّت رأسـها مرتين ثم قامت بقوامهـا المتكامل الفَتَّاك، وقالت وهي تتهيَّأ لمفارقتي: مَنْ يدري، ربما ترى قريبًا، وتعرف.

ن ن ن

التهمـتُ صفحات المجـلات بعيني ثم نظرتُ فـي الكتب، فلم أجد فيها ما يشـجِّع على القراءة. فهي ديوان شـعر ليس فيه [illegible] وكتـاب مواعظ من تلك التي يعرفهـا كل الناس، وكتيب فيه نصائح

للنسـاء اللواتي يقتربن من سِـنِّ اليأس! لا بأس، سـوف أسـتعيدُ في سِـرّي مـا قرأتـه بالأمس في كتـاب «الأنفـاس» وأتفكَّرُ فـي معانيه، وأسـتعيدُ مـا باحتْ به «سـالي» مـن ذكرياتها.. قبيل هبـوط الظلام عرفـتُ مـن المجنَّـد الـذي جاءني بوجبـة العشـاء، أن الجلبـة التي اهتاجـت ظهـرًا وجاءتنـي أصداؤها مـن بعيد، كانت بسـبب انتقال الأسـرى إلـى العنابر الجديـدة، وأردف ذلك بقوله قبـل أن يفارقني متعجِّلًا: أردنا أن نتمَّ ذلك قبل أيام الإجازات!لم أهتمَّ كثيرًا بكلامه ولـم أدرك أنـه كان هامًّـا، ومُهمًّـا. التهمـتُ طعامي ونمـتُ راضيًا على غير المعتاد، وشـهدتُ قبيل الفجر رؤيـا غريبة لم أفهم تأويلها إلا بعـد حين: كأنني في «أم درمان» أسـيرُ عاريًا خجـلانَ بين أُناسٍ يرتـدون ملابس الإحـرام ناصعة البياض. لكنهم سـرعان ما اختفوا عن نظري، ورأيتني واقفًا على قُلَّة جبلٍ شـاهقٍ تعلوه سـماءٌ رماديةٌ، فيها فوهةٌ مبهرةُ الضوء أتاني منها نداءٌ مهيب: دَعِ المسير فقد آنَ لك أن تطير. قلت: إلى أين؟ قال: السـؤالُ يؤخِّر الوصال. قلتُ: كيف؟ قال: الإيضاح بعد الافتضاح.

سـبحان اللـه! مـا المـرادُ بالإيضـاح وبالافتضاح، وما سـرُّ هذه المشـاهدة المبهمة؟ أدارت الحيرةُ رأسـي، فصرتُ كأنني هائمٌ بين حدود الصحو والسـهو. أهذا ظـلامُ زنزانتي، أم ظُلمة الغفلة، أم هو إعتـامُ المنـام؟ لا أدري، ولا أدري مـا الدرايةُ.. فتحـتُ عينيَّ فكان الشـيخ «نقطة» جالسًـا في زاويـة الزنزانـة، لا ينظر نحـوي، ويقول لشـخصٍ غيـر موجودٍ كلامًا سـمعته منه قبـل أمدٍ بعيـد: العجزُ عن دَرْكِ الإدراكِ إدراكُ.

بقيتُ مضطربَ البالِ طيلة النهار التالي، وخدعتُ نفسي بأن ما رأيته هو أضغاث أحلامٍ أو تهيؤات تأتي لمن يتقلَّب بين النعاس والسُّهاد، واسترحتُ لذلك التفسير، لكن آثار القلق ظلت باقية. بعد خسوفٍ دام يومين، جاءت «سالي» مشرقةً في الصباح الباكر لتأخذني في الموعد المعتاد إلى كوخ الاستحمام، وقام الحارسان اللذان معها بتقييدي بالمعتاد من السلاسل، ثم سارا من خلفنا صامتينِ وسرتُ بجوارها كالتائه. قرب الكوخ، خلَّصاني من بعض السلاسل وأعطاني أحدهما الصابون السائل وفرشاة الأسنان ومعجونها المنعنع، ثم وقفا عند مدخل الكوخ الذي لا باب له، يتبادلان نظراتٍ لستُ أفهمها، وتركا «سالي» تفكُّ أزراري تحت ماسورة الماء المستعد للانهمار. جرَّدتني، فتسترَّتُ، فتبسَّمتْ وهي تأخذ مني ردائي وتلقيه على الأرض في الزاوية. قبل أن تفتح عليَّ صنبور الماء، دارت حولي محدِّقةً في أنحائي بنظرة افتراسٍ لم أرها في عينيها من قبل. ملامح وجهها اختلفت. بدتْ مثل الكَلْبات الطالبة، فاحتميتُ من تحديقها بالوقوف في الزاوية، وبضمِّ ذراعيَّ إليَّ وتشبيك الكفين لحجْب العورة. ولكن لا فائدة. وقفتْ قبالتي وقالتْ بجرأةٍ مُفاجئة: هل تودُّ نكاحي؟ هي ما باحت بذلك حرفيًّا، وإنما قالت بالتحديد ما ترجمته: هل تفضِّل أن تفعل الحب معي؟ وهو ما يطابق ما فهمته. ارتبكتُ. صدمتني عبارتها غير المتوقَّعة، فأخذتُ أتلفت حولي بحثًا عن خلاص. كان الحارسان عند الباب منهمكَيْنِ في حديثٍ خافت، وكأن لا شيء يجري بداخل الكوخ. نظرتُ نحوهما ثم نحوها، وأنا لا أجد على لساني ما أقول ولا شيء بيدي إلا سِتْر عورتي عنها.. كأنها سألتني وهي لا تحتاج

منـي الإجابة أو الموافقة، فقد شـرعتْ في فـك أزرار قميصها وكاد نهداهـا ينفلتـان، فصحتُ فيها جَزِعًا: لا، أرجـوكِ، هذا لا يصح، لا يمكـنِ انظري زملاؤك على الباب، وأنا.. قاطعتني، وقطعت كلامي المتقطِّـع بقولها الجريء، البريء من أيِّ حيـاء: لا تتردَّدْ، أنت تبدو جيدًا في الممارسة، ولا بأس إذا نظر زملائي، لن نخسر شيئًا، سوف نستمتع أكثر، وسوف تعرف الأَجْرِكْسُوفيليا.

كلامهـا العجيـب صعق باطنـي، فأخـذتُ أصيحُ كالمسـتغيث: «أسـتغفر الله.. أستغفر الله..» حتى بدا على ملامحها الضيق فصار وجهها قبيحًا، واقتربتْ مني وهي تقول: «أوكِّي، اهدأ قليلًا» فصحتُ فيها: ابتعدي أرجوكِ، لا أريد الاستحمام الآن، هاتِ ملابسي.. بلغ غيظهـا مني مـداه فقذفتْ نحـوي ردائـي المبتلّ، المتّسـخ، فأخذتُه مـن تحـت قدمـي واسـتترتُ بـه على عجـلٍ جعـل نبضي يتسـارع وأجـزاءَ جسـمي ترتجف. دخـل الحارسـان إلى الكـوخ، يتمطَّيان، وقـال أحدهمـا: مـاذا، ألن نشـاهد شـيئًا يا سـالي؟ فتركتنـا غاضبةً وخرجتْ مزمجرةً.

ألبسـني الحارسان بدلتي السـابقة ولم يُبدِّلاها بأخرى جديدة، وعـادا بـي إلـى زنزانتي فوصلتهـا من غير اسـتحمامٍ، ولا اسـتبدال رداء، ولا معصية. عُدتُ سالمًا حامدًا ربي الذي عصمني من وصمة الفُحش.. في الأيام التالية أراحني يقيني بأن الله سـوف يظلّني بظلّه يـوم القيامة، حيث لا ظلَّ إلا ظله، فهذه امرأةٌ لها سُـلطةٌ عليَّ وذات منصـبٍ وجمال، وقد دعتنـي إليها في الحرام فقلتُ بلسـان حالي: إنـي أخاف اللـه. فالحمد للـه الذي حفظنـي وعافاني ممـا ابتلي به كثيرًا من خلقـه. في الأيام التالية ضايقني الحراسُ في طعامي وعند

استحمامي والوضوء للصلاة، فكنتُ أجد لهذا العنت في قلبي حلاوةً لا أُظهرها، وامتدَّ بي هذا الحالُ حينًا ثم مضت الأيامُ رتيبةً لا لغط فيها، فحسبتُ الأمر قد صار نسيًا منسيًّا. لابد أن «سالي» الجامحة انتقلت من هنا قبل الموعد الذي كان مقرّرًا لها، ولابد أنها كانت تريد أن تعبث معي وتعبث بي في يومها الأخير، لكن الله سترني. استرحتُ وهدأتْ نفسي رويدًا، إلى أن جاء اليوم المشؤوم الذي جلستُ فيه ساعة الظهيرة أنظر من بين القضبان إلى اللاشيء، فرأيتُ حراسًا يمرون أمامي وهم يحملون بابتهاجٍ أكياسَ هدايا مربوطةً بأشرطةٍ برَّاقة، وشكلًا بلاستيكيًّا لشجرة عيدِ الميلاد مكتوبٍ عليها باللون الأحمر ما صورته «هابي كريسماس، مرحبًا ٢٠٠٥»، فطاش عقلي وكاد يفتك به الجنونُ. ما هذا؟ العام الخامس بعد الألفين يوشك على الدخول! كيف مرَّت الأيامُ والشهورُ فانقضى عامان وعدة أشهر، بل كادت تمرُّ ثلاثُ سنواتٍ وأنا هنا منسيٌّ؟ بصوتٍ خفيض سألتُ الحارس الذي أتاني بإفطاري، إن كان الغد هو عيد الكريسماس، فردَّ عليَّ بأنه الليلة. فرددتُ إليه الطعام.

ضحك الحارسُ ساخرًا وهو يتركُ طعامي فوق عتبة الزنزانة، ويترحَّلُ عني تاركًا إياي في وحدتي حسيرًا، مغموسًا في نقيع الذُّلِّ. ركبتْ رأسي همومٌ جاثمةٌ، ثم تقاذفتني أهوالُ الأحوال، ثم سال دمعي سرًّا على باطن كفيَّ. عمري يضيع. قضيتُ أربعةَ أشهر في سجن قندهار مع الأبرياء محبوسًا، وها هي السنوات والشهور تمرُّ عليَّ بأقدام الفيلة، فتَدْفنني في عُزلتي حتى ينتهي العمر وأنا معزولٌ هنا لا يسأل عني سائلٌ، ولن يهتدي إليَّ أحدٌ.

لا بد أن الأحبة اعتقدوا وفاتي من يوم اختفيتُ، ولن يتورَّع الضابطُ الباكستاني الذي باعني، عن الإلماح إلى ذلك أو التصريح به حتى لا يلاحقه أحدٌ بالسؤال عني. مَنْ أصلًا سيلاحقه أو يسأله في بلاد الأهوال هذه؟ ولعل نار الحرب لا تزال مستعرةً هناك إلى اليوم. اليوم صرتُ نسيًا منسيًّا، ولسوف أموتُ هنا أسيرًا مجهولًا مثلما مات غيري في قندهار مقهورًا. لماذا قدَّرت ذلك عليَّ يا رب؟ وما حالُ الأحبَّة اليوم؟ هل ماتت أمي كمدًا، أم تراها لا تزال حيَّةً حزينةً، مترقبةً رجوعي؟ لن أعود إليها، فقد انتهتْ حياتي يوم أتيت إلى هنا. لكن الأمل المخادع كان يخايلني ﴿لقد كنتَ في غفلة من هذا، فكشفنا عنك غطاءك، فبصرك اليوم حديد﴾ اللهم انتقم من هؤلاء الظالمين.. الكَفَرة.. الفَجَرة.

« لماذا تبكي يا برسّ يوم الكريسماس؟» سألني الحارسُ الذي جاء بوجبة الغداء، فمسحتُ على عجلٍ دموعي وقمتُ من قرب الباب إلى أقصى زاوية بالزنزانة، وتكوَّمت هناك.. « ألن تأخذ طعامك؟» لم أردّ على سؤاله، فترك اللفافة عند فتحة الباب التحتانية وأخذ السابقة، وأسرع بالرحيل مثلما أسرعتِ الأيامُ والشهور.

قبيل الغروب جاءني حارسٌ فاحشُ الضحكات والنظرات، أشقرُ، صعد الدرج المعدني حتى وقف قبالتي خلف القضبان، وقال بعدما نظر باستخفافٍ إلى طعامي الملفوف المتروك عند الباب: تبدو حزينًا يا حيوان، ولكن لا بأس، سوف تحصل الليلة على بعض التسلية..

كأنه كان مخمورًا! لم أفهم مراده، ولم أهتمَّ، فقد كان بداخلي من الهموم ما يكفيني. تكوَّمت في جلستي مثلما يفعل المهزومون،

وبقيتُ شاردَ الذهن كالحزانى حتى سمعتُ تحت أجنحة الليل صخبَ الحراس والحارسات يأتيني من بعيدٍ، ومن قريب. كانوا يحتفلون بعيدهم، ويعربدون من دون اكتراثٍ كما يفعل الغالبون دومًا، تاركين الحسرات للمغلوبين. اللهم إني مغلوبٌ فانتصر، مغلوبٌ فانتصر.. أعدتُ الدعاء بصوتٍ كالنشيج وكرَّرته مئات المرات حتى أواخر الليل، ولما اقترب الفجرُ قمتُ مترنِّحًا لأداء الفرض عساني أن أزيح عن قلبي همومًا رانت عليه، لكنني ما كدتُ أشرعُ في صلواتي الحاضرة والفائتة حتى سمعتُ الأحجار الصغار البعيدة تئنُّ تحت أقدام قادمين. ختمتُ صلاتي بسرعة ومسحتُ الدمع عن وجهي ورقبتي، ووقفتُ قرب قضباني مترقِّبًا ما سوف يأتي، وقد ازداد بقلبي خفقانٌ لا أدري سببًا. رنوتُ في غبش الفجر إلى الناحية اليسرى وقد توقفت الأضواء الدوَّارة، فرأيت الأشقر المخمور يترنَّح قادمًا نحوي ومعه حارسةٌ سوداء، وفي يده زجاجة. لما اقتربا، عرفتُ أن الحارسة السائرة خلفه هي «سالي» التي ظننتها قد انقشعت. كانت تتمايل سكرى كالزجاجة المتأرجحة بيدِ صاحبها. أعرفُ هذه الزجاجة. هي ويسكي من النوع الذي كان صاحبها «سهيل العوامي» سامحه الله، يسميه «حنّا المشّاء».

كأنني غير موجود! تجاهلا وجودي، وجلسا متجاورَيْنِ على الدرجة الأولى للسلم المعدني الصاعد إلى باب زنزانتي، واسترخيا، كأنهما يريان في الظلام منظرًا ساحرًا. ماذا يريدان مني؟ أخذا يرتشفان بدلالٍ من الزجاجة، بالتبادل، ثم راحا بعد حين يرفعانهما نحوي وهما يتضاحكان من ذهولي، ومن تحديقي نحوهما. ساخرةً، سألتني سالي إن كنت أريد بعضًا من الخمر، فاستغفرتُ الله هَمسًا، وأشحتُ بوجهي عنهما ولسانُ حالي يقول

لها من غير صوت: لماذا عُدتِ بعدما أراحني اللهُ منك؟ سرى خَدَرٌ نَشَعَ من ركبتيَّ إلى سائر أنحائي، وداخلني اضطرابٌ وتردُّدٌ فجلستُ كالمنهار قرب الباب، وكان يمكنني الانزواء بزاوية الزنزانة الأبعد، لكنني لم أفعل. أتراني كرهتُ مجيئهما، أم أنستُ لاقترابهما؟

بعد التهامس المتساحق الساحق لأسماعي، ولحواسي كلها، قاما متثاقلينِ وارتقيا الدَّرَج فدخلا إلى النصف الآخر من الزنزانة؛ النصف الخالي، فاستدرتُ نحوهما بداعي الاحتراس والوجل. وليتني ما فعلتُ، فمن خلف القضبان الفاصلة رأيتهما على ضوء الفجر يفعلان العجب؛ إذ طفقا يخلعان عنهما ما يسترهما ثم تعانقا عاريين من دون التفاتٍ إلى جهتي، كأنني أحد القضبان المحيطة بنا. البرد من حولي شديدٌ وهواءُ الفجر يلسع الأطراف كأنه ثلجٌ على نار. بقيتُ برهةً أنظرُ إليهما كمشدوهٍ شردتْ عنه عيناه، فما عاد يملك حِوَلًا لناظره عن هذا الهول الملتهب، وبقي لساني معقودًا عن الاستغفار. الفاجرةُ متناسقةُ القوام وجسمها القوي عميقُ الاسوداد كالليل الناصع، وبراقٌ، والحيوان الأشقر جسمه كوضح النهار، أبيض. ضِدَّانِ بَضّانِ. راحا يتحرَّكانِ مثل حَجَرَيِ الرحى فيسحقاني، ثم صارا كموجتين تتلاطمانِ في بحرٍ هائجٍ لتغرقاني.

بعينٍ مائلةٍ، وَسْنى، نظرتْ سالي نحوي وهي تعضُّ بقوةٍ شفتها الغليظة السفلى وتميل رأسها إلى الخلف، كأن الدوار أخذها. نهداها ينتفضانِ. نظرتْ إليَّ ثانيةً بطرف عينيها، فأحيتْ مَوَاتَ أرضي، وأرعدتْ أركاني. يا ستَّار. انتفضتُ من جلستي مسرعًا إلى زاوية زنزانتي الأبعد عنهما، وهناك وقفتُ واحتميتُ منهما، بإلصاقِ وجهي بزاوية الجدار الحديدي. في الحديد، وفي أفعال

البشـر، بأسٌ شـديد. سـددتُ أُذنـيَّ براحتيَّ حتـى لا يصلني صوتُ الغنـج السـاحق للنفس، والتـأوُّه الذي يطحن الأنحـاء. ولكن على الرغـم منـي ضعفتُ، وتبـدَّد ما توهَّمتـه قبلًا من أن اللـه عافاني من الافتتان .. ﴿خُلق الإنسانُ ضعيفًا﴾.

نـال مني البلاءُ المجاور ورَجَّني، جعلنـي مثل قِربةٍ تخضُّ اللبن فتعزل عنه الدسـم، وتبقيه كالماء الأبيض السـيَّال. سال دمعي حارًّا في الظلام حين تمنيتُ أن أنظر نحوهما، أو يرحلا من هنا، أو أصيرَ هبـاءً تـذروه الريـحُ. ولكن لا شـيء بيـدي. كدتُ أجهـش وهما لا يكترثـان ولا يكفَّـان عما يفعـلان، ولما هزَّني الهـوانُ نظرت إليهما بانكسـارٍ فكانـا في الوهـج يتمازجان، وفـي العين الحمئـة يتداخل منهمـا الضـدان. انهـارت حصونـي جميعهـا، وسـالت مفاصلـي، فلـم أعد قـادرًا على الوقوف. صـارت عظامي كعيدان شـمعٍ أذابها لهبٌ، فترنَّحتُ حتى جلسـتُ وظهري لصيقٌ بالزاوية، أنظرُ بحسـرةٍ لاحتدام الحال بينهما. كأنهما شـيطانان من شياطين الإنس، أو ربما كانـا من الجان، وحـان أوانُ الفيضـان حين توالتْ علـيَّ من جميع جهاتي رعشـاتٌ متتاليـاتٌ، فارتجـف باطني وانتفض العـودُ الذي كان ميتًا. استسـلمتُ للنظـر إليهما، حين اسـتلقى الحارسُ واعتلته «سالي» فصارت كفارسةٍ فوق حصان، ومع أنني كنتُ دومًا أنفرُ من الزنجيات، ومن الأجنبيات، لكن الشيطان كان حاضرًا فرأيتها بديعةَ التكوينِ، مكتملةَ الوهجِ، وشـهيةً. كتفاها القويتان ملفوفتان بإتقان، وعنقهـا المتيـن زاده العَرقُ بريقًا وقوةً. ما تخيَّلتُ سـابقًا أن لها هذا الطغيـانَ الآسـر إذا تعـرَّت، وما علمتُ قبـل اليوم بأن لاسـتدارات الاسوداد جمالًا كهذا. أغثني يا أرحم الراخمين.

استطابت سالي ذهولي وتحديقي نحوها، فاهتاجتْ مثل فهدٍ تهيَّأ من بعد الصيد للافتراس، واخترقتني بنظراتٍ قوية هزَّت حصوني كلها، فاستسلمتُ للهزَّات. وكانت تعرفُ مسبقًا موعد النهش بعد الانقضاض، فحين نظرتُ نحوها مستسلمًا شهقتْ باشتهاءٍ مريعٍ، ورفعتْ إليها يد صاحبها المستلقي تحتها ودسَّت إصبعه الأطول بين شفتيها الشافطتين، فابتلعتني وهي تنظر بثباتٍ في جوف عيني المعلَّقة بحَلَمة صدرها المرتجِّ .. ارتمت من فوقه على الأرضية المعدنية التي التهبت، والتقطتْ من ملابسها الملقاة واقيًا ذكريًّا ألبسته إياه واستسلمتْ، فاستلقى فوقها الثورُ الهائجُ. أتاها قُبلا ودُبرًا. رأيتُ ولوج عمود النهار في باطن الليل، واحتدامَ انضمامِ السيل بمجري النهر، ولما اندستْ أنظاري في فوهَّة بُركانها المهتاَج جفلتُ، وارتجفتُ كأنني فيها، فاندفقتْ مني موجاتٌ دام احتباسُها واندفع ماءٌ طالما انكتم.

ن ن ن

.. متفسِّخيْنِ، مثل كومتيْنِ من لحمٍ مفرومٍ، استلقيا على الأرضية المعدنية الباردة هانئيْنِ بالنوال، وراحا ينظران إلى سقف الزنزانة المفتوحة وهما راضيان. بعد حينٍ غارقٍ في اللزوجة، قاما نشيطين فارتديا ما خلعاه من الملابس، وهما سعيدان يتبسَّمان، وخرجا إلى الهواء الصباحي البريء وضوء الشمس المفروش على الأرض بنعومة البواكير، وتركاني متكوِّمًا على البلل في زاوية الخزي. لحظةَ مرورها من خلف قضباني، التفتت «سالي» نحوي، وقالت وهي تتثنَّى وتضحك بفحش: هابي كريسماس يا صغيري.

صـرتُ بالفعـل صغيـرًا، وحقيرًا، وآثمًـا.. لـم أسـتطع القيامِ من موضعـي، فبقيـتُ منفـرطَ الأجـزاء واللزوجـةُ تعذِّبنـي، وتذكِّرني بالخـزي الـذي لحقني حين استطبتُ النظـر. أهنتُ نفسـي وهُنتُ لأننـي غفلتُ عن الأمـر الربانيِّ بغضِّ البصر، وأمنت مكر الله الذي لا يأمن مكره إلا الخاسرون.

على بساط الحسرة والخسران استلقيت متقوِّسًا، حتى رحمني النعاسُ من لسـعات اللزوجـة وبلل الجنَابـة، وأنقذني مـن الدوران فـي الفراغ.

شجونُ المسجون

تجرعتُ المِرارَ حتى مَرَّ على «الكريسماس» يومان حالكان، ظل نومي والصحو خلالهما يختلطانِ فلا أستطيع الفصل بين المواقيت بصلاةٍ أو تلاوات. جففتُ، وعند الفقهاء كلُّ جافٍ طاهرٌ بلا خلاف، لكن جفاف بلل البدن وذهاب زهومة اللزوجة لم يكُفَّا عني الشعور بالدنس والإثم، فلم أجد الجرأة على الوقوف بين يدي الله لأداء الفروض والنوافل. للروح أحكامٌ أدقُّ وأرهف من أحكام البدن. وقد رأيتُ أن روحي صارت ملوثةً بالآثام ومن المحال المثول أمام الله في غمرة هذا الحال، أو قراءة قرآنه. وكيف سأقرأ القرآن الذي لا يمسُّه إلا المطهَّرون، بقلبٍ آثمٍ وبدنٍ غير طاهر!

أمضيتُ الأيام الثلاثة مترقِّبًا مجيء الحراس ليأخذوني إلى كوخ الاغتسال، واستبطأتُ مرور الوقت فهربتُ من التعاسة بالنعاس، لكن النوم لم يرحمني، بل قلَّبني مثلما تتقلَّبُ على الجمر الشاةُ، وشَوَتني المشاهد التي تمرُّ في جوف دماغي. حينًا أراني في قبرٍ كالقبو الفسيح المفتوح من أعلاه وليس حولي إلا فراغٌ لا لون له، وحينًا أراني أرتجفُ كخرقة مبلولة ومن فوقي يهطل القصف

القندهـاري المريـع، وحينًـا أرانـي ضئيـل الحجم كنملـةٍ تدبُّ من حولها أقدام الخراتيت.. وفي أحيانٍ كثيرة لا أرى أيَّ شيء، وأسمع فقط صلصلة جرس.

صبيحـة اليـوم الثالث انتفضتُ مـن نومتي البائسـة وقتما قذفني الحـارسُ بلفافـة الطعام، وترك المـاء عند الباب ثم رحـل متعجِّلًا. عدتُ للنوم، فرأيتُ شـيخي يرتدي جلبابًا واسـعًا وفي يده اليسـرى عصاه، وفي اليمنى مسبحته. كان يعبر بخطى ثابتة من أمام زنزانتي، متجهًا إلى ناحية السـور. فزعتُ إليـه، فعاقني البابُ. مددتُ ذراعيَّ مـن بيـن القضبان، ورحـتُ ألوِّح لـه، فمـا التفت نحـوي. حاولتُ النـداء عليـه أو الصيـاح، لكـن صوتـي احتبـس بداخلـي. أخذتني دوَّامـات النـــوم إلى قـــاعٍ أعمق، فقاومتها بأن أخذتُ أزوم بصوتٍ كالأنين، وشـهقتُ بالنَّـفَس الأخير شهقةً مرعدةً أعادتني إلى العالم المحسوس القاسي، فوجدت العَرَقَ الساخن يُلهب جسمي. بكيتُ متحسِّرًا، حتى يبس جسمي من فرط احتراقي واشتياقي للتطهُّر.

أخيرًا جاءني ثلاثة حُراس، كلهم رجال، أخذوني للاغتسـال ثم وضعونـي في بدلـةٍ نظيفةٍ فخفَّ بعـض ما كان عندي من إحسـاسٍ بالدنـس، واسـتطعتُ الصلاة فـور عودتي إلى زنزانتـي، ومع مرور الوقت هدأ رويدًا فوران روحي.

في صبح شـتوي دافئ أسـندتُ رأسـي إلـى الجـدار، وفي قلبي راحـةٌ طالمـا افتقدتها، وبعدما أغمضـتُ عيني عاينتُ وجه الشـيخ «نقطة» ينظر لي بابتسـامةٍ مؤنسـةٍ تقول: ﴿لا ييأس من روح الله إلا القومُ الكافرون﴾ وتقول: ﴿عفا الله عما سـلف﴾ وتقول: إن العبد ليذنب الذنب، فيستغفر، فيدخل الجنة.

استبشرت برؤياي خيرًا، ولم يتأخَّر تأويلها، فبعد أقل من شهرٍ أتاني حراسٌ ساقوني إلى كوخ الاستحمام، ولم يعودوا بي إلى زنزانتي كالمعتاد، وإنما ساروا بي بين السياج من دون أن يحجبوا وجهي مثلما كانوا عادةً يفعلون. لحق بنا حراسٌ آخرون، وبقي اثنان منهما عن يساري واليمين، وسارا بي والكل من خلفنا صامتٌ. سألت الحارسينِ الأقربينِ عن وِجهتنا فجاوبني أصغرهما سنًّا بأنني أُعفيتُ من الحبس الانفرادي، وسأكون مع المساجين في زنزانةٍ أخرى بالعنبر الجديد. سأكون بين إخواني. حمدت الله في سري بلسان الخجل، وسرتُ بينهما بقدر ما سمحت القيود، من دون حاجةٍ لعدِّ الخطوات. عبرنا ممراتٍ ضيقةً مسيَّجة من الجانبين بكثيرٍ من السلك الشائك، ثم مررنا من شارع الزنازين فوجدته مهجورًا وأقفاصه الحديدية كلها خاليةٌ وصدئة، وبعضها صار مغلَّفًا بألواحٍ من الخشب تجعله أشبه بالمخازن. ماذا جرى؟ لن أُكثر الأسئلةَ، كي أتفادى ذُلَّ انتظار الإجابات، وسوف ينجلي الأمر قطعًا بعد حينٍ. مررنا من ساحةٍ رحبة أمامها بوابةٌ حولها سياجٌ من خلفها سياجٌ، وعلى بابها لافتةٌ ما كدتُ أقرأ المكتوب عليها حتى انفلتت مني ضحكةٌ من ضحكات الصِّبا. نظر إليَّ الحارسُ محذِّرًا، فحاولتُ التجهُّمَ وزممتُ عن التبسُّم المرِّ شفتيَّ، ولكن ظلت عيناي تتعلَّقان باللافتة المعدنية المكتوب عليها بحروفٍ سميكة، باردةٍ، هذه الكلمات المضحكة:

معكسر ألفا، حراسة مشدَّدة.

الالتزام بالشرف دفاعًا عن الحرية.

هـذا مـا كتبـوه علـي بابهـم مـن دون خجـلٍ، كأن الحراسـة في أحـراش الزنازين المعلَّقة كالأقفاص لم تكن مشـدَّدة، وكأن هؤلاء العتاة يعرفون معنى الشرف ويدافعون عن الحرية. لله الأمرُ. بدا لي أن أسـأل الحارس الأصبغر، إن كان مقصودهـم بالعبارة هو المزاحُ السـاخر، أم إعـلانُ القهر الممـزوج بالعهر، لكنني آثـرتُ الصمت والسـلامة.. مروا بي في دروبٍ مسـيَّجة بأسلاكٍ قيل لي من دون أن أسـأل إنها مكهربة، فأدركتُ أنهم يقصـدون ترويعي بإطلاعي على مهابة هذا السـجن الكبير؛ لقطع دابر التفكير في الفرار من رأسي أو لأي غرضٍ آخر في نفوسهم.

الهـواءُ هنـا ليس عطنًـا كالذي عند زنزانتي، والشـمسُ الشـتوية لذيـذةُ المسِّ. اسـتطبتُ المشـي والنظـر إلى السـماء البعيـدة التي كانت مثلما عهدتها دومًا: حانيةَ الزُّرقة، رحيمةَ الاحتواء، مسـتحيلةَ اللمس.. اقتربنا ببطءٍ من باب العنبر المعدني الشـبيه بالمصنع الذي لمحتهـم فـي الماضـي البعيـد يبنونـه، ولم يخطـر ببالـي يومها أني سأسـكن فيه. سرتُ مستسـلمًا وليس في رأسي إلا السؤال الحبيس عن سـرِّ التشـديد المبالغ فيه، مع أن السجناء هنا ليس لديهم موضع يهربـون إليـه. ولو أراد أحدنـا الهرب واحتال إلى ذلك بأي سـبيل، فسـيكون البحـر مـن حولـه والطلقات القاتلـة من خلفـه، والموت المحتوم يحوطه. لن يحاول الفرار من هنا، إلا طالبُ الاستشهاد.

جُحُورُ الرحمة

دخلتُ العنبرَ الجديد، معدنيَّ الجوانب، المسمى بالمخيم «واحد» من دون أن يخطر ببالي هذا الابتهاج الذي فاجأني عند دخولي الممر الطويل الفاصل بين صفَّيِ الزنازين الأنيقة، فقد تعالت للترحاب بي حناجرُ المحبوسين وتوالت التكبيراتُ وعباراتُ الفرح «عاد أبو بلال، الله أكبر.. أبو بلال رجع سالمًا، حمدًا لله على سلامتك يا صوت الإسلام». كأنهم كانوا يتوقعون وصولي، ويعرفون عني ما كنتُ عنه غافلًا.

اضطرب باطني مع هتافهم المحتفي، وأثار في نفسي الخجل من حسن ظنهم بي واعتقادهم في صلاحي. كان الحراس يحرِّرونني من السلاسل داخل الزنزانة الثالثة من جهة اليسار، حين صاح صوتٌ فصيحٌ من زنزانة قريبة: «هذا أوان الظهر يا أبا بلال، لا تحرمنا من حلاوة الأذان، وقد أخذنا لك الإذن..». لم أفهم مقصود القائل، وأخذتني عن مراده الأجواءُ الجديدة وذهبت بي إلى آخر

حدود الدهشـة والفرح واضطـراب البال، حتى وقفتُ لحظةً عاجزًا عن الحركة، أحدِّق في مستقري الجديد.

الزنزانـة نظيفـةٌ، وضيقـةٌ، لا يزيـد طولها على المتريـن إلا قليلًا وعَرضها أنقص من الطول. على يساري سريرٌ معدني تلمع قوائمه، عليه فرشٌ ووسـادةٌ ولحافٌ، وخلفـه محلُ قضاء الحاجة، وبجواره حـوض يطـل عليه صنبـور مـاء. هممـتُ إليه متوجِّسًـا ثـم مبتهجًا عندمـا تدفَّـق المـاء، فشـمَّرت أكمامي وأسـبغتُ الوضـوء. يا ألله. في التوِّ واللحظة عاد إليَّ شـعورٌ نسيته وغمرني الإحسـاسُ بالطُّهر مع تسـبيحات المسـح بالماء على الوجه والرأس والأطراف. الماءُ يُحيـي المـوات، وبالوضـوء تحيـا الجـوارح والقلـوب.. اللهم لا تضطرني بعد اليوم إلى التيمُّم، ولا تحرمني الرضا بالوضوء.

الماءُ يتقاطرُ من أطرافي ويغسـل قلبـي، فيُبهج روحي ويدعوني لتلبيـة النـداء. اقتربت من بـاب الزنزانة ورفعتُ كفَّـيَّ حاضنًا أُذنيَّ، وعلـوت بالأذان بصـوتٍ رقيقٍ مُنغَّمٍ، يناسـب المـكان. رَنَّ صوتي فـي جَنَبات العنبـر المعدني الفسـيح وامتـلأت أنحـاؤه بالأصداء، فطابت نفسـي واهتاج فيهـا الحنينُ.. في نهاية الأذان سـمعت بكاء المحبوسـين يأتينـي مـن الناحيـة اليمنى، فسـالت عينـي بدمع حارٍّ وغلبنـي الوجد فأجهشـتُ وتهدَّج صوتي بخاتمـة الكلمات. صاح أحدهم: نُصلِّي جماعة، وصاح آخر: القِبلة ناحية الحوض.

أين ذهب الحراسُ؟ أقمتُ الصلاة ووجهتي نحو الباب، وبدأت الركعـة الأولـى بتلاوة الآيات التـي فيها قوله تعالـى: ﴿فأينما تولّوا فثـمَّ وجه الله﴾ وكان السـجين المجـاور يردِّد من بعـدي تكبيرات

الركوع والسجود، بصوتٍ أعلى، ويردُّ على قولي: «سمع الله لمن حمده» بالقول المعتاد: ربنا ولك الحمد.. كأننا صفَّان في مسجدٍ جامعٍ، تحفُّ أنحاءه الملائكة فتطيبُ قلوبنا بحفيف أجنحتها. مع أننا محبوسون، ويفصلنا الحديد.

أين ذهب الحراسُ؟ ما كدتُ أُنهي الصلاة مسلِّمًا على الملَكين، حتى تردَّدتْ بين الحوائط المعدنية كلمات ختام الصلوات، وتعالت الدعوات من زنازين المأسورين ناطقةً بألسنة الرضا: «تقبَّل الله، حَرَمًا يا أبا بلال، الحمد لله، لك الشكرُ والحمدُ يا رب العالمين..» ثم قاموا لصلواتٍ نوافلَ، فتنوَّعتْ على مسامعي عبارة «الله أكبر» بلكناتٍ كثيرة، كلها تُريح الأُذن وتُبهج القلب.

أين ذهب الحراسُ؟ لا أحد منهم قطع أذاني أو قاطع الصلوات، كأنهم أخلوا العنبر للمؤمنين وقت الصلاة. ما رأيتُ حارسًا منهم يمرُّ من أمامي أثناء قيامي أو ركوعي، لكنني خلال صلاتي لمحتُ في الزنزانة المقابلة ما يثير الاستغراب. هذا فتىً حديث العهد بالطفولة، ما بقل وجهه الأبيض بلحيةٍ، ولا طرَّ له شاربٌ. عيناه الواسعتان زرقاوان، وشعر رأسه القصير لامع الاصفرار، ولا يزيد عمره بحالٍ على الخمسة عشر عامًا. غريبٌ أن يكون مثله هنا. كل ما فيه غريبٌ، لا سيما نظرته المندهشة وجلسته الساكنة على الأرض محدِّقًا نحوي أثناء صلاتي. أليس مسلمًا؟ نظرت إليه من بين قضبان البابين، مستغربًا هيئته وحاله فابتسم، فصارت ملامحه أقرب إلى وجوه الأطفال. قلت له: «السلام عليكم»، فردَّ بلسانٍ أعجمي: «سَلَمْ أليكم»، فابتسمتُ من قلبي. من الزنزانة المجاورة جاءني صوتٌ عربيٌّ مبين، قال: يا أبا بلال، هذا الولد من البوسنة وهو لا يعرف

العربية، ولا نعرف لماذا اعتقله الأنجاس. هو مسلمٌ، لكنه لا يصلي، ولا يعرف شيئًا من أمور الدين.. قلتُ لمحدِّثي: ومَن أنتَ يا أخي الكريم؟ فأجابني: أخوك خير الدين، محب الحور، من تونس.

أين ذهب الحراسُ؟ سألتُ محدِّثي عنهم، فأجاب بأنهم لا يقربون العنبر في أوقات الصلاة. أدهشني جوابه ونبرة الفخر التي تظهر في كلامه، وازدادت دهشتي حين أضاف موضِّحًا: ما عاد الأنجاسُ، لعنهم الله، يجرؤون على المرور من أمامنا أثناء صلاتنا؛ لأننا نصخب عليهم إذا فعلوا ونشتمهم بأقذع الألفاظ، وندق على جدران الزنازين حتى نفزعهم فيسارعوا إلى الخروج خشية أن نضربهم بالنابَلْم.

- *نَابَلْم ..*

- *نعم، هذا سلاحنا السري.*

لم أفهم المراد من عبارته الأخيرة، وانقطع بيننا الكلام مع مجيء جماعة من الحراس والحارسات، ووزَّعوا على الزنازين الطعام والماء وهم صامتون ثم خرجوا على عجل. كأن هذا السجن غير ذاك الذي كنتُ فيه، والطعامُ فيه أفضلُ، وله مذاقٌ محسوس. ساعة العصر علا قارئٌ بالقرآن، بلهجةٍ خليجية، ثم دعاني جاري الذي لا أراه لرفع الأذان فاقتربتُ من الباب وعلوتُ به. أصداءُ صوتي تتردَّد في الجنبات، فتشيعُ فيَّ اطمئنانًا نسيته منذ زمنٍ بعيد، وتؤنسني همهماتُ المصلِّين خلف الإمام الذي لا يرونه وتسابيحُ الساعة الممتدة بين المغرب والعشاء. أنا هنا بين أهلي، آمنٌ في السرب المحلِّقةِ طيورُهُ في جُحور الرحمة.

خفتتِ الأضواءُ حتى كادت تنعدم، فاستلقيتُ هانئًا على السرير الصغيـر، ذي الفَـرش الوثيـر، وثارت فـي أرضي المباهـجُ فحننتُ إلى سـرير مُهيرة، ورأيتها في حلمي تجالس أُمي على شـاطئ البحر السـكندري، ومن حولهما إخوتي يلعبون وقد عادوا أطفالًا صغارًا. لـم أنتبه من نومي إلا في الصباح الباكر، مـع مجيء الحراس بطعام الإفطار، فبدا لي خلال هذه الوهلة الطفلية المبكرة، أن الله سخر لنا هؤلاء كي نتفرَّغ للعبادة.

الفتى البوسنويُّ نهش شطيرته وعبَّ بعدها الماء بفرحة الصغار، ولما رآني ناظرًا إليه هَزَّ لي رأسه وهو يبتسمُ، ثم استلقى على سريره هانئـا بالحبس والراحة والرزق الوفير. سـبحان الله. صلَّيتُ الصبح ونويتُ النوم مجدَّدًا حتى يحين موعد صلاة الظهر، لكنني لا صليتُ ولا نمـتُ. فقد جاءني حارسـان لهمـا هيئة المصارعيـن فأعادا إلى أطرافي السلاسـل على النحو المعتاد، وأخذانـي إلى تحقيق جديد فـي غرفةٍ صغيـرةٍ ملاصقة لعنبر الزنازين. مررنـا في طريق خروجنا على غـرفٍ أربع صغار، متقابلة، يجلس فيهـا ويتحرك بينها حراسٌ كثيـرون، وحارسـاتٌ. لـولا أنهم فـي زيّ الجنـود، لظننتهـم فوجًا سـياحيًّا جاء في موسم الكساد من شرق أوروبا إلى أسوان، مستغلًّا أرخص الأسـعار. من الناحية اليمنى، صاح أحدهم بي عند مروري بهـم: «هاي بـرسّ» فلم ألتفت إليه إلا بلمحة نظر، واسـتكملتُ بين الحارسين مسيري.

كان ينتظرني في غرفة التحقيق ضابطان نحيلان يجتهدان في إظهار الهيبة والأهمية. لا بأس. جلستُ أمامهما ساكنًا حتى سألني الأطول أنفًا منهما وهو يخلع عنه نظارته الشمسية، بصوتٍ باردٍ ينـزُّ احتقارًا:

- *أعتقد أنك تعلمت الدرس بعد حبسك الانفرادي، أليس كذلك؟*

- *نعم، تعلمتُ عدة دروس.*

- *ابتهج المحققُ الآخر وبدا كأنه يبتسم وهو يتدخَّل في الكلام بقوله: أخبرني ببعض هذه الدروس، أو كلها لو أردتَ.. فقلتُ له بكلماتٍ قليلة وملامح حاسمةٍ، ما ترجمته: إنني تأكَّدتُ من أنكم متورِّطون فيَّ، ولا تملكون أي شيء ضدي. وعبثًا ما تفعلون معي سعيًا لاعترافات أو معلومات لن أدلي بها؛ لأنني ببساطة لا أملكها ولا أعرف عنها شيئًا. وقد صرتُ بعد هذه السنوات، واثقًا بأنكم لن تحاكموني في محاكمة عادلة، ولن أكون يومًا مُدانًا أو بريئًا، ومثل هذه التحقيقات ليست قانونية ولا طائل من ورائها.*

- *هذا ليس تحقيقًا.*

- *ماذا؟ فماذا تريدان مني؟*

- *هذا الاستدعاء لإبلاغك بأنك ستعود إلى الحبس الانفرادي، إذا خالفت التعليمات، وعليك أن تعرف ذلك جيدًا..*

- *طيب، عرفتُ، شكرًا.*

- انتظرتُ أن يقوم الضابطان لأقوم، لكنهما بقيا جالسينِ حتى جاءتهما بعد دقائق حارسةٌ يابسةُ الوجه والنظرات، تحمل أوراقًا كثيرة في ملفٍّ كبير. قلَّبا الأوراق ونظرا في واحدةٍ منها مليًّا، ثم عادا إلى النظر إليَّ وقال لي الأطول أنفًا منهما: حسنًا، نحن نسمح

لك بالأذان، وبقراءة القرآن عندما تريد، وسـوف نعطيك نسـخة من كتابكم المقدس، ومن بعض الكتب الأخرى إذا أردت القراءة، وإذا أحسـنت السلوك فسيكون لك بعض المميزات الأخرى مثل قضاء سـاعة تحت الشمس، أو الذهاب إلى غرفة الألعاب الرياضية. لكن العقاب القانوني سـيأتيك فورًا إذا قمت بإحداث الشغب في العنبر، أو تكلّمـت بطريقة غير مهذبة مع لجنة التفتيش. هذه هي التعليمات الخاصة بك، والآن ستعود إلى العنبر.

أعادوني للعنبر مشـغولَ الخاطر بقول المحقِّق «لجنة التفتيش»، وبالقـوة التـي منحني الله إياهـا. لحظةَ دخولي فـي البوابة المعدنية التـي خلفهـا غرف الحـراس، وخلفهـا الزنازين، سـمعت من جهة اليسار الحارسَ الجالس في الغرفة، يعيد ما قاله عند خروجي: هاي برسّ. نظرتُ إليه مليًّا فعرفته، وكيف لا أعرفه وهو الذي هَدَّ أركاني يوم فَسَقَ أمامي مع سالي. أستغفر الله. في الممر الذي بين الزنازين حيَّاني جميع المسـجونين بصيحاتهم المتداخلة: «حمدًا لله .. عاد أبو بلال أسـد الإسـلام.. الفَرَجُ قريب.. قُل لنا ما قيل لك.. الشـكر لك يا رب العالمين»؛ فشعرت بأنني صرتُ بين أهلي أو كأنني عائدٌ للوطن من بلاد غربة.

أمام زنزانتي لمحتُ وجه جاري «خير الدين» فعرفته من فوري، مـع أن هيئته اختلفـتْ عما كان عليه قبل سـنوات، يـوم راح يحدِّق فـيَّ كالمذهوليـن ونحـن على ظهـر العربة العسـكرية التـي أخذتنا من الطائرة إلى السـفينة البائسـة، كان يومها أشعث أغبر ذا طمرين، يشوب وجهه ما يشبه الغبار الملحيّ المتحلِّق حول شفتيه اليابستين. لكنه اليوم استردَّ بشـرته البيضاء وما عادت عيناه حمراوين، حادَّتي

النظـرة، حافلتيـن بالذهول. مضى وقـتٌ طويل. رأيته جالسًـا على أرض زنزانتـه بجـوار الباب، وبين يديه مصحف قـرآن بدا كأنه يقرأ فيه، وكان وجهه مشـرقًا تحوطه لحيةٌ خفيفة مائلةٌ للاصفرار، تشـبه لحى الأعاجم من المسلمين. حين رآني قال: «صدق الله العظيم»، وألقـى علـيَّ السـلام بوجـهٍ منبسـط القَسَـمات، فـرددتُ عليه قبل أن يُسـرع الحـراس بإدخالي إلـى الزنزانة وفكِّ قيـودي على عجلٍ، والرحيـل بهـا كأنهـم يهربـون. اقتربتُ مـن الباب لأُحـادث جاري مثلمـا جرى بالأمس، لكنني فوجئتُ بصـوتٍ يأتي من الزنزانة التي عن يمينـي، جاءني عاليًا بالقدر الكافي لاسـتماع الجميـع، ومُنغِّمًا الكلام الآتي:

«أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم، اسـمعْ يا أخي الكريـم، بسـم اللـه الرحمـن الرحيم، حمدًا للـه رب العالمين على عـودة المؤذِّنِ الكريم، وتمسَّـكوا بحبل الله المتين يا أهل الدين، مُحدِّثكم أخوكم الفقيـر إلى الله، مـن أم القرى واسـمي عبد الله، هذا سـبيلُ الكلام هنـا حتى يفهم الكافرون، فإذا آتاك كتـاب الله فاقرأ فيه ثم اتلُ علينا مـا تريد أن تقول، فلا يشـعر بنـا الغافلون، واذكرْ لنا اسـمك وبلدك لنعـرف عنـك المزيد، ولن نزيد إذا دخل علينـا الكافرون الغافلون، وسـلامٌ على السـامعين، صدق الله العظيم».. كان الولدُ البوسنويُّ يضحك في زنزانته سعيدًا، من دون صوت.

ما كدتُ أستفيق مما سمعت، حتى انطلقتْ من الزنازين تلاواتٌ كأنها قراءة القرآن لكنها كلمات منظومة، يتخاطب بها المحبوسـون فيما بينهـم. أردتُ أن أفعل مثلهم وأحاورهـم على النحو الجاري،

لكـن جـاري الـذي كان فيمـا مضـى مذهـولًا همس لي مِـن خلف الجدار، حين هممتُ بالاشتراك معهم، ونصحني محذِّرًا: يا أبا بلال لا تحلكِ الحين، اصبر حتى يأتيك المصحف وتفتحه، كأنك تقرؤه.

التزمـتُ بنصحه وبالصمت، مع أنني كنتُ مشـتاقًا للتواصل مع القارئين. بقيتُ أسـتمع بإنصاتٍ إلى ما بـه يتخاطبون، بهذه الطريقة العجيبة، ولما أعطاني الحراس مصحفًا صغيرًا مع طعام العشاء كان وقـت التخاطب بالتلاوة قد انقضى، فصار عليَّ الانتظار حتى عصر اليـوم التالي لأُحـادث الحاضرين. قبل انطفاء النـور، أخذتُ أتأمَّل بعين الابتهاج الألوان البرَّاقـة في أول صفحتين بالمصحف، فتقافز قلبي فرحًا برؤية كلمات القرآن مؤطرةً بهذا الزُّخرف البديع، وأُلقي في خاطـري أن للمعاني ألوانًا.. قضيتُ قبل النوم وقتًا جميلًا، لكن ما جرى في اليوم التالي كان أجمل. إذ جاء الحراس بعد صلاة الظهر فأخذوني مع جاري وثلاثة مسـجونين آخرين لنجلس سـاعةً تحت الشمس، وتركونا نتهامس خلسةً وهم يراقبوننا من مكان قريب.

كمـا لو كان يُحـادث أخًا شـقيقًا، أخبرني جاري مجـدَّدًا أنه من تونـس وأن اسـمه «خيـر الديـن»، وأنهـم يلقبونه «محـبّ الحور». وعرَّفني ببعض ما أجهله في عزلتي السـابقة، أو لا أفهمه، فمن ذلك أن الإخوة هنا كانوا ينتظرونني منذ فترة طويلة وكانوا يطمئنون عليَّ مـن الحراس. تعجبـتُ. أخبرني بأنهم كانوا يطالبـون بإخراجي من الحبس الانفرادي الذي استطال، لكن الأنجاس ظلوا يماطلون حتى اقترب موعد التفتيش، فسوف تأتي لجنةٌ للنظر في أحوال المعتقلين بعدما تسـرَّبت صورٌ وأخبارٌ جديدة عن أهوال هذا المكان. تعجبتُ أكثر. أضاف أن الحراس صاروا يتحاشون الاحتكاك بالمحبوسين،

وتأدَّبـوا، بعدمـا أصابتهـم قذائف النابَلْـم من الزنازين عـدة مرات، وجعلتْ حياتهم جحيمًا..

- إيش قصدك؟ والنابلم شنو؟ وكيف تقذفون الحراس؟

- اصبر يا أخي، غُدوة تعرف كل شيء بمشيئة الرحمن.

انقضت الساعةُ بسـرعةٍ كسائر الأوقات الهنية، وأعادنا الحراسُ إلى العنبر فوجدته عامـرًا بالتلاوة. تخافتت الأصواتُ عند دخولنا، ثـم عادت تصـدح بعـد رحيل الحـراس، فحادثنـي سـاكنُ الزنزانة التـي عـن يميني علـى النحو الذي اخترعـوه، فعرفتُ منه أنه سـعى جاهـدًا للاستشـهاد فـي بـلاد الأفغـان، فلـم يُكتب له ذلك بسـبب وشـايةٍ رخيصـة جلبتـه إلى هنـا. وعـرف مني ما كنـتُ أقولـه دومًا للمحققيـن، فـلا يصدِّقونني، وقـد صدَّقني مـن دون مراجعةٍ أو أي شـك. وكان يردِّد أثناء كلامي أسماء الله الحسنى، على نحوٍ رتيب؛ ليوهم بأنه يشـاركني تـلاوة القرآن ثم ختم كلامنا بقوله الذي يُشـبه الآيات: واصبْر وما صبرك إلا بالله، والله هو العزيزُ القدير، وهؤلاء مصيرهم جهنم وبئس المصير، والنصر صبرُ سـاعة كما قال أشـرفُ الرسل أجمعين، وستكون لنا الغلبة بإذن الله على العالمين.

نمتُ ليلتي هانئًا، مرتاحًا، وفي أوان الفجر انتبهتُ على نداءٍ من زنزانـةٍ بعيدةٍ يدعوني لرفع الأذان، فتوضأتُ ورفعته بصوتٍ صافٍ، فتعالت همهمةُ التسـبيح وأدَّى المحبوسون الصلاة حاضرةً. ما عدا الولد البوسـنوي الذي اختبأ تحت لحافه. لمحته أثناء ركوعي ينظر نحـوي من خلف طرف لحافه، بعين طفلٍ يختبئ من أقرانٍ يلعبون. جاءنا الفطور مبكرًا، وغلبني النعاسُ بعد الأكل فعدتُ للنوم ساعةً،

وصحوت منه على شعورٍ غريب؛ كأنني هنا في نزهةٍ مؤقتة، أو إقامةٍ مجانيـةٍ في فندقٍ عجيبٍ، كل ما فيه معدني. سـريري الصغيرُ الناتئ من الجدار المعدنـي، حوضُ المياه ومحلُّ قضاء الحاجة، الأرضيةُ وعيدان البابُ، السلاسـلُ اللامعةُ ! كل مـا حولي معدنيٌّ، ونظيف، ولا تفـوح حوله الرائحة الكريهة التي كانت كثيرًا ما تنبعث بالزنزانة المفردة، كلما اشتد الحرُّ أو سكن الهواء. هواء العنبر مكيَّف، وهذا السـرير على صغره وثيرٌ، يغري بالنوم المريـح، والماءُ حاضرٌ دومًا في الصُّنبور كلما أردت تجديد الوضوء. الحمد لله.

حتـى الحراس هنا غيرهم هناك. فهم لا يصخبون إلا في غرفهم الضيقة التي بمدخل العنبر، فإذا دخلوا بين الزنازين لتوزيع الطعام أو لإخراج محبوسٍ لتحقيق، فهم دومًا صامتون ويتحاشـون التحرش بالمحبوسين. وإن أرادوا المضايقة فعلوها من بعيدٍ وبخبثٍ شديد، مثلمـا جـرى بعـد فترةٍ مـن انتقالـي لهـذا العنبـر، ففي اليـوم الذي اكتشـفوا فيه سـرَّ التخاطب بيننا بالإيقاع القرآني، بعد طول تواصل. صاروا كلما ارتفعت أصواتنا بما يشـبه التـلاوة، رفعوا من مكبرات الصوت بالعنبر مارشـاتٍ عسـكريةً وموسـيقى صاخبة تسدُّ الآذان، وتمنع اسـتماعنا لبعضنـا البعض.. من لطائف ما جـرى أثناء ذلك، أن الولد البوسـنوي السـاكن قبالتي، ابتسـم بفرحة المراهقين حين صدحـت الأصداء الزاعقة بالعنبـر، وأخذ في زنزانته يهـزُّ كتفيه مع الإيقاعات العسـكرية وهـو يضحك ببراءةٍ بلهاء، ولما سـمع بعدها الموسـيقى الصاخبة صَخَبَ بكلمات غير مفهومة، وقام عن سريره وراح يرقـص ويطـوِّح حوله ذراعيـه ويقبض بأصابعه علـى الهواء،

مبتهجًا كطفلٍ وحيدٍ يلهو في فناءٍ خلفيٍّ آمن. بعد رقصته هذه بيومين صحوتُ من نوم الظهيرة، فكان باب زنزانته مفتوحًا وهو غير موجود. وفي المساء أغلقوا الباب على فراغ. ولم يظهر بعدها الفتى ولا عرفت عنه أي خبر، مع أنني استخبرتُ كثيرًا، لكن أحدًا لم يخبرني بشيء أو يهتم بالأمر. سألتُ عنه «محب الحور» مرتين؛ فقال في الأولى إنه لا يعرف؛ وفي المرة الأخرى قال بلا اكتراث: لعله كان مدسوسًا علينا! العجيبُ أنني بقيتُ بعد اختفائه بعدة شهورٍ أراه في أحلامي ورؤاي، ولكن على غير الهيئة التي رأيته دومًا عليها؛ إذ يأتيني في المنام متجهِّمَ الوجه لا يطرف جفناه، ولا شفتاه تبتسم مثلما عهدناه. لا أراه في رؤاي، إلا محدِّقًا بعينيه الزرقاوين في الفراغ المحيط.

عرفتُ مع عبور الأيام معظم المحبوسين معي في العنبر، وأدركتُ أنهم ليسوا متشابهين حسبما بدا من ظواهرهم وزيِّهم الموحَّد. صحيحٌ أنهم جميعًا من العرب الأفغان، لكنهم أصلًا من بلدان مختلفة، ومختلفةٌ طبائعهم. أكثرهم طيبةً وظرفًا، جاري «أبو عبد الله المكي» الذي بدا كمن ضَلَّ طريقه فصار مجاهدًا، ثم معتقلًا هنا، وكان الأليق به أن يكون بأنفه الدقيق هذا، وفمه الواسع المتبسِّم دومًا، واحدًا من أهل الصخب الدنيوي. فهو يميل بطبعه إلى المشاغبة اللطيفة واقتناص لحظات المرح إذا سنحت له، ولا يفوِّت فرصة للهزل والسخرية كلما سمح الحالُ. وأما أشدهم صرامةً وقسوة في الملامح والطباع، واللقب المنطبق، فهو «أبو صعب اليمني» الساكن في أواخر الجهة اليمنى من الممر الذي بين الزنازين. أصله من بلدة «تعز»، وكان لقبه يوم هبط في بلاد الأفغان وصحب جماعة طالبان «أبو مصعب»، لكنه كان

يغامـر كثيـرًا ويهوى المخاطرة وركوب الأهوال والصعاب، وصار يحارب مع مقاتلي «طالبان» في الخطوط الأمامية، ولم يكن يرضى بالبقـاء فـي الخلف مع بقيـة العرب الأفغان، فانقلـب لقبه مع الأيام إلى «أبو صعب» وأسـعده ذلك، واعتزَّ به، وصار مع اشـتهاره شديد الاعتـداد بذاته. ويقـال، والعهدة على القائلين، إنـه قتل كثيرين من دون أن يطـرف له جفن! لكنه لم يؤكِّد ذلك قط، ولم يعترض عليه، كأن غموض حاله يعجبه. هو قاسي النظرات، وعظام وجهه البارزة تعطيه هيئةً تثير الرهبة في قلوب الناظرين إليه.

أمـا «محبُّ الحور» فقد صار مع مرور الأيام أقرب المحبوسـين مني مكانًا ومكانةً، فهو أكثر مَنْ أهمسُ إليه مسـاءً من وراء الجدار، وجهـرًا نهارًا. حين يأخذوننا للاغتسـال بضوء الشـمس في الرحبة المجـاورة للعنبـر، أو يُخرجوننـا للتريُّض في صالـة الألعاب حيث اللهـو البريء بمضارب تنـس الطاولة والكرة البيضـاء التي لا وزن لهـا، والدعابـات التي لا تنتهي: «قل لي يا شـيخ: هـذه اللعبة فرض عين، أم فرض كفاية؟ سواح الدنقلي داس على الكرة فأزهق روحها بغير الحق.. هذه الكـرة الملعونة تطير بأجنحة الجنّ والعياذ بالله.. أقـمْ عليها الحـدّ .. الله أكبر، غلبـت الوهراني مرتيـن». وفي صالة التريـض كانـوا يحكون عن الحارس الذي أسـلم على يـد المعتقل رقـم ٥٩٠، الحارس اسـمه «تيري هولدبريكـس» والمعتقل مغربي الأصـل، واسـمه أحمد الراشـدي. جـزاه اللـه خيرًا. كنـتُ أنهمك معهـم في الكلام كمـا كنتُ أفعل مـع الزملاء أيام المدرسـة، وألتذُّ بالحوارات .. ويومًا من بعد يوم استطعتُ الابتسام من قلبي مجددًا بين الإخوة، وزال عن قلبي الحزنُ إلى حين.

أحببتُ جميع المحبوسين معي، حتى المتشدِّدين منهم والمنعزلين الذين يرون أن صالة الألعاب الرياضية هي رجسٌ عمله الشيطانُ الأمريكي ليصبرفنا عن ذكر الله. غير أن «محب الحور» ظلَّ هو الأقرب مني والأوفر محبةً، بل صار لي مثل أخ لم تلده أمي أو صديق عُمر ممن يعزُّ بأمثاله الزمانُ. جذبني إليه سمتُه وصمتُه وهدوءُ نظرته الفاهمة أثناء الحديث، فحكيتُ له كثيرًا من وقائع نشأتي وشبابي الذي انطوت صفحاته في هذا المعتقل، وكان يواسيني بما معناه: مادمت محبوسًا، ستظل شابًّا حتى تتعدَّى الأربعين، وعليك بحذف سنوات الحبس، فهي هَدْرٌ لا يُحتسب من جملة العمر.

وبعدما جرى بنا خيلُ الحوار في كل مضمار، ولما اطمأن لي بعد فترةٍ، حكى لي «محبُّ الحور» سبب تسميته بهذا اللقب اللطيف، وأفاض في الحديث عن نشأته بقريةٍ فقيرة بجنوب «تونس» العاصمة التعيسة التي يحكمها حسبما قال: خنزيرٌ ظالم. وقد فهمتُ مما حكاه سرَّ الحزن الساكن دومًا في عينيه العسليتين الصافيتين، اللتين لا يفارقهما الأسى حتى حين يبتسم. فقد ظلمه الزمانُ وقسا عليه كثيرًا منذ طفولته المبكرة وحرمه من الذكريات السعيدة، فهو لم يعرف أمه التي هجرت أباه بعد إتمامها رضاعته فتولَّت عماتُه الثلاث تربيته، مع أطفالهنَّ. ومع إهمالٍ يليق بطفلٍ بلا أم. ومبكرًا، عهد به أبوه إلى إمام زاوية علَّمه القرآن ومبادئ الدين وكراهية الحاكمين الظالمين، فبقي «محبُّ الحور» ملازمًا لهذا المعلم حتى شبَّ عن طور الطفولة وراهق البلوغ. وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره، جرت عليه الوقائعُ المريعةُ متسارعةً؛ إذ اعتقل الأمنُ

إمام الزاوية فاختفى الرجلُ من بعدها ولم يستدل على مكانه أحدٌ، وبعدها مرض أبوه بداءٍ لم يجدوا له العلاج فتدهورت حالته وتُوفي في وقت كثرت فيه الاعتقالات والمداهمات الأمنية الغشوم، فشعر «محبُّ الحور» أيامها أنه غيرُ آمنٍ في وطنه، ومعرَّضٌ في أي لحظةٍ للاختفاء كالآخرين، فهرب إلى صحراء الجزائر وعاش عامين مع فقراء المؤمنين الحالمين بفردوسٍ أرضي. لكن المذابح هناك روَّعته، فتوسل السُّبل حتى استطاع الوصول إلى أفغانستان وهو في التاسعة عشرة من عمره، وعاش بين المجاهدين عشر سنوات كاملة انتهت بوقوعه في أيدي الأمريكيين الذين أتوا به إلى «جُوَّنتنامو» يوم جاءوا بي.. قلتُ له:

- *آه، فاكر اليوم المشؤوم، كنت تنظر لي يومها بذهول.*

- *استغربت شكلك، وتهيَّأ لي ساعتها أنك مدسوس على جماعتنا، ولما حبسوك وحدك وعذَّبوك، عرفنا أن بعض الظن إثم.*

- *ومعظم الظن من حُسن الفطن، خصوصًا هنا.*

- *الله ينور عليك يا أبو بلال، كلامك صحيح والله. أظن صلاة العشا وجبت، ارفع لنا الأذان ربنا يكرمك.*

- *طيب، إيش قصة النابلم؟*

- *بعد الصلاة أخبِّرك.*

قمتُ من زاوية الزنزانة نشطًا، فتوضأت مُسبغًا وعدتُ فأمسكتُ بقضبان بابي وعلوت بأذان العشاء، ولحظة قولي: «قد قامتِ

الصلاةُ، قد قامتِ الصلاةْ» أحسستُ مع صدى صوتي أن أنفاس الكون كله تتعالى معي بالتسبيح والتهليل الباطني. قلتُ ذلك لمحب الحور بعد انتهائنا من صلاة الفرض والنوافل، وخفوت الأضواء، فاستخفَّ بكلامي وقال ساخرًا: يا أخي، هذا كلام يشبه تخاريف الدراويش.

- طيب، ما علينا، قل لي حكاية النابلم.

- اسمع يا سيدي..

متهامسًا، حكى لي من خلف الجدار أن الحراس الذي يسميهم «الفاسقون» كانوا يتفنَّنون في إيذاء المحبوسين بساقط الأفاعيل، ولا يكفُّون عن الشتم والإهانة وتمزيق المصاحف أمام أعيننا، فنهتاج، فيضحكون.. تنهَّد بحرقةٍ ثم أكمل كلامه: بعد انتقالنا إلى هذا العنبر وقبل انضمامك إلينا بفترةٍ، سَكِرَ الفُساقُ في ليلة وعربدوا أمامنا في الممر غيرَ عابئين بغيظ الزنازين، ثم وسوس الشيطان لفاسقةٍ منهم فخلعت ثيابها العسكرية ومرَّت أمامنا بملابسها الداخلية؛ استهزاءً وطغيانًا، وكان أخونا «أبو الهيجاء الحضرمي» قد أعدَّ العدَّة لمعاقبة أول فاسقٍ يمزق المصحف أمام زنزانته أو ينخسه في مؤخرته بالعصا أثناء سجوده. استعدَّ لذلك بأن اختزن برازه وبوله، في كيس شفَّاف من هذا الذي يأتوننا بالطعام ملفوفًا فيه، فلما مرَّت العاهرة أمامنا، خالعةً وخليعةً اضطرب الجميعُ، وأخذ الولدُ البوسنوي المحبوس أمامك يضحك كالمهووسين ويتقافز خلف القضبان كالنسانيس، وغطى بعضنا وجهه بملاءة السرير كيلا يروها، وحملق فيها بعضنا الآخر. وأمام زنزانة «الحضرمي»

ومـن فتحـة المناولـة، جاءتها القذيفة وتلطَّخ جسـمها بما تستحقه فصرخـت العاهـرةُ وخرجت من هنـا هاربةً، ومن يومهـا عرفنا قوة هذا السـلاح السـرِّي، الذري. فصرنا نقذف الفاسقين بهذا «النابلم» المريـع كلما تجاوز منهم أحدٌ أو اسـتبدَّ، فنعاقبه فورًا بهذا ويُعاقب قـاذف النابلـم بشـهر أو أقل فـي الحبس الانفـرادي، ثم يعـود إلينا مرفوع الرأس. وأعجبتنا هذه الطريقة فتكرَّر الأمرُ مرارًا كثيرة، حتى صار الفاسـقون يخشوننا ويتلطَّفون معنا؛ اتقاءً للقذائف. ومع مرور الأيـام صار منهم مَنْ يشـجِّع المعتقلين على قذف زميله انتقامًا منه، ويدعونا لقصفه بالنابلم لأنه وشـى به عند ضابطهم واتهمه بمعاملة السجناء بالحسنى، أو بمثل ذلك من مثيرات الغيظ والانتقام.

- *كل هذا جرى، وأنا معزول!*

- *كنـا نعـرف أخبـارك مـن الفاسـقين، ونضغط عليهم علشـان تخـرج من الحبس الانفرادي، وكنا ناويين نعرض الموضوع على لجنة التفتيش، فسبقوا وأخرجوك.*

- *جزاكم الله خيرًا.*

ن ن ن

مضت عليَّ الأوقاتُ هنا رتيبةً ليس فيها جديدٌ، ولا غير محتمل، لكـن العمـر كان يضيع مني علـى درب زمنٍ يسـير كأعمى ضلَّ في الظلام طريقه، فما عاد يَستـدلُّ أو يُستـدلُّ عليه. وقد تحسَّنت أحوالي فـي الأيام السـابقة على زيارة اللجنـة التي أتت إلينا بعد شـهور من التأخُّر والترقُّب، وبدا وقتها أنني قد صرتُ مهمًّا فجأةً. إذ استدعاني صباحًا ضابطٌ أنيقُ الهندام له أنفٌ معقوف وعينان واسـعتان، يشـبه

الصقر، كان يجلس بجواره رجلٌ صامتٌ يلبس الزيَّ المدني. قال الضابطُ ما ترجمته إن اسمه «مايك» وإن لجنة التفتيش سوف تأتي يوم الثلاثاء القادم، ولأنني أجيد الإنجليزية، يمكنني التحدَّث إلى أعضاء اللجنة نيابةً عن بقية المحبوسين في العنبر.. ارتبكتُ أول الأمر ولم أَدْرِ إن كان ذلك خيرًا أم شرًّا، وسألته أن يُمهلني لأستشير الذين سأنوب عنهم في الكلام، فأجابني بأنه سيقوم بإخراجهم جميعًا إلى الفناء المجاور للعنبر بعد الظهر؛ ليعطيهم التعليمات الخاصة بالزيارة، ويمكن طرح الأمر عليهم في هذه الجلسة. هو لم يقل الجلسة، وإنما استعمل كلمة أخرى تعني حرفيًّا الاجتماع. عدتُ من عنده مشغول البال، وبادرت فور دخولي الزنزانة بالنداء على «مُحب الحور» وأخبرته بما جرى، فقال: هذا خطير، خُذ رأي الإخوة هنا أولًا، أو الأفضل أن أفعل ذلك أنا.

بصوتٍ عالٍ يصل من الممر إلى الزنازين أجمعها، قال محب الحور: يا قومُ اسمعوا، سنقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، بطريقة القرآن الكريم، ما وقع مع أخينا الذي يرفع لنا الأذان في أوقاته، وهو أخٌ فاضلٌ كما علمتم ومن الصالحين، وقد استدعاه قبل قليل كما رأيتم، واحدٌ من كبار الفاسقين المدحورين عنا قريبًا بإذن ربِّ العالمين، وطلب منه أن يقدِّم طلباتكم والشكاوى لجماعة لجنة المفتشين، القادمين بعد خمسة أيامٍ بالتمام والكمال، فانظروا يا عباد الرحمن ما ترونه في ذلك الأمرِ، ولله الأمر من قبل ومن بعد، صدق الله في قرآنه العظيم.

فور انتهاء محبِّ الحور من تلاوته العجيبة، سَرَت بين الزنازين همهماتٌ امتلأ بها الممر، ثم تعالت رويدًا فلم يقاطعها من الحراس

أحـدٌ، ولـم يدخـل علينا واحـدٌ منهم حتـى، إذا اقتـرب أوان الظهر أتـوا إلينا بطعام سـاخنٍ وزَّعـوه على عجل. وبعـد الأكل والصلاة، أخرجونا تباعًا إلى الموضع الذي ذكره لي الضابط.

تحـت الشـمس التـي تفترش الفنـاء افترشـنا الأرض، وجلسـنا بالسلاسـل الخفيفة فـي صفين متتاليـن، وضعوا أمامهما الكرسـي الـذي سـيجلس عليه الضابط «مايـك». كان عددنا يزيـد قليلًا على ثلاثين بدلةً برتقالية. بعد سـكوننا في الجلسـة، جاء الضابطُ يمشـي على هـونٍ مُطرقًا ومتمهـلًا كأنه يفكـر مليًّا، وبهدوءٍ جلـس قبالتنا. لـم يكن معه الرجلُ الصامـت الذي رأيته معه، وإنمـا وقف بجواره مترجـمٌ وحيـدٌ راح ينقل للسـامعين باللغة العربية مـا يقوله الضابط بالإنجليزيـة: الثلاثـاء القادم سـتأتي للزيارة لجنةٌ أعضاؤها السـبعة مـن الحكوميين والصليـب الأحمر وجمعية حقوق الإنسـان، وهم يريـدون أن يروكم ويسـمعوا منكـم إن كان لديكم مـا تقولون، فإذا أردتـم التعـاون معهـم فاختـاروا واحـدًا منكـم يجيـد الإنجليزيـة؛ ليتحدَّث نيابةً عنكم. وسـأترككم الآن عشرين دقيقة؛ كي تقرروا ما تريـدون بحرية، ولكن لا ترفعوا أصواتكم عن الحد المسـموح به، ولا تبدِّلوا أماكنكم، وقد أمرتُ الحراس بألا يتدخلوا إلا للضرورة.

رأيتُ خمسـةً من الجالسـين في الصفِّ الأمامي يسـدُّون آذانهم بأيديهم، كأنهم يُبلغون الضابط بأنهم لا يسـمعونه، ولكنه تجاهلهم وأنهى كلامـه دون أن ينظر إليهم ثم انصرف برفقٍ وخلفه المترجم، وترك جلسـتنا مؤطرةً بالحراس العماليق العابسـين. استدار الصفُّ الأول منـا نحـو الآخر الخلفـي، وبادر «محـبُّ الحور» بـأن قال ما مفـاده إننـا يمكن أن نقاطع الزيـارة ولا نُحادث أعضاءهـا، إذا أردنا

ذلك، أو نترك المجال لأخينا أبي بلال فيتحدَّث معهم نيابةً عنا ويبلغهم بمطالبنا، وأمرنا شورى بيننا.. ما كاد ينتهي، حتى زعق واحدٌ من الجالسين عن يساري بلهجةٍ خليجية، ثم اختلطت من بعده الأصواتُ واصطخب الجميع حتى اضطرب الحراس:

- *وليش نحكي مع الكفرة الفجرة، عليهم لعنة الله.*

- *نعم، لا كلام معهم، نُضرب عن الطعام أفضل.*

- *الأفضل، نضربهم بالنابلم.*

- *يا جماعة الخير، مهلًا، قد يجعل الله لنا مخرجًا ويضرب الظالمين بالظالمين.*

- *إيش تقصد يا قحطاني؟*

- *أيَوه يا شيخ، نطلب منهم حاجات، ونشوف.*

- *باهي واللهِ، أنا موافق، نطلب منهم ونشوف.. وبعدين الله غالب.*

- *أنا مش موافق على كده، نقاطعهم أحسن.*

- *والله ما قصَّرت، كلامك زين، نقاطعهم ونفضحهم.*

- *ونضربهم كمان..*

- *يا عم إنت إهدا شوية، بلاش مشاكل زيادة، إحنا مش ناقصين.*

- *كلهم أولاد زواني وكذَّابين.*

- *يا سيدي خلِّيك مع الكذاب لحدِّ الباب.*

- أستغفر الله العظيم من كل ذنبٍ عظيم..

- يعني أبو بلال يتكلم معاهم، ولَّا إيه الرأي؟

- يتكلم.. ونشوف.

- لا يتكلم ولا شيء، هادي لعبة جديدة منهم.

- لعبة إيه بس، إيش ياخد الريح من البلاط؟

- يا جماعة، الوقت بيعدِّي، شوفوا عاوزين إيه الله يكرمكم.

- إحنا عاوزين محامين، لازم. ولازم يسمحوا لنا بالاتصال بأهالينا، ونصلي ظهر الجمعة جماعة، وكمان لازم..

- لازم يفرجوا عننا ويرجعونا بلادنا.

- بلادنا إيه يا شيخ، حرام عليك، يفرجوا عننا وخلاص!

- باهي، يرجَّعونا من مكان ما أخدونا واحنا نتصرف هناك.

- والله ياشيخ ما قصرت، أنا موافق على هادا الكلام.

- يعني أبو بلال يتوكل على الله، ويوافق؟

- زين، كلنا موافقين.

- كيف موافقين! اتكلم عن نفسك يا شيخ، هداك الله.

- هداني وهداك يا أخويا، طبعًا، ما أنت عاجبك الحال هنا، خايف ترجع بلدك وتروح عند حبايبك بتوع الأمن.

- احتشم يا أخي، عيب، بلاد المسلمين كلها بلادنا.

- وحِّدوا الله..

لـم أنطـق بكلمـة طيلـة الجلسـة، وبقيـتُ مُطرقًـا حتـى أعادنـا الحراسُ إلى الزنازين. أذَّنتُ لصلاة العصر ونمتُ بعد أداء الصلاة، وقلبي يحدثني بأن أمرًا مريعًا على وشك الوقوع. أيقظني دَقُّ جاري «عبد اللـه المكـي» علـى جـداري الملاصق لـه، وصوتُـه الحكَّاكُ كخفيـف جريـد النخل: أرحنا بها يـا أبا بلال! لو تركنـي أنام لكنتُ أهنـأ، لكـن الدعوات تتالـت من عدة زنازين فكشـفتُ عـن الغطاء وجهي وقمت متثاقلًا لأرفع أذان المغرب. توضأتُ سـريعًا ورفعته بقـدر مـا اسـتطعتُ، وفي جوف رأسـي طنيـن.. بعد صلاة العشـاء سـألتُ محـب الحور همسًـا عن الرأي الذي اسـتقر عليـه الجميعُ، فأجابني من خلف الجدار بأنني سأتحدث إلى اللجنة بمطالبنا، وقد وافق على ذلك معظم الإخوة، ولعل الله يُحدث من بعد ذلك أمرًا، ويوفقنـا جميعًـا إلى ما فيه الخيـر. قلتُ له إنني أدركـتُ بعد اختفاء الولـد البوسـنوي، أن الموجوديـن بالعنبـر عـربٌ. فقـال موافقًا إن الجنسـيات الأخرى فـي عنابر أخرى، ثم أضاف: الحسـنة الوحيدة هنـا أن كل المحبوسـين مسـلمون، ومـن أهـل السُّـنة الأطهار، فلا يوجد معنا نجسٌ واحد من الروافض عليهم لعنة الله وغضبه.. كان يتحدَّث إليَّ بصوتٍ متهدِّجٍ، مهموم، فسـألته عما به فقال: لا شيء، أنا بخير، الله يوفقك ويفرِّج عنا الكروب.

آمين.

فـي الصباح اسـتدعاني الضابـطُ «مايـك» ليعرف مـا انتهى إليه «الاجتمـاع» فقلـتُ إن الغالبيـة موافقـون، سـألني عـن المطالـب والشـكاوى فقلـتُ إنهم لـم يسـتقروا عليها بعـد، ويلزمهـم لذلك يومـان أو ثلاثة فقال: لا بـأس، لدينا الوقت، والآن لا تتأخَّر عليهم،

وإذا احتجتَ شيئًا فاطلبْ مقابلتي، يمكنك الانصراف الآن.. كان الرجلُ الصامتُ يجلس شاردًا بجوار الضابط، كتمثال، وكان في ذهني ما يشغلني عن الاهتمام بالنظر إليه أو التساؤل عن سرٍّ وجوده المريب في المرتين.

قبل زيارة اللجنة بيوم استقر رأي الإخوة هنا على خمسة مطالب أساسية، هي السماح لَنا بالاتصال بأهلنا وإعلامهم بوجودنا هنا كأسرى حرب، وتوفير محامين لنا من غير الأمريكيين، ومثولنا أمام محكمة دولية أو إطلاق سراحنا، وعدم إجبار أحد منا على العودة لبلده الأصلي خشية البطش به هناك، واحترام شعائرنا ومشاعرنا والسماح لنا بصلاة الجماعة حتى يتم الإفراج عنا.. وكان عددٌ منا يريد إضافة مطلبٍ سادسٍ هو التعويض المالي عن فترة الاعتقال الظالم، وعددٌ قَليلٌ آخر يصرُّ على مقاطعة الزيارة وعدم الكلام مع اللجنة بخيرٍ، أو مهاجمتهم إذا تيسر الأمر. لكن أولئك وهؤلاء لم يكن عددهم مجتمعين يزيد على عشرة، فغلب عليهم رأي الجماعة الأكثر لا سيما أن فيهم الأكبر سنًّا.

صباح يوم الزيارة جرتِ الأمورُ هادئة الوتيرة، حتى توتَّرت الحركة حين وصل أعضاء اللجنة إلى العنبر وقت الضحى. كانوا عشرة أشخاص لا سبعة، فيهم أربع نساء، ومعظمهم من العجائز والشيوخ ذوي الملابس الأنيقة الفاخرة. هل سأرتدي يومًا مثل ما يلبسون. سبقهم إلى الممر طابورُ حراسٍ في الزي العسكري الكامل، فوقف كل واحدٍ منهم بسلاحه أمام واحدةٍ من الزنازين، حتى تلك المفتوحة الخالية من محبوسين. الضابط «مايك» تقدم الزائرين وراح يشرح لهم طبيعة المكان، وسَعَة هذا العنبر وتاريخ بنائه،

وعدد «الموقوفين» حاليًا فيه. هكذا وَصَفَنا. كانت الزنزانة المقابلة التي عمرت سابقًا بسُكنى الشاب البوسنوي، خاويةً ومفروشةَ السرير بملاءةٍ نظيفة، فدخلها الضابطُ وأخذ يشرح للزائرين كيف يقضي «الموقوف» يومه، فظلت عيني معلقة بظهورهما حتى التفتت لي أثناء كلامه امرأةٌ من الغابرين، وابتسمت، فأومأتُ إليها برأسي من دون التفوُّه بأي شيء وغضضت عنها النظر. بعد أن وصلوا بحركةٍ بطيئةٍ إلى آخر الممر، سمعت صوتَ الضابط يأتيني من الجهة اليسرى: لا يا سيدي، معظمهم لا يعرف الإنجليزية. وقد اختاروا واحدًا منهم يتحدثها بطلاقةٍ، لينقل لكم ما اتفقوا عليه من رسائل لكم، هو نزيل هذه الزنزانة الثانية من جهة اليمين، سيأتي إليكم الآن، افتحوا له الباب يا حراس.

تلك هي المرة الأولى التي أخرج فيها من الزنزانة، من دون قيود، منذ أتيتُ إلى هنا قبل سنين. هي لن تكون المرَّة الأخيرة، ولكن السير من غير سلاسل لأول مرَّةٍ، أعطاني شعورًا غريبًا. بعد ثلاث خطوات أحسستُ بكتفيَّ يثقلان عليَّ، كأن الانحناء قليلًا للإمام صار هو الأنسب للسير. سبحان الله. اجتهدتُ لأقف منتصبًا وسط أعضاء لجنة التفتيش، ومن خلفهم كان المحبوسون ينظرون من بين قضبانهم، وكان الحراس مستنفرين. مسحت عن جبهتي العرق، وقلتُ وأنا أنظر إلى وجوه المحبوسين: «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم تحدثت بالإنجليزية ذاكرًا المطالب الخمسة دون أي زيادة أو نقصان، وتعجَّلت العودة إلى موضعي. سألني رجلٌ وقورٌ منهم بلهجةٍ رصينةٍ عن المدة التي قضيتها في جوَّنتنامو، فقلت: أربع سنوات أو أقلَّ قليلًا. هَزَّ الرجل رأسه مُظهرًا التأثُّر، والتفت

ناظرًا بأسى إلى الوجوه المطلة علينا من خلف القضبان، فتهيَّأتُ للاستدارة حتى أرجع إلى الزنزانة لولا أن العجوز التي ابتسمت لي قبل قليل، كلَّمتني:

- *قُل لي: هل أنت نادم؟*

- *نادم .. ماذا تقصدين؟ نادم على ماذا؟*

- *أقصد.. عفوًا، ما تهمتك هنا؟*

- *لا أعرف يا سيدتي. أريد الآن العودة إلى مكاني، لو سمحتم.*

قبل دخولي من باب الزنزانة، سمعتُ أحد أعضاء اللجنة يسأل إن كان ممكنًا استدعاء مترجم؛ لأنه يريد أن يتحدَّث مع بعض السجناء الآخرين. ردَّ عليه الضابط «مايك» بأن ذلك غير متاح الآن، وأن وقت الزيارة أوشك على الانتهاء.. خرجوا جميعًا، تباعًا، وهم يتلفَّتون إلينا كأننا كائنات هبطت عليهم من خارج الكون.

بعد مرور أُسبوعين، أو أكثر، كنا نسير في السلاسل صباحًا وسط الحراس الذاهبين بنا إلى صالة التريُّض، وقبل بلوغ بابها جاء جنديٌّ نحيلٌ أبلغ الحراس جهرًا أن الضابط «مايك» يريدني في مكتب المناوبة. خفق قلبي بشدة، واعتراني قلقٌ يُثقل الأنفاس. دخل خمسةُ حراسٍ بالسجناء الخمسة الآخرين إلى الصالة، وذهب بي إلى المكتب حارسان يسير خلفهما الجنديُّ النحيلُ، بينما لسانُ حالي يلهج بالأدعية الحافظة من صروف الدهر ودواهيه.

وجدتُ الضابطَ جالسًا خلف مكتبه، وفوق كرسي قريب منه يقبع الرجلُ الصامتُ بحضوره اللافت. مَدَّ لي الضابطُ «مايك»

سيجارة فقلت: إنني لا أدخِّن ولا أريد قهوةً، فضحك ضحكةً لم تكتمل وقال وهو ينظر في الورقة بين يديه، ما ترجمته: حسنًا، بخصوص مطالبكم الخمسة أريدك أن تخبر «السجناء» بأننا نبحث حاليًا مسألة توفير محامين ومسألة اتصالكم بأقاربكم، وسوف يتم البتُّ في هذين الأمرين خلال فترة قصيرة. أما الاعتراف بأنكم أسرى حرب، فهذا غير ممكن لأن بلادكم ليست في حالة حربٍ معنا. وبالنسبة إلى صلاتكم معًا خارج الزنازين، تمت الموافقة لكم على ذلك لمرّةٍ واحدة أسبوعيًّا، وقد أخبرنا الخبراءُ بأنكم ستفضِّلون أن تكون هذه المرَّة ظهر يوم الجمعة.

- *طيب. هل هناك أي شيء آخر؟*

- *لا ، شكرًا. يمكنك الانصراف*

حين قمتُ من أمامه بسلاسلي، لمحتُ الرجل الصامت ينظر نحوي بعينٍ قويةٍ تريد أن ترى ما بداخل رأسي، فتجاهلتُ الأمر وأسرعتُ بقدر المستطاع لألحق بالباقين قبل انتهاء ساعة التريُّض. كنتُ مضطربًا بلا سبب ظاهر. في الصالة وجدتُ أخي خير الدين «محب الحور» يجلس منفردًا على مقعد خشبي طويل، وأمامه «عبد الله المكي» يلهو كعادته وظهره إلى الطاولة الخشبية، وفي يديه مضربا تنس الطاولة يقذف بهما الكرة إلى الحائط لترتد إليه المرةَ تلو الأخرى. هو يفعل ذلك كلما مللنا اللعب معه. وكان المسجونون الثلاثة، الساكنون في الزنازين الثلاث التالية علينا في العنبر، جالسين في ركن الصالة يتهامسون فيما بينهم وفي عيونهم ذُعرٌ وترقُّبٌ غير مفهوم. صاح «المكي» حين رآني عند الباب

داعيًا إيـاي إلى اللعـب معه، فاعتـذرتُ منـه وألقيتُ السـلام على «محب الحـور» وجلسـت إلى جواره، وقبل أن يسـألني عن سـبب الاسـتدعاء بادرت بإخباره بمـا أخبرني به الضابط، فأخذ يسـمعني وهو ساكنٌ ناظرٌ بشرودٍ إلى قوائم طاولة تنس الطاولة، ولما انتهيتُ نظر نحوي وقال بعد هدأةٍ، بصوتٍ كظيم:

- *سبحان الله في أمرك يا أخي، وإيش شأنك أنت؟*

- *شكله عاوز يتفاوض معانا.*

- *هوَّ يتفاوض بنفسه. ليه تتدخل في الموضوع. ويمكن الضابط الخنـزير عامل لك فخ.*

- *طيب، خير إن شاء الله يا خير.*

محب الحور لا يطيق أيَّ شيء يتعلق بالأمريكيين ولو من بعيد، ويؤكِّـد دومًا أنه لا يثق بـأحدٍ منهم، حتى لو كان طفلًا رضيعًا. كنتُ أعتـبُ عليه فـي ذلك وأعدُّه نوعًا من الغلو، ثـم صرتُ أتفهَّم حذره المفـرط منهـم وأتقبَّل موقفـه بعدما حكى لـي في الأيـام التالية، ما يمتلئ منه قلبُ المؤمن ألمًا. فقد أودعه الأمريكيون عقب إمساكهم بـه في أفغانسـتان، بسـجن يُعـرف هناك باسـم «حفرة الملـح» وقد اسـتطاع بمعجزةٍ أن يهرب منهم، لكنه ضلَّ الطريق إلى «تورا بورا» فأمسك به الأمريكيون ثانيةً وحبسوه قبل مجيئهم به إلى «جوَّنتنامو» في السجن المسمى المحبس الأسود أو «المعتقل المظلم» فأمضى هناك شـهورًا شنيعة، لم أحتمل الاستماع إلى مزيدٍ من حكاياته عما وقع معه خلالها، وما جرى أمامه. فيا أرحم الراحمين ارحمنا. بقيتُ أيامهـا أتفـزَّع في نومـي كالمصروعين، وأدركتُ أن ما شـاهدته في

«قندهار» لم يكن أسوأ البؤس كما كنتُ أظن. كما فهمتُ مما حكاه، أن للبشر مقدرةً على البقاء تفوق كل خيال. وأن سرَّ الوجود الإلهي فينا يتجاوز درجات الإيمان جميعها، ويفوق أيضًا كل مراتب الكُفر، فهو تعالى «الحافظ» لمن شاء من العباد، أولياء كانوا أو أشقياء.

كان يحكي لي في صبيحةٍ هادئةٍ بعض تلك الوقائع، الشنائع فانقبضتْ معدتي وأحشائي، وأردتُ تغيير مسار الحوار والحال فسألته عن سبب تسميته بهذا اللقب الجميل «محب الحور» فقال ما زادني ذهولًا منه، وإعجابًا به. فقد أخبرني بأنه كان يظن يوم ذهب إلى الصحراوات الأفغانية، أنه سوف يعيش هناك حياة المسلمين الأوائل من السلف الصالح، الذين نشروا دِين الله في الأرض، وكان يُعدّ نفسه من أولئك المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم، بأن لهم الجنة. لكن نفسه كانت تحدِّثه أيضًا، نظرًا إلى حداثةِ سِنِّهِ، بأنه سوف يحظى بزوجاتٍ وإماءٍ وسبايا، ما دام يجاهد في سبيل الله.. كنا جالسين على الأرض تحت شمس الفناء المجاور للعنبر، والحراسُ بعيدون عنا بعض الشيء، لحظةَ عاد «محبُّ الحور» إلى الوراء بظهره ورأسه فاستند إلى الجدار، وأشرق وجهه الصبوح بواحدةٍ من ابتساماته الطيبة قليلة الوقوع، وقال إنه منذ بلوغه ودخوله المبكر في طور الرجولة، كان يشتهي النساء في خياله ويحنُّ إلى استدارة الأثداء، حتى إنه كان يحلم بالنوم في سفوح الجبال، على سريرٍ مخدَّاته من النهود الناعمة وألواحه وقوائمه من سيقان النساء الملساء.

أضحكني ما حكاه عن أحلامه، حتى التفت نحونا الحراسُ حين سمعوني. التزمنا الصمت برهةً ثم سألته عن الأفغانيات، فأجاب

بأنهـنَّ عجفاوات! قلتُ إن النسـوة الصحراويات يشـبهن الغزلان، فقال: إلا هؤلاء، فهنَّ يشبهن الماعز الأسود..

- *حـرام عليـك يـا خيـر، الجميلات موجـودات فـي كل مكان والقبيحات أيضًا، هذه سُنَّة الله في الخلْق.*

- *سـبحانه وتعالى. ولكن ربنا توفـى الأفغانيات الجميلات أيام الحرب مع الروس، وترك الماعز.*

- *يا سلام عليك. كيف هذا، وكيف يعيش الرجال هناك؟*

- *ينكحون الغلمان.*

- *أستغفر الله.. ما هذا الكلام!*

حسـبما أخبرنـي محبُّ الحـور، والعهدة فـي ذلك عليـه، فإن جماعة «طالبان» لما استولوا على النواحي الأفغانية، حجبوا النساء وألزموا الصغيرات والعجائز على السـواء بلبس الأسـود والخشـن مـن الثياب، فما عاد يظهر منهن كفٌّ ولا وجه. وحظروا على المرأة الخـروج من جـدران البيت، ومنعـوا عنها أنواع الزينة والمسـاحيق الملونـة والعناية بالأعضاء؛ لأن هـذه الأمور فيما يظنون ويؤكِّدون، تجعل النساء يتبرجن تبرُّج الجاهلية الأولى. هكذا قال. ولأن الحياة هناك قاسيةٌ والقتلَ سهلٌ، فلا مجال لاعتراضٍ أو مخالفة، ولا سبيل أمام النسـاء إلا إظهار الطاعة والانصياع، والتخفي بقدر المسـتطاع خشـية الفتك المتاح هناك كالهواء، لا الماء.. تنهَّد بحرقة ثم أضاف مـا ملخَّصـه أن الأجواء هناك حـارّةٌ بالنهار وباردةٌ بالليـل، والثيابَ رثَّة، وفروجَ النسـاء وأدبارهـنَّ مائلة إلى العطـن بطبيعتها، وتحتاج

منهنَّ رعايةً دائمة لم تعد ممكنة. ولذلك ساءت بواطن النساء اليابسات المتشابهات، وامتلأت الحنايا فيهنَّ بالعفن، فنفر منهنَّ الرجالُ وانصرفوا عنهنَّ إلا لغرض الإنجاب والتكاثر؛ للتباهي بوفرة العدد. هكذا قال، وقال إن الأفغان المتقاتلين لما عافوا صحبة النساء وانفردوا في السهول والجبال، أحيوا تقليدًا قديمًا عندهم يسمونه «باتشا بازي»، وهي كلمة تعني باللغة البشتونية ملاعبة الأولاد أو العبث بالغلمان، وصاروا يعلمون الولدان الأيتام الرقصَ الخليع واستعمال المساحيق ولبسَ الشفَّاف من الثياب؛ حتى تهتاج أمراضُ رجولتهم فتصبو إلى اللواط. وهم لا يشترطون في الغلام إلا كونه مسلمًا؛ عملًا بالآية القرآنية الداعية إلى تفضيل الإماء المؤمنات والعبيد المؤمنين؛ لأن أولئك وهؤلاء خيرٌ نكاحًا من المشركات والمشركين.

- *بس يا خير الدين، الله يرحم والديك. اسكت. لا تحكِ تاني، أرجوك.*
- *يا أخي إنت سألتني عن سبب اسمي.*
- *صحيح، لكن روحي تضايقتْ من حكاياتك الغريبة.*
- *آه، المهم، نفسي عافت النسوان والغلمان هناك، وكنتُ أقول لهم إني سأصبر حتى أنال الشهادة في سبيل الله، فأحظى بالحور العين في الجنة؛ فسمُّوني: محب الحور.*
- *طيب، ربنا يرزقك بيهم في الآخرة، يلَّا نقوم، الحراس اتحركوا. أستغفر الله العظيم.*

لَـم أعـد للكلام مـع محـب الحور عـن أيامـه المريرة فـي بلاد الأفغان؛ فالحكاية عنها تُظلم القلوب وتُكتِّم الأنفاس، وكلانا يكفيه ما فيه. لكنني في تلك المدة الطويلة ومع امتداد كلامنا، اكتشفت فيه مـن الأفكار والمعتقدات ما يثير العجب، خصوصًا أنه يثق تمامًا في كل ما يعتقده. ذات مرةٍ كُنا جالسينِ نتحادث تحت الشمس بصوتٍ خفيـض، فجاء عَرَضًا ذِكرُ الخلْق الأول ومعصية «إبليس» عليه لعنة اللـه وغضبـه، فاعتدل محبُّ الحور في جلسـته وسـألني عن اسـم زوجـة إبليـس، وإن كان له عيـال! فضحكتُ وقلـت: لا أعرف. هزَّ رأسه بوقارٍ يناسب كبار العلماء المتبحرين، وقال بيقين: إن لإبليس امـرأةً ولودًا اسـمها «زوبعة» وكلما نظـر إليها نظرةً أنجبتْ شـيطانًا جديـدًا، فينسـربُ منها من فوره ليلتصق بواحد مـن مواليد الجن أو الإنس، ولذلك قال القرآن: ﴿شـياطين الجن والإنس﴾. وشياطين الجنِّ هم الذين يفزعون البشـر في المواضع المرعبة والمقفرة؛ كي يسـخروا منهم ويجعلوا الخائف هزأةً لهم، ولعبةً يتلهَّون بها. هكذا قال. أما شياطين الإنس فهم كامنون فيهم، ويجرون في عروقهم مع الدماء، وبهذه الروح الشـيطانية تتحرَّك في البشـر الشهواتُ وتهتاج الرغبة في النكاح، وكلما ازداد جريان الدم في الجسم البشري ثارت هذه الشـهوات، وتزايد إلحاحُها. وقبول النسـاء لسُـكنى الشياطين بأجسامهنَّ أكثر من قبول الرجال؛ بسبب رخاوة المرأة، ولذلك فإن أبدان النسـاءِ المرتخيات تثير الشهوة الشـيطانية في نفوسِ الرجال، بأكثر مما تهيِّج أجسامُ الرجالِ النساءَ.

ومن شياطين الإنس، حسبما يعتقد محب الحور، ذكور وإناث! فيسـكن في الرجل منا شـيطانةٌ تطلب مثيلاتها من النسـاء، ويسكن

كُلَّ امرأةٍ شيطانٌ يدفعها إلى حضن الذكر. أما الغلمان الذين يُعبث بهم في صغرهم، فهؤلاء يتنازعهم شيطانان أحدهم مذكرٌ والآخر مؤنثٌ؛ ولذلك هم أردأ أنواع البشر. ولا سبيل للخلاص من اجتماع هذين الشيطانين إلا بتطويحهما في الهواء؛ حتى يفزع الشيطانان المتلاصقان فيفترقا. ولذلك كان الحكم الشرعي الذي يلوط أو يلاط به، أن يُلقى به من شاهق جبل.. هكذا تحدَّث محبُّ الحور بثقةٍ ويقينٍ، ما بعدهما ثقةٌ ويقين وما قبلهما أي شك!

نسيتُ شيئًا مهمًّا. حين نهاني محبُّ الحور عن نقل كلام الضابط «مايك» إلى المعتقلين معنا، حدَّثني قلبي بأن الله قد أنطقه بالرأي الصائب، فالتزمتُ برأيه وبادرت إليه. طلبتُ المرور على مكتب الضابط في طريق رجوعنا من الصالة إلى العنبر، وهو ما اندهش له أخونا «المكي» والثلاثة الذين يتهامسون دومًا فيما بينهم. وأبلغتُ الضابط اعتذاري بأوجز الألفاظ، فاستمع ولم يعقِّب على كلامي بأي شيء.. لم يكن الرجلُ الصامتُ المريبُ، موجودًا معه. وعندما عدت إلى الزنزانة أخبرني «محبُّ الحور» بأنه أبلغ جميع الإخوة بما عرضه عليَّ الضابط، وباعتذاري، فكان ذلك من آيات فضله عليَّ لأنه دفع الشُّبُهات بعيدًا عني، وكفَّ الفتن. لمحب الحور أيادٍ بيضاء، وهو خليقٌ بأن يكون أخًا في الله، وصديقًا صدوقًا، ومحدِّثًا مؤنسًا. لولا ذكرياته المريرة، وتعصُّبه في بعض الأمور، وشطحاته الفقهية. لا بأس، فقد تعلمتُ كيف أتحاشى الكلام معه عن ذكرياته الأفغانية، وعن رأيه الشنيع في الشيعة الذي يسميهم «الروافض» ويكرههم كراهية التحريم؛ لأنه يراهم غلاةً ومنحرفين تمامًا عن الإسلام. وقد حاربهم حربًا ضروسًا في النصف الشمالي من بلد

الأهـوال، وكان مـع «طالبـان» حين احتـدم قتالهم مـع الجماعات الشـيعية الموالية لإيـران بقيادة أحمد شـاه مسـعود.. أما شـطحاته الفقهيـة فلـم أكـن آخذهـا على محمـل الجـد، فأراهـا لا تخلو من الطرافة والظرف.

ن ن ن

بعـد يومين من اعتذاري للضابط «مايك» من عدم إبلاغ رسـائله للمحبوسـين، أخرجونـا جميعًـا في الصباح وأجلسـونا فـي صفَّين مثلما فعلوا أول مرة، ووقف هو قبالتنا وبجواره المترجم الذي نقل لنا ما سـبق أن قاله لي الضابط عن مطالبنا الخمسة. لم يستمر كلامه إلينا غير دقائق، استمر بعدها الخلافُ بيننا أيامًا طوالًا؛ إذ ثار صخبُ الغالبيةِ واحتقن كثيرون أرادوا الجهاد بنشر الهياج في العنبر، ورأى آخرون أن يوم الخلاص قد اقترب، ولا بأس بالتفاوض حتى يتم لنا المراد. وجماعةٌ صغيرةٌ منا التزمت الصمت التام، كأن الأمر لم يعد يعنيهـم مـن قريب أو بعيـد، وكان من هؤلاء الثلاثة الذين يسـكنون الزنازيـن الثلاثـة التالية لزنزانة محـب الحور، ويخرجـون معنا كل يوميـن إلى صالة التريُّض فلا يتكلمون إلا همسًـا فيمـا بينهم. كنتُ أظنهـم أول الأمـر أبنـاء عمومة أو أقـارب سـعوديين، لكنني عندما سـألتُ عنهـم أخانا «المكـي» أجاب بأنهـم أخوة فـي الدين، فقط، واثنـان منهم من المملكـة والثالث يمني. وأخبرني بأسـمائهم التي لن أنسـاها ما حييتُ: ياسر الزهراني، مانع العتيـبي، صلاح السلمي اليمني.. عفا الله عنهم، وغفر لهم ما اقترفوه.

لما اسـتقر الأمرُ على أننا سـنصلِّي ظهرَ الجمعـةِ جماعةً، طلب منـي الإخوةُ أن أصلِّي بهم إمامًا وأُلقي عليهم الخطبة، فاسـتعفيتُ،

فأصرُّوا، فوافقتُ على هونٍ وكُلِّي خجلٌ ووجل. في الميقات المعلوم أخرجنا الحراسُ إلى الفناء بسلاسل لامعةٍ جديدة دقيقة الحجم، تمسك القدمين بيسر، لو رأتها الفتياتُ في قُرانا البعيدة لاتخذنَّ منها الخلاخيلَ زينةً.

بعد اضطراب المرة الأولى وارتباك البدايات، انتظمت الصفوفُ ووقفتُ أمام الجالسين بقلبٍ يشتدُّ خفقانه ويعلو، ورفعت الأذان فرفعني إلى السماء ثم حمدتُ الله في عليائه وأثنيتُ عليه، وجعلتُ موضوع خطبة الجمعة يدور حول الحديث الشريف ذي المعاني البعيدة والإشارات الرائقة؛ حيث يقول أفضل الخلق أجمعين: المؤمن مرآةُ أخيه..

أثناء الخطبة كانت عيون المصلِّين متعلِّقةً بي كأنني حبلُ نجاة، وبكى كثيرٌ منهم أثناء كلامي، وأجهش محبُّ الحور والأخوةُ الثلاثةُ المتهامسون، وأظهر الحراسُ شيئًا من الاحترام. ما عدا واحدًا منهم كان يقف قبالتي خلف المصلين الجالسين، ويستند بكتفه إلى جدار العنبر المجاور وهو يهزُّ ساقه استهزاءً. رأيتُ عينيه الناظرة نحوي تشعُّ سخريةً فاجرةً، عرفتُ سرَّها عندما همس في أذني عند دخولنا من باب العنبر: أنا صديق سالي!

وددتُ لو تغافلتُ عنه كيلا يتشوَّش خاطري الذي راق بعد الصلاة وارتقى محلِّقًا مع الإخوة في سماوات الروحانية، لكنه فحَّ في أذنيَّ وهو يفتح الباب ليدخلني إلى زنزانتي، قائلًا ما ترجمته: *هل تفتقد «سالي» يا برسّ؟ هي في إجازة رضاعة؛ لأنها ولدت بنتًا من جارك التونسي الحلو، الذي كان قبل قليل يبكي وهو يجلس أمامك على الأرض! كلكم فاسدون يا مسلمون، وكاذبون.*

أذهلنـي ما قاله، فدخلتُ الزنزانة والقيدُ بقدميَّ ومشـيتُ بخطى السـلحفاة الحائرة، حتى أوقفني الحـوضُ ومـحلُّ قضاء الحاجة. ناداني الحارسُ الفاجر من خلفي بصوتٍ ينـزُّ احتقارًا: هاي، أنت، ألا تريد فكّ قيودك؟ عدتُ إليه بخطى الخزي، فأخذ من وراء فتحة الباب السلاسـل اللامعـة، وهزَّها أمـام وجهي من خلـف القضبان متشـفِّـيًا وهـو يقهقه على نحـوٍ قميء. أردتُ أن أسـتجلي الأمر من «محـب الحـور» فوجـدتُ الوقتَ لا يلائـم، فنمت على نية سـؤاله همسًـا بعد صلاة العشـاء أو إرجـاء الأمر إلى الصبـاح، حين نخرج للتريُّض أو الجلوس تحت الشمس. لكننا لـم نخرج في اليوم التالي من الزنازين، فقد انتبهتُ من نومي فزعًا أوانَ العصر على جَلَبةٍ أتتْ من آخر الممر.

استعلمتُ مـن السـامعين فعرفتُ منهـم أن الأخ «سـيف الدين الجغبوبي» السـاكن في آخر زنزانة بالصف الأيسـر من الممر، علّق ملاءة سريره على قضبان بابه ليمنع عنه الضوء وينام، فاعترض عليه الحراسُ وأمروه بخلعها، فرفض. شـدَّ الحـراسُ الملاءة من خارج البـاب فتمزَّقت، وذهبوا بهـا وتركوه قائمًا في وسـط زنزانته يصرخ شـاتمًا إياهـم بأشـنع المفـردات، فأهملـوه لأنهم لم يفهمـوه. كأن «سيف الدين» جاءته نوبةُ صرعٍ مريع أو مسَّه بالجنون شياطينُ، فقد ارتمى على أرض زنزانته وراح يتخبَّط مرتجفًا حتى شُـجَّت رأسـه، فتصايح المسـجونون وعلا الصراخ.. جـاء الحراسُ ورأوا الصريع النازف، فأسرعوا بأخذه على نقالةٍ ربطوه بها.

لـم يهـدأ العنبـر طيلـة الليل ما بيـن صارخٍ فـي الفراغ السـاكن، ومسـتصرخٍ باللـه، ومتفـزعٍ مـن كوابيس نومـه. في الصبـاح التالي

دخـل إلينـا الضابط «مايك» غاضبًـا وحوله جندٌ ضخـامٌ كثيرون لم أرهـم من قبل، وقال ومترجمه يعيد بعده الكلام للمحبوسـين: هذا الصخب غير مقبول إطلاقًا، وسـوف تُعاقبون جميعًا بعدم الخروج مـن الزنازيـن ثلاثة أيـام، لن تحصلـوا خلالها إلا علـى وجبة طعام واحدة في اليوم.

صاح أحدنا من بعيد داعيًا من لديه «نابلم» إلى قذف الضابط به، وصـرخ أبو صعب اليمني: نعم يا إخوة الإسـلام، أدِّبـوا هذا الكافر هو وكلابه! لكن الجميع سـكتوا وسـكنوا، وأسـرع الضابط وجنده بالخروج وشـيَّعهم صوتُ عبـد الله المكي وهو يقـول : إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا ظالمين! فصاح من إحدى الزنازين صوتٌ يقول: يا شيخ (كانوا خاطئين) حرام عليك، لا تُلحن في القرآن.

جـرى بالعنبر هَرَجٌ كثير وتداخلت الأصـواتُ والصراخاتُ، ثم تفاقمتِ الوقائعُ المقلقةُ عنـد مجيء الحراس ظهرًا بالوجبات، فقد تقيَّـأ «أبو صعب» في كيسٍ كان يُخفيه، وقـذف به الحراس فهرولوا هاربين من الممر، وسـقط أحدهم عند الباب فجُرح وقيل بل داسـه الحراسُ المفزوعون. أعلن البعض منا الإضراب عن الطعام، وعن المـاء أيضًـا، فالتـزم بذلك الجميعُ لا سـيما أننـا عَدِمنا مـا يؤكل أو يشـرب طيلة النهار، بل أوقفوا جريان الماء من الصنابير فتعذَّر علينا الوضوء. بعدما رفعتُ صلاة العشـاء والقلبُ فيه من الهموم ما فيه، سمعنا صوت المترجم يأتي من عند الباب سائلًا الجميع عمن يريد وجبـة الطعام والماء، فصخب عليه البعضُ منا وتصايحوا رافضين، ومؤكِّدين أن العنبر جميعه مُضربٌ عن الزاد حتى الموت.

في الصباح التالي أتانا من عند الباب صوتُ المترجم مجدَّدًا، يسأل إن كُنا نريد الطعام والماء، ويستأمن لدخول الحراس، فثار عليه المعتقلون واهتاجوا شاتمين فانقطع صوته. بعد ساعةٍ عاد الماء إلى أحواضنا، ضعيف التدفق، فتوضأ الناسُ استعدادًا لصلاة الظهر. لابد أن كثيرين شربوا من الصنبور مثلما شربتُ أثناء وضوئي، مع أنهم حذَّرونا من شرب هذا الماء. بعد الصلاة دخل علينا أربعةٌ من الجند المتجهِّمين، أخذوني ومعي «محب الحور» إلى الضابط «مايك» وأوقفونا أمامه فبدأ من فوره حديثه اللين:

- *أعتقد أنكما من أفضل الموقوفين هنا؛ ولذلك حرصت على الكلام معكما. هل تفهمني يا تونسي؟*

- بصعوبة.

- *ظننتُ أنك تجيد الإنجليزية!*

- لا، *الفرنسية ونسيتها.*

كان محب الحور يتحدَّث بالعربية، غير مكترثٍ بكون الضابطِ لا يفهم كلامه! فطلب مني الضابطُ أن أترجم كلامه وأترجم له، فقلتُ: لا مانع عندي، يا سيد! كأن الضابط انشرح قلبه عندما قلت له كلمة «سير» في خاتمة عبارتي، فقد انفرجت أساريره وهو يقول ما ترجمته: هذا الشَّغَبُ الخطير في العنبر لن يؤدي إلى خير، خصوصًا أن الإدارة العليا تنظر هذه الأيام في ملفاتكم بعنايةٍ، ومن المتوقع أن تبدأ الإجراءات اللازمة للإفراج عن عدد منكم قريبًا، ولا معنى الآن لهذا الذي تفعلونه من شَغَبٍ غير مقبول. وقد سمحت لكم بالصلاة معًا قبل يومين كبادرة طيبة، ولن نعاقب

زميلكـم الذي اعتدى على الحراس بهذه الطريقة المقززة، لكننا لن نسـمح بحدوث ذلك مرةً أخـرى. والآن نحن لا نريـد أن نعود إلى نقطـة الصفر، فهذا ليس في صالح أيِّ أحد، وإذا واصلتم الإضراب عن الطعام فسوف تنهارون قريبًا، وعندئذ سوف نحقنكم بالمحاليل التي تُبقيكم أحياءً ولكن كالموتى، ولن تصلوا في النهاية إلى شيء. هل يمكنك الترجمة لزميلك يا برس؟

نقلـت لمحـب الحور مـا قالـه الضابط، فـردَّ عليه بما مفـاده أن الحـراس عليهم الكفّ عـن مضايقة المعتقليـن، ولا بأس لو وضع البعـض المـلاءات علـى أبوابهـم لحجب الضـوء، وهـي ملاءات خفيفة على كل حال وفي العنبر كاميرات تنقل كل شـيء، فلا معنى للتضييـق على الناس بهذا الشـكل الظالم. ترجمـتُ للضابط كلامه فتقبَّـل المسـألة على مضـضٍ، وقال إنه سـوف يتغاضى عـن تعليق المـلاءات الخفيفـة علـى الأبـواب، مـع أن هـذا الأمر غيـر قانوني على الإطلاق.

عُدنـا إلـى العنبـر، فتركنـا الجنـود فـي وسـط الممـر لنحـادث المحبوسـين بمـا جـرى مع الضابـط، وخرجـوا. أخبرنا السـامعين بمـا قيل لنا، فصمت كثيرون، وهمهـم الباقون، وهزأ بنا صوتٌ أتانا مـن إحدى الزنازيـن مريع النبرة وهـو يقول ما معنـاه: وهل أمركما الضابـطُ أيضًا بلحـس حذائه، قبل أن تنقلا إلينا مـا يريد؟ فصاح فيه محبُّ الحور: نحن ننقل لكم الرسـالة ونـؤدِّي إليكم الأمانة؛ ابتغاء مرضاة الله، ولن نقبل من أحدٍ إهانة..

«إهانـة، يـا زانٍ!». قصـف «أبـو صعـب» محـبَّ الحـور بهاتين الكلمتيـن فأصابـه بذهـولٍ مفاجئ وانكسـار، فانسـحب من جانبي ودخـل خفيض الرأس إلـى زنزانتـه المفتوحة، بسلاسـله. وجدتُ نفسي واقفًا وحدي وسط الممر، وليس عندي ما أقول أو أفعل! عن يميني يقف المحبوسـون ناظرين نحوي من خلف قضبانهم، كأنهم يحاكمونني بالنظـرات علـى تهمـةٍ لا أعرفهـا، ولا يعرفونها. وعن يساري كان الثلاثةُ المتهامسون دومًا، يحدِّقون نحوي بالأعين التي ينظر بها المشنوقون.

الفاجعة

بعد دخولنا من الممر إلى حضن الزنازين، متحسِّرَيْنِ، جاء الجنودُ فأخذوا سلاسل «محب الحور» وسلاسلي من خلف الباب وأغلقوه علينا ومضوا مسرعين. ساد الصمتُ بالعنبر قرابة ساعتين، ثم أتى الحراسُ بطعامٍ ساخنٍ سبقتهم إلينا رائحته، فأخذ الوجبات معظمُ المحبوسين وتصايحت القلة الرافضةُ المصِرَّة على الإضراب، وشتموا الحراس والآخذين. أخذتُ وجبتي لكنني لم أُقبل عليها لفقدان الشهية وانشغال البال بما يتسارع حولي من أمورٍ لا يعلم إلا الله منتهى مداها، وبقيتُ يومين، أرفع الأذان في المواقيت بصوتٍ رصين، وأتشاغل عما يحوطني ويعتملُ بباطني بالقراءة في مُصحفي بصوتٍ خفيض.. بعدما مَرَّ اليومان البطيئان جاء الحراسُ ليخرجوا بنا إلى الشمس والتريض مثلما كانوا سابقًا يفعلون، فكان الرافضون للخروج أكثر عددًا من المعتاد وكان عديدٌ من المعتقلين يعلِّقون الملاءات على أبواب الزنازين، وينعزلون.

فـي صالـة التريُّض وجدناهـم قد وضعـوا جهاز تلفزيـون يذيع علينـا برامج عن حياة الحيوانات، وأفلامًا قديمة. وقد تنوَّعت ردود أفعال المعتقلين ما بين مبتهجٍ بما يراه على الشاشـة، ومعترضٍ على ذلك الإلهاء الكُفري الهادفً للفتنة، ومستريبٍ من هذه الخطوة غير المتوقعـة من إدارة المعتقل. وكان ذهني مشـغولًا عن ذلك كله بما سـمعته عـن «محب الحور» مـن الحارس الرقيع، ومـن أبي صعب اليمني، فظللتُ أتحيَّن الفرصة لاستجلاء الأمر حتى جاءت صبيحة يـوم الأربعـاء وأخرجونـا إلى الفناء المسـيَّج بالأسـلاك الشـائكة، فوجـدتُ الأجواء حـارةً والهواء ثقيل الوقوف. قلتُ في نفسـي: لو كان بيـدي قلم وأوراق، لكتبتُ الآن قصيـدةً مطلعها «الصيفُ يدقُّ الأبواب، والقلقُ يدكُّ الأجناب..».

جلسـتُ تحـت الشـمس إلى جـوار «محـب الحـور» وتلطَّفت فـي سـؤاله عمـا أخبرني به الحارسُ صاحب سـالي، ومـا صدمه به أبو صعب. فقال بعينٍ مائلة إن الجميع هنا من حراسٍ ومحبوسـين، يعرفون هذه الفضيحة! هي سـقطةٌ وقع فيها قبل قرابة عامٍ، أيام كان الحـراس يتغنَّون في العبث بالمحبوسـين، على نحـوٍ فاحشٍ، وفي ليلـةٍ أخرجوه إلى غرفةٍ كتلك التي بمدخل العنبر وراحوا يهزأون به بتعريتـه، وهو مقيد الأطراف. كانوا خمسـةً من بينهم امرأتان. ليلتها اسـتدعوا حارسـةً سـوداء كانت قد وصلـت إلى هنا قبلهـا بيومين، لكنهـا معروفـة من قبل عنـد زملائهـا بالإمعان في العهـر. وراحت هـذه الحارسـة تخلع أمامه ملابسـها وهو مقيدٌ، وتغنـج على مبعدةٍ وهـي تقترب منه رويدًا حتى التصقت به من خلفه وراحت أصابعها تتحسَّـس عضوه برفق فانتفـض رغمًا عنه. تحرَّقت الحارسـة أكثر.

وفي لحظةٍ شبيهة بتلك التي عصى فيها آدمُ ربه، جاءت المرأة العارية من أمامه وانحنت، ثم تزحَّفت للخلف كي تلتصق به، ولحظتها رمى إليها أحدُ الحراس بواقٍ ذَكَريٍّ فقلَّبته بين أصابعها مستهزئةً ثم ألقت به على الأرض وهم يضحكون من حولها، وقالت لهم: لا، هو آمن، وأنا أريد طفلًا لأحصل على إجازة..

- *وبعدين يا خير الدين؟*
- *دسَّتني فيها، فقضيتُ الوطر..*
- *أستغفرُ الله العظيم.*
- *بعد أسابيع قالوا إنها حُبلى وفضحوني في العنبر، وبعد شهور قالوا: ولدتْ طفلة.. بنتي..*
- *هوِّن عليك يا خير الدين، كل ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون.*

كأن كلامي دعاه إلى البكاء. فقد حجب وجهه بكفَّيه، وانهمرت دموعه فابتلَّت لحيته الخفيفة وصار كمن فرغ للتوِّ من وضوئه. أشفقتُ عليه عندما ارتجفت كتفاه وأخذه النشيجُ، حتى اكتسى وجهه باحمرار الخطيئة بدلًا من لونه الأبيض البريء. ليس في الأحياء أبرياء. أردتُ التخفيف عنه فقرأتُ على مسامعة الآية: ﴿ وتلقَّي آدمُ من ربه كلمات، فتاب عليه..﴾ لكنه أجهش وعلا من قلبه الأنينُ، فأخرجته مما يعانيه بأن قلتُ له ما فحواه إننا ليس فينا معصوم، وإنني عرفتُ أيامها هذه الحارسة التي اسمها سالي، وكدتُ أفعل معها مثلما فعل، لكن الله لطف بي.

- كيفْ يعني.. متى؟

- يوم احتفالهم بالكريسماس.

- يعني بعد موضوعي بشهر! إنتَ كنت أيامها في الحبس الانفرادي؟

- نعم، أيوه، أستغفرُ الله، هيَّ حاولت معاي مرة. وبعدين فجرتْ قُدَّامي مع حارس زميلها. أنا واللهِ ما لمستها. وبعدين اختفت..

- الفاجرة، كيفْ هاتربّى البنت الصغيرة على إيديها، كيف يا رب..؟

- وحِّد الله يا خير الدين، وحِّد الله.

- لا إله إلا الله، لكن بنتي بقي عندها شهور، وكل يوم تكبر أكتر.

- يا أخي، جايز كانوا بيكدبوا عليك أصلا.

- ياريت. لكن الكلاب جابوا صور للفاجرة وهيَّ عريانة وبطنها منفوخ، وجابوا صور تانية بعد الولادة والبنت في حضنها. البنت بيضا، وشبهي. وعرضوا الصور في العنبر، واليمني يومها زعق في العنبر: التونسي ربنا أكرمه ببنت باركوا له يا ناس، باركوا للزاني! وبقى من يومها يناديني، «الزاني».

- أستغفرُ الله العظيم. الله يهوِّن عليك يا خير، الله يهوِّن عليك.

كأن البكاء كان مريحًا له أكثر من كلامي، فلم أشأ الإكثار من المواساة وتركته يسحُّ دمع الندم والألم على مصير طفلة سوف تتولى «سالي» تربيتها.. في المساء استلقيتُ على سريري فتعلَّق بالسقف المعدني نظري، وفي خاطري دوامةٌ تدور بأسئلة من

مثل: ما يدرينا بأن صورة سالي وهي حُبلى، ووالدة، ليست صورًا قديمة؟ وهل تزوَّج بها حقًّا محب الحور، ليكون له ابنة منها؟ ولماذا نصدِّق الحراس وقد اعتادوا الكذب والخداع؟ ولماذا يعذب محب الحور ذاته باعتقاده أن هذه الرضيعة ابنته؟ وأين سيرى هذا المسكين سالي وابنتها، حتى إذا صحَّ هذا الكلام؟ ونويتُ أن أُخفِّف بقدر المستطاع عن «محب الحور» وأواسيه بما في وسعي في الأيام التالية، لكنه صار يتحرَّج من الحوار معي ويتفادى الجلوس بجواري. كأن شيئًا رقيقًا كان بيننا، فانكسر، ولن ينصلح. حتى حين خرجنا لصلاة الجمعة التالية، جلس في طرف الصف الأخير ولم يرفع وجهه نحوي أثناء وقوفي أمامهم لإلقاء الخطبة. بقية المعتقلين كانوا أيضًا مشغولي الخواطر بالخلاف حول أمور لا حصر لها: حُرمةِ مشاهدة التلفزيون، الحكمِ الشرعي وكراهة الذهاب لصالة الألعاب، وجوب الجهاد ضد الحراس، الخشيةِ من تسليم المعتقلين إلى بلدانهم الأصلية، رسائلِ أقاربهم التي يقال إنها على وشك الوصول. وما خفي في قلوبهم قد يكون أكثر من ذلك وأدق، ولذلك لم أستطع جذب اهتمامهم للخطبة التي جعلتها تدور حول معاني الآية الكريمة ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، وإن يمسَّكم قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ مع أنني كنتُ أتحدَّث إليهم من قلبي، لكنهم كانوا لا يسمعون.

عبرتْ علينا أسابيعُ ثقيلة، دهستنا فيها الأوقاتُ والأحوالُ، بكثيرٍ من الصمت والجفاء، ثم التهبتِ الأمورُ لسببٍ ما كان ليخطرِ على البال. على الأقل بالنسبة لي. لأن هناك شكوكًا قوية تدلُّ على

أن بعض المحبوسين، كانوا يعلمون مسبقًا بما سيقع يوم السبت الرهيب، الموافق لليوم العاشر من الشهر السادس من العام السادس بعد الألفين. ففي صباح هذا اليوم المريع استدعوني للتحقيق بعد طول نسيان، ولم يتشدَّدوا في حراستي مثلما كانوا قديمًا يفعلون. وفي غرفة لا بأس بها، وجدتُ المحقق ينتظرني بوجهٍ غير متجهِّمٍ وعلى مقربة منه يجلس الرجلُ الصامت، الذي رأيته من قبلُ مرتين.

استغربتُ العبارة التي استهلَّ بها المحقِّق كلامه معي: كيف حالك يا برسّ، أتمنى أن تكون بخير.. عجيبةٌ تلك البداية غير المعتادة، وكان الأعجب منها أن المحقِّق ابتسم وهو يُكمل كلامه معي متمنيًا أن يكون الحال صار أفضل في الفترة الأخيرة، وأكَّد أنه حريصٌ على أن يسمع مني أي شكاوى أو ملاحظات أود الإدلاء بها. توجَّستُ. قال وهو يبتسم، ما ترجمته: إن إخوتي في القاهرة حصلوا مؤخرًا على الجنسية المصرية بمقتضى قانون جديد يمنح أولاد الأم المصرية جنسيتها، وإنهم قدَّموا طلبًا باسمي للحصول على الجنسية، والسلطات هناك ليس لديها مانع مبدئيًّا من منحي الجنسية. توجَّستُ أكثر. أردف أن الإدارة وافقت على تعيين محامٍ لي، وعلى إرسال واستقبال الرسائل الشخصية، وبإمكاني الكتابة إذا أردت، إلى أمي أو أخي سويفن. هكذا ذكر اسم أخي، فنطق الرجلُ الصامتُ لأول مرةٍ مصحِّحًا له الاسم: سُفيان.

بقَدْر ما سمحت لي سلاسلي، مسحتُ بكفيَّ على وجهي وضغطتُ بهما على جانبي رأسي، مستعدًّا لمجاوبة المحقق أو بالأحرى مساءلته عن حال مهيرة، وعن أخبار أمي وإخوتي الصغار، وعن جدوى حصولي على الجنسية المصرية وأنا محبوسٌ هنا..

بدأتُ كلامي متمهِّلًا كيلا أُخطئ في القول فتسوء الأمورُ، لكنني لم أتمَّ عبارتي الأولى، ففي اللحظة التي قلتُ فيها: «اسمحْ لي قبل أي شيءٍ..» سمعنا جلبةً جاءت عاليةً من خارج الغرفة، ودخل جنديٌّ من فرقة مكافحة الشغب ذوي الملابس السوداء، همس بشيءٍ في أذن الرجل الصامت، فجعله ينتفضُ واقفًا وهو يقول: كيف؟ ثلاثة! ثم خرج مسرعًا من الغرفة بعدما قال للمحقق بلهجةٍ آمرة: توقَّف الآن.

تكهربتْ من حولي الأنحاءُ وتعالى الضجيجُ الآتي من خارج الغرفة، فاضطرب باطني و الحراسُ اضطرابًا عظيمًا. نهض المحقق من أمامي وتركني قائمًا أتلفَّت حائرًا، حتى وكزني من خلفي حارسٌ قال: «اجلسْ» فجلستُ ورأسي تدور فيه الظنونُ. توالتْ عليَّ الأسئلة واحتشدتْ في رأسي كغيوم ليل الشتاء: ماذا يجري حولنا بمعسكر الاعتقال؟ هل هاجمه الكوبيون، أم هو تمرُّد بين الجنود؟ كيف، وليس هناك أصوات طلقات؟ وما هذه الصرخات الزاعقة بالكلمات المبهمة: «تحرَّكْ .. أسرعوا كلكم .. يموتون.. نعم معسكر ألفا، العنبر رقم واحد» ماذا وقع عند الزنازين؟ ولماذا يُشهر هؤلاء الحراس في وجهي أسلحتهم حتى لا أتحرك من مكاني؟ لن أتحرَّك من موضعي قبل أن أعرف ما يدور بالخارج. عرفتُ طرفًا مما جرى بعد ساعة قلقٍ في غرفة التحقيق، وليتني ما عرفت، فعندما أعادوني للعنبر وجدت عند بابه الضابط «مايك» تنتفض أطرافه ويتعرَّق وجهه، وهو محاطٌ بضباطٍ وجنودٍ لم أرَ مثل كثرتهم. كانوا يؤطِّرون العنبر من خارجه ويحتشدون عند بابه، وهم في حالٍ يدلُّ على أن فاجعةً وقعتْ. انتظر حارساي الأمر بإدخالي

إلى العنبر، فقال لهم أحد الضباط: «ليس الآن»، لكن الضابط مايك صاح: لا، أوكّي، أدخلوه الآن واخرجوا بسرعة، هيا تحرَّكوا..

الغرفُ التي يسكنها الحراس بمدخل العنبر مزدحمةٌ بهم، وهائجةٌ، ومن الممر الواصل بين الزنازين تأتي الزعقاتُ ويعلو التصايحُ بكلماتٍ متداخلة: «يا رب، العتيبي، لا إله إلا الله، الثلاثة، ارتحت الحين يا بو صعب، ولا تقتلوا أنفسكم ولا تقتلوا أنفسكم، الله أكبر يا كفرة، ماتوا فعلًا..»؛ كأن القوم قامت قيامتهم فهم في كربٍ عظيم.

رأيت المعتقلين خلف قضبان أبوابهم وقد صاروا كخرافٍ أفزعتها الذئاب، ولما رأوني شخصتْ عيونهم نحوي وهم في الهمِّ العميم. الحراسُ أخذوا سلاسلي من خارج باب الزنزانة، ودفعوني إلى داخلها وهرولوا مسرعين بالخروج، لولا صحت بأعلى صوتي: باب زنزانتي مفتوح يا حراس! فعاد أحدهم وأغلق عليَّ الباب بأصابع ترتعشُ أطرافُها.

«ماذا جرى يا عبد الله؟» سألت الجار الذي عن يميني، فأجابني بلسانٍ يضطرب بأن الأخوة الثلاثة المتهامسين انتحروا. ستروا أبوابهم بالملاءات، وعلَّقوا بأسقف الزنازين أربطةً شنقوا بها أنفسهم، فلم ينقذهم من الموت أحدٌ. أستغفر الله العظيم. ولماذا فعلوا هذا؟ لأن «مانع العتيبي» عرف أن الإفراج عنه بات وشيكًا، لكن الأمريكيين سوف يسلِّمونه إلى سُلطات الأمن في بلده، فارتاع من المصير الذي ينتظره وأفزع صاحبيه «الزهراني» و«السلمي» فتقدَّم ثلاثتهم بطلبٍ إلى إدارة المعتقل يرفضون فيه

العـودة لبلادهم، ويطلبون إطلاق سـراحهم عنـد الموضع الذي تمَّ فيـه القبض عليهـم ببلاد الأفغان. لكن طلباتهـم رُفضت أول أمس، فأخذ «أبو صعب» سـامحه الله يخوِّفهم مـن المصير المفجع الذي ينتظرهم بعد التسـليم، ويدعوهم إلى التضحيـة بحياتهم لإنقاذ بقية إخوانهـم مـن هذا المصير. وراح يحدثهم سـرًّا عن أنـواع التعذيب الـذي ينتظرهم فـي معتقلات بلادهـم الرهيبة، التي لـم يخرج منها أحـدٌ حيًّا. فـازداد رعبهم وبلـغ المدى، فانتحـروا. تلك خلاصة ما سـمعته يأتي متناثرًا من سـكان الزنازين المفزوعين، وما أخبرني به «المكي» بلسـانٍ يرتجـف وألفاظٍ تضطربُ، وبعدمـا زلزلني بالذي قاله سـألني بنبرة حائرة: مسـكين، *قل لي يا بو بلال، تراهم خسـروا دنياهم وآخرتهم؟*

- *مـا بعرف يـا أخي، ما بعرف. لله الأمر من قبـل ومن بعد، الله يرحم الجميع.*
- *تَـرَى فيه إخوان غيرهم ينوون أن ينتحروا؟*
- *يا ستار، استر علينا، وارحمنا برحمتك.*

ن ن ن

قدماؤنـا قالـوا إن الأحزان تبدأ فادحةً، ثـم وتتصاغر رويدًا حتى تختفي في نهاية المطاف، وهذا قولٌ فيه عزاءٌ ومواسـاة للمحزونين لكـن فيه أيضًا مخادعة. الأحزانُ لا تبقى فينا منفردةً وإنما يسـتدعي بعضُهـا بعضَها، فتتكالبُ علينا وتشـتبكُ شـجونها وتمـدُّ الجذور، وهـذا ما جرى مـن بعد الفاجعـة المروِّعـة وانتحار الإخـوة الثلاثة في سـاعةٍ واحدة. لعلهم ارتاحوا من آلام دنيانا، لكن شـقاء الآخرة

لا حـدود له وليس لـه انتهاء. فهـل انتهت بالمـوت أحزانهم، وهل تصاغرت أحزاننا بعد هلاكهم؟ لا والله. فمن يومها تتفاقم الأوقات وتتوالى علينا المؤلمات حتى صار الجميعُ هنا واجمين، لا يُطيقون الوقـتَ البطيء ويتحاشـون الكلام فيمـا بينهم، بينمـا تتعاقب علينا لجانُ التحقيق، والاستدعاءات التي لا طائل من ورائها. استدعوني مرتين فقط، واسـتدعوا كثيرين مراتٍ عديدة. ذهبتُ إلى التحقيقيْنِ حائـرًا، هائـمَ الذهـن والخطو كأنني شـبحٌ باهـت لا روح فيه. وفي المرتيـن جرى الأمر علـى المنوال ذاته، أسئلة وإجابـات متكرِّرةٌ، مملة: هل أنت السـجين رقم ستة سبعة ستة؟ نعم. هل تقع زنزانتك بجـوار زنازين المنتحرين الثلاثة؟ لا، تفصـل بيننا زنزانة. هل كنتَ تعرفهم معرفة جيدة؟ لا. لماذا انتحروا في رأيك؟ لا أعرف السبب. هـل تتوقـع أن يحاول آخرون الانتحار؟ لا أعـرف ولا أتمنى. كيف انتحـروا والانتحـار محـرَّمٌ فـي الإسـلام؟ لا أعرف. هـل تفكِّر في الانتحار؟ لا أوكِّي، انصراف.

وزَّعـوا علينـا أغطية عينٍ سـوداء، تحجب الضـوء، فصرتُ أنام كثيـرًا وأجـد كثيرًا مـن الأحلام المؤلمـة في انتظـاري. لكنها أهون مـن البقـاء محدِّقًا في الفـراغ، أو متطلعًا للوجـوه الواجمة التي تمر مـن أمام بابي. وما عاد جـاراي يُحدِّثاني إلا نـادرًا فالمكيُّ يصـلني صـوت بكائه دومًا، ويُصليني، ومحبُّ الحـور أخذه الذهولُ الدائم فصار يعيش معزولًا، وأنا بينهما محصورٌ بالصمت والوجد وهجوم الذكريات وليس بداخلي إلا الميل إلى النوم. تلك أحوالي المحدقةُ بـي، فكيف يا ترى حالُ الأحبة؟ السـنوات تمضـي، ومهيرة وحيدة وأمـي بعيدة، وإخوتي تائهون في زحـام القاهرة. إن صحَّ ما قاله لي

المحقِّق. ما معنى بقائي حيًّا بعد احتدام هذه الدواهي الطاحنات؟ حتى القرآن ما عادت آياته تعزِّيني، مثلما كانت تفعل في السابق. أنا المعلَّق في فراغي اللانهائي بلا سابق أو لاحق، بلا ذكرى مؤنسة أو آمالٍ تصير معها الحياة محتملة.

لم نخرج في الأسابيع التالية كي نستروح من حبسنا، بالجلوس تحت الشمس، أو بالذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية. وكان أولُ خروج لنا؛ لأداء الصلاة الجامعة يوم الجمعة الموافق لبداية الشهر التاسع من عام ٢٠٠٦ الكئيب. وجدتني أقفُ أمام المعتقلين لإلقاء خطبة الصلاة وليس عندي ما أقول، فالتقطتُ أول آياتٍ مرت بخاطري وتكلَّمت عنها دقائق مرَّت عليَّ طوالًا كأنها لا تريد أن تنقضي، وبينما قلبي غائبٌ والجالسون أمامي منكسو الرؤوس لا يرفعون نحوي الأنظار. ختمتُ الخطبة بألفاظٍ محفوظةٍ وأقمت الصلاة وخفَّفتُ فيها قدر المستطاع، وكذلك فعلتُ في الأسبوعين التاليين. بعد الصلاة أعادونا إلى الزنازين، فنمتُ كأن جبلًا ينام على أنحائي المتكسِّرة، ورأيتني في المنام واقفًا على شاطئ صخريٍّ أمامه بحرٌ محيط ومن حولي أحجارٌ كِبارٌ، ناتئةٌ من رمالٍ يتناثر على صفحتها عشبٌ لم أرَ مثله من قبل. ولن أرى مستقبلًا. جلستُ منهكًا وظهري إلى صخرة عظيمة، فوجدتُ الأرض تتفتق عن شجيرات غريبة الغصون والوريقات، سيقانها مدببة الأطراف. الشجيراتُ الدفينةُ راحتْ تشق الرمال تباعًا، وتعلو بجواري فترُعبني. رأيتُ البحر خلف ظهري ومن أمامي تلالٌ بعيدةٌ لها هيئةُ الأزمنة السحيقة. وقتما لم يكن على الأرض بشر. تعالتْ من حولي الأشجار المفزعة ففزعتُ إلى ناحية التلال، فكانت «مهيرة» هناك

واقفةً تنظر إلى البحر البعيد، ولا تلتفت إليَّ من فرط الذهول. نظرتُ إلى حيث تنظر فرأيتُ البحر ينحسر عن شـاطئه بقوةٍ، وبقوةٍ تتشقق أرضُ قَاعِـه قطعًا، ما لبث المـاءُ أن عاد إليها بموجةٍ عاتيةٍ ابتلعتْ ما كان راسخًا على الشاطئ ومتماسكًا. هدير الموج العاتي الذي يبتلع اقترب مني وكاد يدهسـني ويجرفنـي، فصرخت بكل ما فيَّ من فزعٍ وانتفضتُ من نومي.

متى تنقضي الأحزان؟

صَلْصلةُ الجرَس

الخمودُ صار صفةً لأوقاتنا، والتجافي. كلنا في أفلاكنا الباطنة نهيمُ، وفي أحزاننا. فالجميعُ هنا ما عاد لديهم توقٌ لأيِّ شيء، حتى لو كان من ضرورات الحياة ولوازم احتمال الحال. الطعامُ يرفضه كثيرون منا، وأنا منهم. والكتبُ التي يأتون بها إلينا لا نلتقط منها شيئًا ولا نستعير، وأذاني في المواقيت لا تعقبه العباراتُ التي كنتُ أسمعها سابقًا فيطيب قلبي لوقعها الرنَّان. سبحان مغير الأحوال، وهو كل يومٍ في شأنٍ جديد.

عند انتهائنا من صلاة يوم الجمعة الموافقة للخامس عشر من الشهر التاسع المسمى سبتمبر، وكان يومًا وفير الحرارة لا يتحرَّك هواؤه، تزحَّف نحوي «عبد الله المكي» وسألني بصوتٍ ضعيف عن الشيخ نقطة الأكبري! استغربتُ سؤاله فسألته من فوري: وكِيف عرفته؟ فقال إنه يسمعني في جوف الليل أهذي باسمه، وإنني كثيرًا أناديه أثناء نومي. وأعاد عليَّ السؤال، فقلت: هو شيخي.. صار الحراسُ يترفَّقون في إعادتنا إلى الزنازين بعد الصلاة، ربما ليتركوا

لنا من فسحة الوقت ما يسمح لنا بالأحاديث الهامسة، لعلها تخفِّف عنـا. أو لغـرضٍ آخـر في نفوسـهم. عاد عبـد الله المكي لسـؤالي، ونحن نصطف تحت الشمس اللاهبة استعدادًا لدخول العنبر:

- *وإيش يعني شيخك؟*

- *مالك يا عبد الله، شيخي يا أخي يعني شيخي، وخلاص.*

- *يعني ليه علاقة بالجن!*

كان المـدى قد اتسـع أمام «المكـي» لكنه لا يتقـدم، فدفعته من كتفه برفق ليمضي ولا يعطل الذين من خلفنا، فمضى أمامي مترنِّحًا حتـى دخـل زنزانته. اقتربـتُ من ملتقى مدخـل الزنزانتيْـن وناديت عليه فاقترب، واستفهمتُ عما قاله فأجابني بأنه كلما سمعني أنطق اسم الشيخ، أو أناديه في جوف الليل، رأى الجنَّ تتسع عيناه وتشتدُّ احمـرارًا.. غاظني كلامه فقلتُ له مستخفًّا بـه: الله يرحم والديك، كيف ترى الجن؟

قـال «المكي» مـا فحواه إن الزنزانـة المقابلة لنا؛ تلـك التي كان يسـكنها فـي السـابق الولدُ البوسـنوي، وصـارت من بعـده خاوية، يعيـش فيهـا الآن ماردٌ من الجن يغطي جسـمه شـعرٌ كثيف، وهو لا يظهـر في النهـار لكنه إذا جنَّ الليـل وخفتتْ هنا الأضـواءُ، قام هذا الجنُّ المخيف وأمسـك كالمحبوسـين بقضبان باب الزنزانة وأخذ يتلفَّت، وحين يجد المكي ينظر نحوه يهتاج ويمدُّ ذراعيه عبر قضبان الباب ليصل إليه. هو لم يقدر على الوصول إليه بعد، لكن «المكي» يخشـى أن يطـول ذراع الجـن مسـتقبلًا، فيطوله! وأضـاف بصوتٍ مرتجفٍ أنني كلما صحتُ مناديًا الشـيخ، جُـنَّ الجنُّ واتقدت عيناه

المرعبتان، ويضطربُ بشدةٍ فيبسط ذراعاه ليمسك بأي واحدٍ منا. أجفلني كلامه فقطعته مستهزئًا به: يا شيخ عبد الله بطَّل تخريف، جنّ إيه بس، مفيش جنّ ولا حاجة.

جاءني صوت «عبد الله المكي» عاليًا وحانقةً نبرتُه، وقائلًا بلفظٍ فصيحٍ كأنه يزعق من فوق منبر: تنكر وجود الجن، وهو مذكورٌ في القرآن.. فعرفت أن الكلام معه ما عاد يجدي، وقد يصير سببًا في خلاف. لحظتها مَرَّ حارسٌ بالطاولة ذات العجلات، وعليها كتب ومجلات من تلك التي يعرضونها علينا كل فترة، فاستوقفته لأنصرف عن «المكي» وكلامه السخيف. طلبت من الحارس أن يريني ما وصلهم مؤخَّرًا من كتب، فأراني أكثر من عشرة. وجدتها كُتيبات تفسير، ومطبوعات أزهرية، وكتابًا عن لعبة الشطرنج! فرددتها إليه زاهدًا فيها، وبينما يعيدها إلى الطاولة لمحتُ كعب كتابٍ عليه اسم مؤلِّف كتاب «أنفاس الأماكن» فطلبته منه، ووقَّعت له على استمارة الاستعارة.

هذا الكتابُ أفضل من سابقه شكلًا وإخراجًا، وغلافه اللامع مكتوب بأسفله أنه مطبوعٌ في بيروت، وبأعلاه اسم المؤلف والعنوان الخادع «العبد الصالح» الذي جعلني أظن أنه يتحدث عن الصفات الواجبة في المسلم الصالح، المطيع لربه. لا بأس، غدًا أنظر لأرى ما فيه، المهم أنني خلصتُ من تخريف «المكي» ثم تشاغلتُ عنه وعن حكايته العجيبة بالانهماك في الصلوات المستجلبة للرحمة، والتسبيح بعبارةٍ واحدةٍ راح يلهج بها لساني حتى انزاح النهار: «الطُفْ بنا يا لطيف».

في الصباح الباكر أخرجونا إلى صالة التريض ورفض «محب الحور» الخروج، ورفض التوقيع للحراس على استمارةٍ تفيد رفضه الخروج، فجاءوا بساكن الزنزانة التي تليه. هو شابٌّ طيب اسمه «عبيد الله الحضرمي» أصله من بلدة «المكلا» بحضرموت. قيل لي عنه سابقًا إنه لم يجاهد طويلًا، وإن بينه وبين «أبو صعب» نفورًا غير مفهوم، لكنهما لا يجاهران بالبغضاء التي بينهما. عبد الله المكي لم يلعب كعادته بالكرة الخفيفة، وانزوى في ركن الصالة وحده، وراح يختلس النظر إلينا وإلى الحراس بعين مشدوهٍ حائر. «الطُفْ بنا يا لطيف». جاورني الشاب الحضرمي ونحن نحملق في شاشة التلفزيون المعلَّقة على الجدار مثلما ينظر المرضى إلى السماوات البعيدة، وباح لي بأن صبره صار مرير الاحتمال، ولم يعد لديه أمل في استمرار الحبس أو إطلاق السراح، وهو الآن يريد فقط أن يرتاح من هذه الحياة. «الطُفْ بنا يا لطيف». سبَّحتُ بذلك في سري، بعدما قلت له باقتضاب: إن صبرتم أجرتم وأمر الله نافذ، وإن ما صبرتم كفرتم وأمر الله نافذ.

عندما أخرجونا يوم الخميس إلى الصالة، كان «المكي» يتحرك أمامي كمن يجرُّ تلًّا ثقيلًا. ورأيته قد تقوَّست كتفاه وازداد على نُحوله نحولًا، فسألته عما به، لكنه لم يرد عليَّ. حزَّ ذلك في نفسي. جلسنا نُتابعُ تتابع الألوان والصور في شاشة التلفزيون المعلَّقة ونحن صامتون، حتى قال لي مجاوري «الحضرمي» هامسًا: إن عبد الله المكي اشتكى مني لأبي صعب، وادَّعى أنني أُنكر وجود الجن! وقد أفتى أبو صعب بأن هذا كفرٌ صريح ولا بد لمرتكبه من الاستتابة أو القتل، ولا يصحّ بعد الآن أن يؤمَّ الصلاة ويرفع الأذان

شـخصٌ مثلي مشـكوكٌ في عقيدتـه. حَزَّ ذلك في نفسـي وأحزنني، فقلـتُ للحضرمي: هذا واللهِ افتراء! فردَّ علـيَّ بأنني يمكنني الدفاع عـن عقيدتـي ودفع التهمة بعيدًا عني، ولكن ما عاد مسـموحًا لي أن أرفـع الأذان أو أتقـدَّم لإمامة صلاة الجمعة.

- *يعني إيه، هوَّه ده رأي الإخوة في العنبر؟*

- *إنتَ عارف، معظمهم يخشون أبا صعب، ويوافقونه.*

- *طيـب يا حضرمي، خلاص. هُمَّ أحرار، والله المستعان على ما يصفون.*

لمحـتُ «المكـي» ينظر إليَّ من بعيد بعينٍ جاحظةٍ تتشـفَّى، فلم أشـأ إظهـار الجـزع العاصف بـي والاضطـراب، وقمتُ مـن جوار «الحضرمـي» والذيـن حولنا، وانزويـت جـانبًا ورحتُ أُسـبِّح مارًّا بإصبعي على حلقات سلاسـلي. «الطُفْ بنـا يا لطيف». عند عودتنا إلـى الزنازين سـمعتُ صخبًـا يدور بين المحبوسـين وحيـن دخلنا عليهم سـكتوا، لكنني أدركتُ ما كان يدور أثناء غيابنا عندما نظرتُ إلـى «محب الحـور» وأنا أدخـل إلى قفصي، فقال لي وهو يمسـك بقضبان بابه: لا ترفع أذان العصر، ولـن تصـلِّي بنا الجماعة غُدوة.

بعـد سـاعةٍ رفـع الأذان صـوتٌ أجـشُّ جـاء مـن آخـر الممـر متحشـرجًا، فصلَّيتُ منفردًا، ورغمًا عني فاض دمعي أثناء السجود. نويـتُ ألا أخرج معهم في اليوم التالي لصـلاة الجمعة، عملًا بقوله تعالـى: ﴿وأعرِضْ عـن الجاهلين﴾ وإيثارًا للسـلامة. وبعد انتهائي من صلاتي لم أسـتطع النهوض عـن الأرض؛ لضعفِ مَلَكَ عظامي فجأةً، فبقيتُ جالسًـا حتى لمحت طرف الكتاب المسـتعار يطل من

تحت مخدتي، فأخذته على هون لأشغل نفسي وأتشاغل به عما أعانيه، مع أن ذهني شاردٌ تمامًا. استغرقتُ في القراءة شيئًا فشيئًا حتى نسيت ما يحيط بي من مزعجاتٍ، وأسلمتُ أمري إلى الله، وعيني إلى صفحات الكتاب.

هذا المؤلِّف لا تنتهي عجائبه، فهو يبدأ كتابه بورقة خالية بعد صفحة العنوان، مكتوب في وسطها الآية القرآنية الواردة في سورة المدثر ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ وبعدها يقول في المقدمة، كأنه يخاطبني، إنه لا يقصد بالعبد الصالح عموم اللفظ وإنما خصوص التسمية! ومراده من هذا الكتاب هو استكشاف حقائق وأسرار «العبد الصالح» الذي عنده العلم اللدني والرحمة الإلهية، وهو الذي ورد ذكره في سورة الكهف التي تحكي طرفًا من لقائه مع النبي موسى عليه السلام الذي طلب من الله رؤيته وأراد أن يصحبه، لكنه لم يستطع الصبر على مرافقة «العبد الصالح» ورؤية الأفعال الثلاثة الغرائبية التي قام بها: قَتْلِ الغلام، خَرْقِ السفينة، إقامةِ الجدار. ويؤكِّد المؤلف أن هذا العبد الصالح الذي عُرف عند العامة باسم «الخضر»؛ لأنه إذا جلس بأرض جرداء أو مَرَّ بها اخضرَّت ببركته، هو ليس من الأنبياء ولا الملائكة. وإنما هو واحدٌ من جند الله في الأرض الذين سخَّرهم لتحقيق مشيئته، فهو عبدٌ ربانيٌّ يقول للشيء كُن فيكون. لكنه ينسب إلى نفسه الفعل الذي ظاهره العذاب وباطنه الصواب، كقتل الغلام وخرق السفينة، بقوله: ﴿فأردنا﴾ وأما ما كان ظاهره وباطنه الخير مثل إقامة الجدار لحفظ المال المخبوء للأيتام، فهو ينسبه لله وحده بقوله: ﴿فأراد ربك أن

يستخرجا كنزهما﴾ ثم ينفي عن نفسه الفضل والفعل بالكلية، بأن يقول كما ورد بالقرآن: ﴿وما فعلته عن أمري﴾.

التهمتُ الكتاب بعينيَّ حتى آخر الفصل الأخير؛ حيث يعرض المؤلِّف لخلاف العلماء في خلود العبد الصالح أو فنائه مثل بقية المخلوقات، فمن قائلٍ ببقائه السرمدي من زمن موسى النبي إلى زمن نبي الإسلام وزماننا هذا، وقائلٍ بأنه غير خالدٍ بحكم الآية القرآنية ﴿كل مَنْ عليها فان﴾ وبحكم حديث النبي عن صحابته يوم وقعة بدر: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض! ثم يستعرض المؤلف وقائع لقاء الأولياء بالعبد الصالح في أزمنة متعددَة، واستلهامات شعراء الصوفية لقصته القرآنية ونَظْم مفرداتها في رموز عميقة، كما في قول الشيخ عمر بن الفارض في قصيدة له: قتلتُ غلام النفس بين إقامتي الجدار لأحكامي وخرق سفينتي. ثم يختتم المؤلف الفصل الأخير من كتابه بعبارةٍ لم أفهم معناها، فيها يقول: والذي تميلُ نفسي إلى الاعتقاد به، هو أن «العبد الصالح» واحد من هؤلاء «الأفراد» الخارجين عن نظر «القطب» في كل زمان.

ن ن ن

عندما خرجنا لصلاة الجمعة، وقد تراجعتُ عما نويته من الانقطاع عن صلاة الجماعة؛ كيلا تستقوي عليَّ نفسي الأمارة بالسوء. جلستُ مُطأطئ الرأس ساكنًا عند طرف الصفِّ الثالث الأخير وتقدَّم «أبو صعب» ليؤمّ الصلاة ويلقي علينا خطبة جعلها عن حقيقة الجن الثابتة في (سورة الجن) وغيرها من آي القرآن، ثم ختمها زاعقًا بقوله: وفي شريعة الإسلام يجب استتابة الذي أنكر

معلومًا من الدين أو ثابتًا في القرآن، وإلا حلَّ دمه، فأعلنْ أمامنا الآن يا «أبو بلال» توبتك النصوح من إنكار وجود الجن، واستغفر ربك من ذلك سرًّا وجهرًا.. نظر الجميع إليَّ، حتى الحراس، فلم أجد بُدًّا من القول بصوت مسموع: أستغفر الله العظيم. قال أبو صعب مستقويًا: قل ذلك ثلاث مرات، بصوت أعلى لنسمعك! فأعدتُ الاستغفار ثلاثًا بنبرة عالية متهدِّجة، فأقام الصلاة وهو يتأفَّف.

لم أنم ليلتي، جلست على الأرض بموضعي بعد صلاة العشاء وساءلتُ نفسي: أتراني جَبُنْتُ لما زعق فيَّ أبو صعب، أم آثرتُ السلامة؟ هو دعاني للاستغفار، فنطقتُ بما كنتُ دومًا أردِّده في سرِّي ويلهج به قلبي. لكن كلامه لي لم يكن دعوة، بل بيان إدانة، ولو لم أستجب لأمره لي بالاستغفار لصَيَّرَ المعتقلون حياتي جحيمًا. وأنا ما عدتُ أحتمل مزيدًا من العَنَتِ والظلم والجهالة. وعلى كل حالٍ، لقد مَرَّ الأمرُ بأقل الخسائر وكان من الممكن أن يتفاقم، فالحمد لله الذي لطف بنا ويسَّر سواء السبيل.. استتابة! ما كنتُ أظنُّ يومًا أن يفضحني أحدٌ على الملأ بهذا الشكل، ولا توقعتُ أن يحاسبني على إيماني غير خالقي. هل أومن بالجن؟ لا أعرف. أنا أقبلُ طبعًا كل ما جاء في القرآن، ولست ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه. حاشا لله. لكن حكاية «الجن» هذه محض تخيُّلات من عقل مريض، وللمكي أصلًا عقلٌ لا يعتدُّ به. والذين يخوضون في أحاديث الجن والعفاريت والأشباح، هم الجهَّال الذين لا يعتدّ بعقولهم! وقد قلت يومًا لأبي إنني لم أرَ في حياتي أيَّ جنٍّ، فقال إنه أيضًا لم يَرَ شيئًا من ذلك. لكنني لابد أن أقبل ما جاء في القرآن، والقرآن لم يقل إن الجن يظهر للبشر أو

يختلط بهم، اللهم إلا حين سخَّره الله لخدمة النبي سليمان، وعندما مات سليمان لم يدرك الجنّ ذلك! والآية تقول: ﴿فلما قضينا عليه الموت، ما دلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خَرَّ تبيَّنت الجن، أن لو كانوا يعلمون الغيب، ما لبثوا في العذاب المهين﴾ صدق الله العظيم. فإن كان هؤلاء الجن غير قادرين على معرفة الميت من الحي، حتى وهم يرون الجسم لا يتحرك خلال الأيام الكثيرة التي نخر فيها السوس عصا سليمان، فخرَّ ساقطًا أمامهم! فكيف لهم بالتعامل مع البشر، وإخافتهم بهذه التخاريف التي يزعمها المكي، أو بغيرها.. هذا واللهِ شيءٌ عجيب.

أمضيتُ الأسبوع التالي مُنكسرَ الخاطر كَسيفَ الحال وكان أكثر ما يحزُّ في نفسي ويؤلمني، أن الجميع صاروا لا ينظرون نحوي ولا يتكلمون معي، اللهم إلا «الحضرمي» الذي ألقى عليَّ السلام مرتين وهو يمرُّ بي. وقد تكدَّرت أوقاتي كلها، نهارًا وليلًا، إلا في ليلة الأربعاء التي رأيتُ فيها الشيخ نقطة ينظر إليَّ في المنام بحنوٍ بالغ، ويقول لي واحدةً من عباراته التي لا تُفصح من فورها عن معانيها: صلصلةُ الجرس عينُ حمحمة الفرس. نظرت إليه مستفهمًا، فأضاف: بالحرس يطيب المنام، وبالجرس ينطلق الفرس إلى الأمام.. فلما جاءت الجمعة التالية، الموافقة لليوم الثاني والعشرين من هذا الشهر العصيب، تقدَّم «أبو صعب» للإمامة وألقى خطبةً عن فضل شهر رمضان الذي قد يبدأ حسبما قال يومَ غدٍ «السبت» فقاطعة الحضرميُّ فجأةً: شهر رمضان يبدأ بعد غد، يوم الأحد، بحسب الحساب الفلكي.

كأن «أبـو صعـب» أصابـه الجنون، أو مـلأه الجنُّ الـذي توهَّمه عبـد الله «المكي» فزعق بصوتٍ مثل صرير الريح الغاضبة، مواجهًا الحضرمي الجالس أمامه: الحساب الفلكي، الحساب الفلكي. هذه والله بـدعةٌ وضلالة، لا يقول بها إلا مارق أو فاسق من أمثالك، وقد صدق حكم الله فيكم حين قال: ﴿إن الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا﴾.. فاشتطَّ الحضرميُّ وصاح في «أبو صعب» قائلًا بحنقٍ: الحضارمة ما هم أعراب يا جاهل، والله ما تجوز الصلاة خلفك أبدًا.

انتفـض الحضرمـيُّ واقفًا يريـد العـودة إلى زنزانتـه، فاضطرب الحراسُ وازداد اضطرابهم حين وكز أحدُ الجالسين رُكبةَ الحضرمي بكوعه، فأسـقطه فوق المصلّين.. وكأن قيامـة القوم قد أزفت، ففي ثوانٍ معدودات اندلع العراك وتطايـرت الشـتائم المقذعة، فالتهبتْ أجـواءُ اليوم الحارّ. لم أستطع السـكوت، وصحتُ فـي المحيطين مذكّرًا إياهم بقوله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشـلوا وتذهب ريحكم﴾ فضربني الجالسُ عن يساري «أبو الهيجاء العراقي» على فمي بلطمةٍ من كفَّيه أدمت أسـناني، وصرخ فيَّ: اسـكتْ أنت يـا كافر، خدعتنا فيك! فنهض إليه «سواح الدنقلي» ونطحه بقوةٍ رأسًا برأس.

اهتاج الجميعُ فاستدعى الحراسُ مزيدًا منهم، منهم جبابرة فضّ الشغب الذين انهالوا علينا بالعصيِّ الثقال فأوقعوا الواقفين ودهسوا القاعديـن، ثـم اقتادونـا مـن سلاسـلنا بعنـفٍ فأدخلـوا كُلَّ واحـدٍ منـا إلـى زنزانته، وخرجـوا عنا متجهِّميـن وتركونـا نصطلي بلهيب السـباب القاصف والشـتائم المتطايرة بين الزنازين عبر الممر، وقد انقلـب الحالُ بالجميع فصـار مريعًا مزريًا. سـبحان الله. كيف كان هـؤلاء المعتقلون يعتقلون في قلوبهـم كل هذا المقت ويخفونه في

نفوسـهم، وما تلك الكراهية التـي انفجرت فجأة واهتاجت مع هذه الشتائم المقذعة وقبيح الكلمات التي لا يصح التلفظ بها.

اصطخب الصحبُ الذيـن كانـوا مـن قبـل إخوانًا، واسـتطال صخبهـم حتـى آخـر النهار، ثـم أخمدهم دخـولُ المسـاء وخفوتُ الأضـواء. ظل جـاري «محب الحـور» يئن طيلة ليلتـه بنحيبٍ مريرٍ إلى أن رآه الحارس الصباحي الذي جاء بالإفطار، فاستدعى له من حملـوه على نقالة الإسـعاف. وكان ذلك من رحمة اللـه ولطفه به، إذ عافاه من رؤية ما جرى سـاعة العصر إذ اشـتجرت بين المعتقلين الشـتائمُ مجـدَّدًا، وتعالت، ثم تبادلـت الزنازين القصـف فيما بينها بالقذارات الشخصية التي يسـمونها «النابلم» فما عاد العنبر تُحتمل رائحتـه.. انزويـتُ فـي آخـر زنزانتـي وغطَّيـتُ أنفي بطـرف ملاءة السـرير، وتكوَّمت في جلسـتي على الأرض كأنني أحتمي بالفراغ. لكـن الفـراغ لا يحمـي، فبينما كنـتُ قابعًا في موضعـي رأيت ذراع «المكـي» تمتـد ممسـكةً بأطـراف أصابعها كيـس «النابلـم» الذي قـذف به زنزانتي، فلطَّخ طرف سـريري القريب من الباب. صرختُ فيه بغضب المهووسـين: ليه كده، ليه، حرام عليك! واسـتفقتُ مما جـرى فـأردتُ القيام لإزالة مـا قذفني به؛ حتى لا أختنق من شـناعة الرائحـة التـي تعوقني عـن التنفـس، لكنني ما كـدت أقـف مترنِّحًا ومقاومًـا رغبتـي في التقيؤ، حتـى رأيت يده البائسـة تمتد من جديد عبر الفاصل، وتقذفني بكيسٍ ثانٍ انفجر ما فيه بوسط سريري وتناثر على أرض زنزانتي وحوائطها، فلم أستطع مقاومة القيء.

لما أفقتُ من الدوار المرير، ظننتُ أن الضنبور فيه ماءٌ أغسـلُ به القـاذورات التي أحاطت بـي من الجوانب كلها، لكنـه لم يأتِ بأيِّ

قطـرةٍ، فأخذت أخبطـه بكفِّي عسـاه يأتيني ببعض المـاء. لا طائل. سـمعت صوت المترجم الـذي كان يأتي مع الضابـط «مايك» وهو يصيـح من عند الباب، بالعربية: إدارة المعتقل قررت قطع الماء عن الزنازيـن، ولن يأتينا منهم أي طعام حتى ظهـر الغد، ولن يقوم أحد بتنظيف العنبر من هذه الأوسـاخ لمدة ثلاثة أيام، وإذا استمر العراك فسوف توقَّع عقوبات أخرى.

ن ن ن

علَّقتُ على بابي ملاءة السـرير وسددت عليها بمخدتي والدثار عسـاني أحجب الرائحة الشـنيعة، لكن ذلك كان بلا فائدة. حاولتُ النوم على معدن سـريري العاري من الأغطية فما استطعت، وبقيتُ أتقلَّب على سـنابك البؤس حتى اقترب الصبح. لم يرتفع في العنبر أذانٌ ولا اسـتطاع أحدٌ أن يُصلي؛ لانعـدام الطهارة اللازمة للوقوف بين يدي الله. اللهُ يا زمن. ثقل عليَّ وقتُ الضحى وقوَّسني على ذاتي حتـى صرتُ كالعرجون العتيق الهـش، وعلى تلك الهيئة تخاطفتني عـوادي النعـاس المتقطـع، المتفـزِّع تحـت وطـأة الدَّقـات الثِّقـال الواقعة فوق رأسي، كأنها صلصلة جرسٍ هائلٍ يمحق القُوي ويفكُّ الترائـب. أيقظنـي قبيل الظهيـرة حارسٌ جاء مكمَّـمَ الأنف لتوزيـع الطعام، وبعصا طويلة نخس ستائري فأسقطها إلى الأرض كومةً من عفـن، وألقـى عليَّ لفافةَ طعام لن يؤكل وزجاجـة ماءٍ هممتُ إليها. غسـلتُ وجهي ببعض الماء وشـربت الباقي آملًا أن يزول الاحتقان عن حلقي.. يا رب، هل سـينتهي يومًا ما أعانيه؟ وهل نسـاك هؤلاء المحدقون بي من كل النواحي، فأنسيتهم آدميتهم؟

الرائحة تخثَّرتْ أسبابها فصارت أشنع مع دخول الليل، فأخذني إغماءٌ لم أستفق منه إلا عندما جاء في الصباح ثلاثةُ حراسٍ متأفِّفون، أنوفهم مكمَّمةٌ بعوازل بيضاء سميكة. قالوا إنني مُستدعى للتحقيق، ففرحتُ. خرجوا بي بسرعة من الزنزانة إلى محل استحمامٍ فاغتسلتُ بماءٍ دافق، دافئ، وألبسوني بدلةً نظيفة ثم أخذوني إلى المحققين وفي رأسي يدور سؤالٌ واحد: كيف سأرجع بعد التحقيق إلى العنبر المريع؟ سنرى. المهم الآن أنني قادرٌ على مَلءِ صدري، وممتلئ بالارتياح في هذا المدى المفتوح. غيومُ السماء تُنذر بمطرٍ قريب، والهواءُ نظيف، وفي قلبي مددٌ.

هذه الغرفة لم أرها من قبل. خرج الحراسُ وجلستُ وحدي أمام طاولة ليس بجوارها إلا كرسيٌّ واحد في الجهة المقابلة، لم يطل انتظاري إلا دقائق دخل بعدها الغرفة الرجل المريب الذي كان صامتًا، ولم يتكلَّم إلا المرة الوحيدة التي صحَّح فيها للمحقق اسم أخي «سفيان». جاء وحيدًا، وجلس بهدوء على الكرسي المقابل، فأربكني حضوره. ملامحه الغربية الصريحة لا تخلو من هدوءٍ وآثار هموم، مع أنه وسيم الهيئة ومتأنقٌ في ملبسه، واتساعُ عينيْه الزرقاويْن ونظرته الهادئة يؤكِّدان أنه شخصٌ مهمٌّ يعرف أشياءَ كثيرة. بدأ كلامه بأن حيَّاني باسمي المنسي الذي لم أسمعه من أحد منذ سنوات، ثم عرَّفني باسمه «مارتن كين» وبأنه يعمل بوكالة الاستخبارات الأمريكية. وقد نطق اسم الوكالة كاملًا، وليس باختصارها المشهور «سي آي إيه» فاسترعى ذلك اهتمامي، لكنني لم أفهم مغزاه.

بألفاظٍ واضحة الدلالة، قال ما ترجمته إنه يمكنه الكلام معي باللغة العربية إن كان ذلك يوافقني أكثر، فأومأتُ موافقًا، فقال

بألفاظٍ تمزج بين الفصحى والعامية المستعملة في مصر إنه شاهد صباح اليوم ما صورته الكاميرات أثناء هياج المعتقلين بالعنبر، ولاحظ أنني لم أشترك فيما فعلوا، ولكن جاري المهووس سبَّب لي الأذى دون أي ذنب مني، وهذا بطبيعة الحال شيءٌ سخيفٌ جدًا. هكذا قال، وأضاف مواسيًا ما فحواه أن جاري يعاني من اضطرابٍ نفسيٍّ مثل معظم المعتقلين هنا، واعتقد أنك توافقني في ضرورة الإسراع بعلاج المعتقلين، نفسيًّا، خصوصًا بعد حادثة الانتحار، ولأن بعض الأشخاص هنا لم يثبت عليهم شيء، سوف نتخذ الإجراءات اللازمة للإفراج عنهم.

- *وأنا ؟*

- *نعم، أتمنى طبعًا أن تكون منهم. وأنا هاتكلَّم معاك بصراحة، إحنا تورَّطنا فيك، ومفيش ضدك دليل إدانة واضح، دلوقتي عندنا مشكلة إنت الطرف الأساسي فيها.*

- *ما في أيّ مشكلة، اتركوني أخرج من هنا، وينتهي الموضوع كله.*

- *الموضوع موش بالبساطة دي.*

آهِ. عذنا للمراوغة التي عشتُ فيها سنوات، ومللتُ منها، ولكن لا بأس لو صبرتُ قليلًا. هذا الضابط يريد مني شيئًا لم يفصح عنه بعد؛ ولهذا يتلطَّف في الحديث معي مثلما فعل زملاؤه السابقون. أشكالهم تختلف وطريقتهم واحدة. كيف يجب أن أتصرَّف معه الآن؟ لو سايرته في الحديث فلن ننتهي إلى شيء، ولو عارضته فسيعيدني إلى العنبر فورًا. كيف سأقدر على العودة إلى هناك وهذا

الجحيم يلتهب وتفوح روائحه التي لا تحتمل، وكيف أساير هذا الرجل أطول فترة ممكنة لأرتاح مما ينتظرني في الزنزانة؟ قطع أفكاري بقوله:

- *إنت ليه سرحان؟*

- *لأنني زهقت.. بصراحة زهقت.*

- *طوِّل بالك شوية، أطلب لك قهوة؟*

- *أنا صائم.*

«صحيح، شهر رمضان». قال ذلك وعاد بظهره إلى الخلف، وتحدَّث فيما لا طائل تحته من موضوعات، كأنه يسامرني. لا بأس. صحيحٌ أن هذا غير مطمئنٍ، ولكن ما الذي عندي لأخسره؟ ليس بيدي شيء، فليتحدَّث كما شاء وسأسمعه. كأنه يصرِّح بما يُدهش، أخبرني بأن المسلمين لا يتفقون أبدًا على بداية شهر رمضان كل عام، لكنهم يوافقون على اليوم الذي تقول المملكة السعودية إنه بداية شهر ذي الحجة؛ لأنهم مضطرون لتحديد يوم معين للحج. طيب. المسلمون عمومًا لا يتفقون على شيء، إلا إذا كانوا مضطرين. يوم أمس «السبت» صام المسلمون في أمريكا والسعودية والسودان والإمارات وعدة دول أخرى لأن شهر رمضان بدأ عندهم، واليوم يبدأ الشهر في مصر وإيران وسوريا وتونس والأردن وعدة دول أخرى. طيب. يجب أن يتوافقوا على يوم واحد لشهر الصوم مثلما يفعلون مع شهر الحج، هل توافقني في ذلك؟ ما رأيك أنت؟

- *ما عندي أيّ رأي، أنا مشغول بشيء تاني خالص.*

- *تُقصد إيه؟*

- الإفراج عني ..

- نعـم، صحيح، عندك حق. أنت تعبت فعلًا هنا، خصوصًا أنك معتقـل من سـنة ٢٠٠٢ يعني من أيام الجنـرال جيفري ميلر، وهوَّه كان صعب فعلًا.

- لا أعرفه.

- موش مهم، هوَّ كان قائد المعسكر هنا.

- تقصد المعتقل. طيب، إمتى هاتفرجوا عني؟

- المسألة دي بتاخد وقت، إنت عارف الإجراءات.

- طيب، ممكن أطلب شيئًا؟

- ممكن.

- لا أحب العودة للعنبر، قل لهم يضعوني في أي مكان، حتى لو في الزنزانة البعيدة الانفرادية. أنا كنت فيها قبل العنبر.

- آه، نعـم. لكنها غير موجودة دلوقتي، وعمومًـا يعني، العنبر.. انتظر دقيقة.

استـل من جيبه تلفونًا محمولًا أسـود اللون، وكلَّم أحدًا بلهجةٍ أمريكية مستفسـرًا بكلمات قليلة، ترجمتها: مـاذا عن العنبر القذر؟ نعـم، هل سـيأتون مبكرًا؟ سـيبقى معي! وعـاد إلـيَّ ليخبرني بأنهم أخرجـوا المعتقلين للاسـتحمام في قاعة التريض، وبأنهم يغسـلون العنبـر الآن بخراطيـم الميـاه وسـوف يعقمونـه؛ لأن لجنـة تفتيـش حكومية سـتأتي غدًا في الصباح الباكر للتحقيق في حادثة الانتحار. أضاف أنني سـأبقى منتظرًا بهذه الغرفة حتى يتم تطهير العنبر تمامًا، ثم أعود إليه قبل بقية المعتقلين حتى لا يشعروا بغيابي طيلة اليوم..

- طيب، دي مشكلة النهاردة. وموضوع الإفراج عني؟

- آه طبعًا، هانتكلم في الموضوع ده يوم الأربعاء.

- يعني بعد يومين؟

لأ طبعًا، الأسبوع القادم. أنا موش هاكون هنا الأسبوع ده، عندي شغل في مكان تاني.

جاءنا من الخارج صوت انهمار مطر، فنظر إلى ساعته وقام إلى الباب فوقف عنده وهو مبتهجٌ برؤية هطول خيوط الماء، وبعد دقيقةٍ عاد إلى كرسيِّه المقابل ليقول لي بالعربية كلامًا عموميًّا، مثل سابق حديثه: أنا أحب الأمطار، أعتقد أنها تغسل الأرض علشان تحيا من جديد، صحيح: ومن الماء جعلنا كل شيءٍ حيّ..

- وجعلنا من الماء كل شيء حي.

- مظبوط، جميل أنك حافظ القرآن.

- هو اللي حافظني.

- آه، طبعًا. دلوقتي أنا مضطر أمشي، وإنت ابقى خليك لحدّ ميعاد الإفطار، باقي أقل من ساعة على الغروب. المرة الجاية هانتكلم أكتر في موضوعك، مع السلامة. إنت عاوز أي حاجة؟

- فين تعلمت اللغة العربية؟

- هنا، في أمريكا. أشوفك الأسبوع اللي جاي.

فعل رجل المخابرات شيئًا لم أتوقعه؛ إذ نادى حارسًا وأمره أمامي بأن يفك قيود يدي، ويتركني وحدي بالغرفة دون أي مضايقة.

شكرته، وانصرف، فقمت لأتجول في الغرفة بقدر ما تسمح به قيود قدمي، وأخذتُ ألمس الجدران بأطراف أصابعي، وأنا مستمتع بارتجافها تحت دقات المطر الآتي من السماء مدرارًا. في الزنزانة لا أشعر بمثل هذه الحرية، مع أن يديَّ طليقتان وقدميَّ. بعد دقائق جاءت حارسة حسناء وضعت على الطاولة مجموعة مجلات، غير منزوعة الأغلفة، وقالت باسمةً قبل أن تخرج: يمكنك القراءة لحين وصول الطعام.

أي مكرٍ خفيٍّ هذا، وماذا يدبِّرون لي؟ لا بأس، ليكن ما يكون. جلست مرتاحًا أتصفحُ الصور ورؤوس الموضوعات واستوقفتني صورةٌ بديعة لجبال الهمالايا، منشورة بألوانٍ مبهجة على صفحتين بقلب مجلة غبتُ بها وفيها حتى سمعت أقدامًا تدخل الغرفة. جاء حارسان صغيرا السن يحملان أطباقًا فيها طعام ساخن يتصعَّد منه البخار، وأكوابًا من الفلِّين الأبيض فيها عصيرٌ تصطدم فيه قطع الثلج، ومن خلفهما دخل المترجم الذي كان يأتي مع الضابط «مايك» ليفطر معي. ترك الحارسان الطعام والغرفة، وجلس أمامي المترجم وهو يبتسم بانكسار ثم تمتم وعينه على ساعة يده:

- *باقي ثلاثة دقيقة!*

أنت مسلم؟

نعم، أنا من إندونيسيا، أعملُ هنا مُترجمًا. أنا تعلمتُ العربيةَ في باكستان، اسمي عبدُ الرحمانِ. وأنتَ، من مصر أم من السودان؟

- *من الاتنين.*

- أهلًا وسهلًا! أنتَ إنسانٌ طيب.

- شكرًا..

- عفوًا، عفوًا. يمكن الأكلُ الآن، جاء الموعدُ الآن. تفضل، تفضل، بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم.

الطعام شهيُّ المذاق، والصحبةُ التي حُرمت منها طويلًا، تزيد التشهِّي. لا سيما بعد الصيام. هذا الرجل المسلم، يبدو لي صالحًا ومسكينًا. اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زُمرة المساكين. لكن الحذر واجب، لن أتحدث كثيرًا مع هذا المترجم فلعله مدسوسٌ عليَّ، والمؤمنُ كيِّسٌ فطن. لن أتحدث معه إلا بحذر، ولن أخبره بأي شيء مهم. وما المهم، ليس عندي أصلًا أيّ مستور لأُخبره به، فقد جعلني البؤس بلا أسرار. وهذا الرجل طيبُ الهيئة والملامح، ومنكسرٌ، حتى حين يبتسم وهو يمدُّ نحوي الطعام وكوب العصير اللذيذ، وحين يوميءُ برأسه مشجِّعًا إياي على تناول هذه الوجبة الشهية النادرة. ولعله أيضًا محبوسٌ، وإن كان يتحرَّك بين الحابسين، ولو تيسَّر له عملٌ آخر لما ارتضى بالعيش في مكان كهذا. كل الناس محبوسون، بالسياج أو بقيود نفوسهم. سألته عن سبب تركه لوطنه فأجابني بأنه كان يعمل في منزل السفير الأمريكي بجاكرتا، ولما انتهت فترة السفير أوصى به، فأوجدوا له هذا العمل لأنه يعرف عدة لغاتٍ منها العربية والبشتونية. وقال إنه أتى بزوجته وطفليه وأسكنهم بشقة صغيرة في ولاية فلوريدا الأمريكية، القريبة من هنا. وهو يذهب إليهم كل شهر فيقضي معهم أربعة أيام ثم يعود لهذا العمل الذي ما عاد قادرًا على احتماله، ويتمنى تغييره أو العودة إلى «جاكرتا» التي كان يعيش بإحدي ضواحيها.

- هل تحنُّ إلى بلدك؟

- طبعًا.. الخضرة والبحر والوجوه الطيبة وأمي العجوز.

وعرفتُ من المترجم أنه لا يستمسك من الإسلام إلا بالصوم والصلوات الخمس، لا شيء أكثر، ولا يحلم بالذهاب إلى «مكة» لأداء الحج الذي وصفه بأنه: مهم لكنه ليس شرطًا للمسلمين! عقب قوله هذا، دخل علينا حارسان وضعا في يدي السلاسل ليعودا بي إلى العنبر، فودَّعتُ «عبد الرحمان» وسريتُ بينهما على مهلٍ. الليل استولى على السماء ومنع عنها المطر، ولسعات البرد المسائي المبهجة تداعب وجهي وأطرافي برفق. دخلت إلى زنزانتي والعنبر خالٍ إلا من الحراس، ونظيفٌ تفوح منه رائحة مطهرات عطرية. الحمد لله. بعد قليل جاء المعتقلون في ملابس نظيفة يجرون أقدامهم، وقد بدا عليهم الإعياء من طول بقائهم خارج الزنازين. لم يعد «أبو صعب» معهم، ولم يعرف أحدٌ سبب احتجازه. بعد شهور، سمعتُ في «إجوانا» أنهم عزلوه أسبوعين في حبسٍ انفرادي، ثم سلَّموه إلى المخابرات اليمنية. الله يرحم الجميع.

الجميعُ استغرقوا في النوم عقب خفوت الضوء بالعنبر، كأن الحراس دسّوا لهم في وجبة الإفطار مهدئاتٍ أو منوِّمات، فما عاد يسمع في العنبر إلا الشخير العالي، المتواصل، الذي نجوت من سماعه بأن أخذتُ الورق الشفَّاف الملفوف به طعام السحور ومضغته حتى صار لينًا لدنًا، وسددت به فتحتيْ أذنيَّ فعزلني عن العزف الجماعي النشَّاز، ونمتُ متوجِّسًا من غدى.

رأيتُ في ليلتي أحلامًا ورؤى متضاربة، متتالية؛ كأن «الملا عمر» عاد إلى حياتنا ونصب مع أتباعه المدافع أمام معبد رمسيس الثاني واستعد لإطلاق القذائف على التماثيل، فخرجتْ عليهم لعناتٌ من باطن الأرض منها عقاربُ هائلة الحجم فرَّقت شملهم، ثم انحدرت إليهم من شقوق الجبل حيَّاتٌ ذواتُ زغبٍ منفوش ابتلعت الملا عمر وأصحابه ومدافعه. كأنني أجوسُ في طرقات «بخارى» وقد خلت أنحاؤها تمامًا من الناس.. كأنني أسير فجرًا عند البحر الممتد خلف قلعة الإسكندرية، ومن الموضع الذي تغيب فيه الشمس أشرقت شمسان معًا، فتقاطعت الأضواءُ الحريرية وارتمت فوق الموجات الهادئة، وكان الشيخ «نقطة» جالسًا عند الصخور القريبة من الماء. طرتُ إليه فَرِحًا برؤيته وأردت تقبيل يده اليمنى ورأسه، فإذا به طيفٌ لا يستطاع لمسه.

الأحلامُ حرةٌ، ولا يحدُّها أيُّ حد.

أيامُ سارْة

في الصباح الباكر جاء أعضاء اللجنة لزيارة العنبر، ولم يمكثوا طويلًا في الممر، لكنهم أقاموا عدة أيام التقوا خلالها بكل معتقلٍ على حدة، وألقوا علينا الأسئلة ذاتها. كانوا ثلاثة رجالٍ معهم عجوزٌ يابسة الملامح. جلستُ أمامهم في اليوم الثالث من زيارتهم، ولم يطل اللقاء نظرًا إلى قصر الأسئلة وإيجاز الإجابات: هل كنت تعرف المنتحرين الثلاثة؟ نعم. هل كانت تربطك بهم علاقة مميزة؟ لا. هل كنت تتوقع قيامهم بقتل أنفسهم؟ لا. ما الذي كانوا يشتكون منه؟ لا أعرف. هل تظن أنهم سيدخلون الجنة؟ لا أعرف. هل تظن أن غيرهم سوف يُقدم على الانتحار؟ لا أعرف ولا أحب أن يحدث هذا. هل لديك شكوى خاصة بك أو مطلب معين؟ نعم، أريد الإفراج عني.. شكرًا، يمكنك الانصراف.

الأيام التالية من الشهر الكريم مرت علينا ساكنةً، كتلك التي تكون بعد عبور العواصف، فالجميع صائمون وصامتون ولائذون بالنوم المديد. كان أبي رحمه الله يردِّد العبارة المعروفة «نوم

الظالـم عبادة»، فتضاحكه أمي أحيانًا بقولهـا: المهم إنه ما يُظلُم في الأحلام .. ياه، اشـتقتُ إليـك كثيرًا يا أمي، ويا مهيـرة، ويا إخوتي، ويا أيامي السكندرية.

يوم الأربعاء في وقت الضحى، استدعاني «مارتن كين» فذهبتُ إليه تحدوني الأحلامُ والآمالُ المبهمة. أبقاني معه وقتًا طويلًا؛ لأنه أفـاض في الكلام العمومي، مثلما فعل في المرة السـابقة. فقد ابتدأ بسـؤالي عما إذا كانت الأحوال في العنبر قد هدأتْ وصارت أفضل فـي الأيام الأخيرة، فأجبت بالإيجاب وحمدتُ الله في سـرِّي، قال إنه يسـتغرب أحوال المسلمين في شـهر رمضان إذ يهتمون بالطعام والمشـروبات، بأكثـر مما يفعلـون طيلة العام. مع أنه شـهرُ الصوم. ويتعاركون فيه مع بعضهم البعض في شـوارع المدن العربية، مع أنه شهر العبادة.

عـاد بظهـره إلى الوراء وهـو يخبرني بأن تقارير الأسـبوع الأول من شـهر رمضـان، تؤكِّد وقوع أكثر من سـبعين مشـاجرة كبيرة بين عائـلاتٍ بالأردن، وهو بلد صغير نسـبيًّا، أُصيب فيهـا عددٌ كبير من الناس وقُتل ثلاثة أشخاص. نظر في سقف الغرفة كالحائر، وسألني بالإنجليزيـة: هذا شـيء غريب بالفعل، هل عندك تفسـير له؟ قلت: لا أعرف. يعني لماذا لا يحصل هذا بين المسـلمين الموجودين في أمريـكا وأوروبا مع أنهم يصومون، يعني معظمهم يصومون؟ قلتُ: لا أعـرف. هل تصوم منذ فترة طويلة؟ مـن أيام الطفولة، كان عندي سبع سنين..

«متى سـينتهي هـذا الحديث الذي لا معنى لـه؟». قلتُ ذلك في سـري عندمـا قام من أمامي ليـدور في الغرفة، كمـن يريد أن يضفي

شـيئًا من الحميمية الكاذبة على جلسـتنا، وبدا كأنه أدرك فجأة أنني مقيـدٌ بسلاسـلي، فنـادى على الحـارس وأمـره بفك قيـودي كلها، فأخذها الحارسُ وخرج من الغرفة. شـكرته وهو يعود لكرسـيه، ثم سألته عن الوقت الذي سيطلقون فيه سراحي من هنا، فقال:

- *الموضوع موش سهل.*

- *يعني كان سهل تخطفوني، وموش سهل تفرجوا عني!*

- *تقريبًا كده. إنت تعرف، سهل جدًّا إنك تنـزع الزرع من مكان، لكن صعب تعيد زرعه في مكان تاني.*

- *لأ، ماهـو صعب. أنا ماراح أطالبكم بأي تعويضات، ولا حتى هاقول إني كنت هنا.*

- *عظيم، يعني إنت عندك استعداد توقّع على الكلام ده.*

- *نعم..*

- *متأكّد من كلامك ده؟*

- *نعم، متأكّد جدًّا.*

- بـدا مرتاحًـا وهو يخبرني بأن جزءًا كبيرًا من المشـكلة سـوف يُحـلُّ عنـد توقيعي على «اسـتمارات» أنفي فيها مسـئولية الولايات المتحـدة عن اعتقالي، وأتعهد بعدم الملاحقـة القانونية أو المطالبة بتعويـض. أكّـدتُ ذلـك فقال إنه سـوف يبدأ فـورًا فـي الإجراءات اللازمة، ويسـاعد بقدر ما يستطيع للإسراع بالإفراج عني. سألته إن كان يعرف أي شـيء عـن أمي وإخوتي وزوجتـي، وإن كان بإمكانه تسهيل اتصالي بهم، فأجابني بأنه سيعطيني المرة القادمة المعلومات

المتوفرة عنهم، ولكن الاتصال بهم ليس ممكنًا حاليًا.. سألته قبل رحيله عن موعد لقائنا القادم، فأجابني: خلال شهر.

ن ن ن

حين عدتُ عصرًا إلى الزنزانة وجدتُ الكآبةَ كامنةً في أنحاء العنبر وفي ملامح المعتقلين جميعهم، فعادني شعورٌ قديمٌ: أنا لا أنتمي لهذا المكان وهؤلاء المعتقلين، ولسوف تنفرج عني قريبًا هذه الغمَّة التي اشتدت بي، حتى تجاوزت المدى والاحتمال. الحمد لله على كل حال. لو كنت على الوفاق السابق مع «محب الحور» لحكيتُ له ما يدور مع رجل المخابرات، واستشرته في الأمر، لكن النفور يجعل الحكي مُحالًا والاستشارة خطرًا. الكتمانُ أسلم.

ما عاد المعتقلون يكلمون بعضهم بعضًا إلا نادرًا، وللضرورة، وما عادت صلاة الجماعة تقام ظهر يوم الجمعة، ولا صلاة عيد الفطر أقيمت .. لله الأمر. قبل العيد بيومين كنتُ أبدِّد وقت الظهيرة بالنوم مثلما يفعل معظم المحبوسين والمحرومين، وبينما أتقلَّب فوق سريري استجلابًا لخطفات الوسن سمعتُ دقاتٍ رقيقةً غير مألوفةٍ هنا، تقترب. نظرتُ من تحت الدثار فرأيت امرأةً من بين قضبان الباب باسمةً وتقول: هاي برسّ، كيف حالك؟ لم أُدِرْ نحوها وجهي، ولم أدرِ إن كنتُ قد لمحتها في حال صحوي أم أثناء محوي، فبقيتُ مستلقيًا على سريري وأسبلتُ جفنيَّ عساي أن أغوص في النوم أكثر، فأرى حُلمًا رحيمًا. بيدَ أن الدَّقَّات عادت لإيقاعها الرقيق المنتظم، وتباعدت إلى آخر الممر وسكنتْ هناك لحظةً، ثم اقتربت من جديد رويدًا. هذا ليس حُلمًا. استويتُ على

سريري جالسًا، واستفقتُ مترقبًا وصول الدَّقَّات أمام بابي لأستجلي حقيقة ما يجري، وجاهدتُ الثِّقل المميل لرأسي وجفنيَّ. أشعرُ بدوارِ التأرجح، كأنني طفلٌ أيقظوه قبيل الفجر لوجبة السحور:

- *هاي برسّ، هل أيقظتك؟ آسفة لإزعاجك.*

- *لا يا سيدتي. لا إزعاج، هل أنتِ..*

- *أنا إخصائية نفسية، سأراك بعد ساعة.*

ستراني بعد ساعة! ماذا تريد مني هذه الشقراء الممتلئة، بردائها الأبيض والحذاء الأسود ذي الكعب الدقيق؟ هذا رداءُ الأطباء والممرضات، لكنهم يرتدون تحته الزيَّ العسكري المبقَّع، وأحذيةً رياضيةً تشبه البيادات التي ينتعلها الحراسُ والجنود. إخصائية نفسية! عجيب، ما شأني أنا بالنفسنة المتخصِّصة فيها، هل شكوتُ لهم اضطرابًا يحتاج علاجًا أو مقابلة طبيبة؟ لا واللهِ، وهل من شأن امرأةٍ مليحةٍ كهذه، أن تعالج سجينًا يعاني من اضطرابٍ نفسي؟ لا واللهِ، هي من شأنها أن تثير في النفس الاضطراب بوجهها المضيء كالشمس وشعرها القصير البراق كخيوط ذهبٍ مذاب، وعينيها.. ما لها تحدِّثني كأنها تعرفني، فتُربكني. وما معنى ابتسامتها الهادئة هذه، الفاتنة بامتلاء شفتيها ونصوع الأسنان المصفوفة. اللهمَّ إني صائمٌ.

لما رفعتُ جبهتي عن سجدة الركعة الثانية من صلاة العصر، رأيتُ حارسين يقفان ببابي في انتظار انتهائي من أداء الفرض، فخفَّفت حتى انتهيتُ من صلاتي ونظرتُ إليهما، فقال أحدهما: هيَّا، فأنت مطلوب الآن. سرتُ بينهما بسلاسلي بينما لساني يلهجُ

خافتًا بدعاء ختم الصلاة، ورأسي تخامره الخواطر المراوغة: لا بد أن لهذا الاستدعاء سرًّا، وسيظهر كل شيء بعد قليل، لكن قلبي يحدِّثني بأن هذا الاستدعاء العلني للمثول أمام فاتنةٍ مثل هذه، لن يخرج عن كونه خدعةً جديدةً. لا بأس، مرحبًا بالخدع.

أدخلني الحارسان غرفة لا تشبه بقية الغرف التي رأيتها هنا من قبل، مع أنها مجاورة للغرفة التي قابلت فيها «مارتن» مرتين. الحوائط مطلية بلونٍ أبيض مشوب باخضرارٍ خفيف، والقضبان الدقيقة الفاصلة بين نصفَيِ الغرفة لامعةٌ وواسعة الفُرج، لكنها لا تسمح بالعبور. لا يوجد في النصف الذي دخلته إلا كرسيٌّ مائلُ الظهر إلى الوراء، أسود، اتساعه يجعله مثل السرير. في النصف الآخر من الغرفة كرسيٌّ أصغر، قائم الظهر كالمعتاد، موضوعٌ قرب القضبان الفاصلة وخلفه مكتب رشيق القوائم، خلفه أرففٌ عليها كتبٌ وملفات كثيرة. مكانٌ مريب. الحارسان أخذا سلاسلي عني وخرجا، فوقفت وحيدًا أتلفَّت حتى دخلت الباسمة بقوامها التُّفاحيّ الممتلئ المثير للاضطراب، ودعتني إلى الجلوس على الكرسي المائل قائمه، فجلستُ على طرفه منتصب الظهر، وجلستْ قبالتي وهي تقول من خلف القضبان ما ترجمته: يمكنك الرجوع بظهرك إلى الوراء، إذا أحببت، أنا الدكتورة «سارا كلاوس» متخصِّصة في الإرشاد النفسي وعلاج اضطرابات الحروب. أتيت للعمل هنا منذ ثلاثة أيام فقط؛ تنفيذًا لتوصية لجنة التحقيق في حادثة الانتحار التي وقعت عندكم مؤخرًا؛ حادثة مؤسفة بالطبع، وقد وجدتُ من المناسب أن تكون أنت، أول الذين ألتقي بهم من السجناء لأن المعلومات المتوفرة في الملف تُشير إلى أنك تجيد

الإنجليزية، ومسـالم، ومتعلم، كما تؤكِّـد أنك كنت تعمل بالإعلام عندما تم توقيفك، وكنت قبل ذلك تعمل بعدة وظائف منها الإرشاد السـياحي، ووالدتك سـيدة مصرية، وأبوك المتوفـى كان ينتقل بين مصر والسودان. هل هذه المعلومات صحيحة؟

- نعم.

- *هل تحب أن تضيف إليها أي شيء؟*

- لا .

- *لماذا لا تنظر نحوي؟*

- *لا أعرف.. أقصد أنني اعتدتُ النظر إلى الأرض.*

- *هل يمكنك أن ترفع وجهك نحوي، إذا سمحت؟*

- نعم، يمكنني.

- *هكذا أفضل..*

قالـتْ إن ملامح وجهي مهذَّبـة، لكنها تدلُّ على أنني حزينٌ. لم أعقِّـب. أضافـتْ أنها تعرف أنني عانيـتُ هنا كثيرًا وأنتظـر منذ فترة إطـلاق سـراحي من هذا السـجن، وأنـني قضيتُ فتـرةً طويلة وغير قانونيـة في الحبـس الانفرادي. لم أعقِّب. سـألتني إن كنت أشـكو حاليًا من أي مرضٍ، فقلت من فوري: الحنين.

ں ں ں

لمـا قامت «سـارا كلاوس» إلـى المكتب الذي خلفهـا؛ لتُحضر مـن فوقه الملف المغلـق والقلم، حانت مني التفاتـةٌ أطرقتُ بعدها

واستغفرت الله في سري، ولم أعد لمثلها. عادت إلى كرسيها لتسألني أسئلةً معتادة، وتكتب في الملف إجابتي: هل تعاني حاليًا من أي مرض؟ لا. هل تشعر بأنك تحتاج أي نوع من الأدوية؟ لا. هل سبق لك إجراء أي مقابلات مع أطباء نفسيين؟ لا. هل تشعر بأنك تنتمي للمحبوسين معك؟ احترتُ لحظةً ثم قلتُ: لا.. تفرَّستْ في وجهي وهي غير باسمة، ثم سألتني برفقٍ إن كان عندي ما أريد أن أخبرها به. وانتظرت إجابتي. قلتُ بعدما نظرتُ إلى أبعد زاوية بالغرفة: ليس عندي ما أُخبر به ولكن عندي نصيحة لك، نحن الآن صائمون ولا يصح لك مقابلة أحدٍ منا بمثل هذا الثوب القصير تحت البالطو الأبيض، والصدر المكشوف..

لماذا قلتُ لها ذلك؟ ما شأني أنا بها، وبما ترتديه؟ أستغفر الله العظيم. رفعتُ وجهي إليها لأرى نتيجة ما قلته بلا تدبُّر، فرأيتُ في وجهها الهدوء والجدية، وليس الخجل أو الانفعال. الحمد لله. قالتْ بنبرةٍ هادئة: لعل الحق معك، لكن ثوبي ليس قصيرًا وفتحة صدري ليست واسعه، وعمومًا لا بأس سوف أراعي هذا الأمر مستقبلًا، وشكرًا لك على النصيحة.

- *أنا آسف، ولكنني أردت..*

- *لا مشكلة، أعرف أنكم مختلفون عنا بعض الشيء، وأُدرك أيضًا أنكم هنا غاضبون ومحبطون. ولكن تأكّد من أنني أتيتُ إلى هنا للمساعدة، أنا لستُ عدوة لك، ولا لأحدٍ غيرك، ولستُ طرفًا في أيّ خلاف. على كل حال، موعد إفطارك قد اقترب ويجب أن أتركك الآن، لكننا سنلتقي مرة*

أخـرى بعد فترة، حين أنتهي من مقابلة بقية المحبوسـين في العنبـر، ولكن يمكنك خلال هذه الفترة أن تطلب مقابلتي إذا أردت أن نتحدَّث، لا تتردَّدْ في ذلك. شـكرًا لك على وقتك، أراك لا حقًا.

وجبـةُ الإفطار التي كانت تنتظرني على سـرير الزنزانة، مضغتُ منها قضمـاتٍ لـم أجد لها طعمًا فعببتُ عليها الماء، وبدون مناسـبة تذكَّرتُ المترجم المنكسـر وكلامه المنهزم يوم أفطرنا معًا في بداية الشـهر. أين تراه يفطر الآن؟ ماذا كان اسـمه؟ كيف نسـيته سـريعًا؟ لا أظنـه اسـتطاع الذهـاب إلى أسـرته ليقضي معهم العيـد، لابد أن الدكتورة النفسـانية سـوف تحتاجه للترجمة، مسـكين. هل سأصير يومًا منكسـرًا مثله؟ هو يكبرني ببضع سـنوات لكنـه فيما يبدو عانى الكثير، مثلي. تذكَّرتُ، اسـمه «عبد الرحمـان» وهو ينطقه بطريقته: عبدول الرحماني! هذا شـأن الأعاجم في النطق. مثل هذه الدكتورة التي يُكتب اسـمها «سـارة»، لكنها حين تنطقه تُميل أوسـطه فيصير «سـيرا» ولو كان لسـانها فصيحًا مثلنا، لعرفتْ أن اسمها: سارَّة. هي امـرأة جميلة وجـادة الملامـح، وحسـناء، ونقاؤها يثير الشـغف لا الشهوات.. ما هذا الذي أفكِّر فيه؟ حيّ على الصلاة، الله أكبر.

حـدث ما كان متوقعًا، واختلف المعتقلون في تحديد يوم العيد، لكنهم لم يتعاركوا. بعضهم أفطر يوم الاثنين وجعله عيدًا، وبعضهم الآخـر زاد الصـوم يومًـا ليتـم الشـهر. اختلافهـم أربـك الحـراس الذيـن يوزِّعـون علينـا الطعام فـي مواعيد محـدَّدة، وعندما سـألني «محب الحـور» قلت له إنني سـآخذ بالرأي المشـهور وأتمُّ الشـهر ثلاثيـن يومًـا، ففعل مثلي لأنه صام يوم صُمـت. ومع أن المختلفين

فـي ابتداء الصيـام ونهايته لم يتعاركـوا، إلا أن كل فريقٍ اتَّهم الفريقَ الآخر بارتكاب كبيرة، فهؤلاء اتهموا أولئك بأنهم صاموا في العيد، وأولئك نقموا على هؤلاء لأنهم أفطروا في رمضان.

راح الحراسُ يأخذون المعتقلين تباعًا لمقابلة الدكتورة «سـارة» فـكان فـي كل يوم يذهب إليهـا اثنان؛ واحدٌ وقـت الضحى والآخر سـاعة العصر. ثلاثة من المعتقليـن رفضوا الخروج إليها و«المكي» لم يقابلها بسـبب حالته الصحية التي تدهورت خلال شهر رمضان، ويبس عوده حتى صار شبيهًا بالسلك الشائك. وفي أيام العيد رفض تنـاول الطعام، فكانوا يحملونه كل يـومٍ رغم أنفه، فيربطونه بإحكام فـي ذلك الكرسـي الرهيب الذي يسـمونه هنا «مقعـد التعذيب» ثم يضخـون في جوفه عبر أنبوب دقيق، طعامًا مذابًا مع الدواء في ماء. ولما يئسـوا من حالته تمامًا في الشهر الأخير من العام، أسلموه إلى سـلطات الأمن في بلاده وهـو فاقد المقدرة علـى الحركة والنطق. سـبحان اللـه. هذا الـذي كان لا يكف عـن المشـاغبة والمزاح قبل شـهور، جعلتـه أوهامه شـبحًا بشـريًّا لا دواء لـه. اللهـمَّ احفظنـا من أوهامنا.

ن ن ن

كان المعتقلـون يرجعـون من عنـد الطبيبة النفسـانية بانطباعاتٍ متعدِّدة وأحـوالٍ متناقضة، فبعضهم يعود صامتًـا تمامًا ولا يتحدَّث عـن المقابلة بـأي شـيء، وبعضهم يعـود صاخبًا فيزعق فـي الممر مؤكِّـدًا أنه لن يذهـب ثانيةً إلى هذه الشـيطانة، وبعضهم يُفصح عما في قلبه بساقط الألفاظ والبذاءات التي من مثل: لن يكف الأنجاسُ

عن العهر والفسوق.. هذه المرأة زانية ابنة زانية وأهلها كلهم زناة.. شتمتُ المرأة العاهرة، فلم يقدر المترجم على نقل الكلام إليها.

وكان بعضهم يُحسن القول، مشيرًا إلى أنهم جلبوا لنا هذه المرأة كي تدفعنا إلى الجنون دفعًا، وأنهم لن ينتهوا عنا ولن يرجعوا عن المسالك الخبيثة والحيل الرخيصة. وكان أغربهم انفعالًا «الدنقلي» الذي عاد من عندها مُحتقنًا وقضى طيلة يومه يزعق من زنزانته قائلًا: ربِّ أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها.

ں ں ں

هل كانت مصادفة أن يستدعيني في يومين متتالين رجلُ المخابرات وطبيبةُ النفوس، ويذكر كلاهما الآخر أثناء المقابلة.. جرت الأمور سريعةً مع مطلع شهر نوفمبر ٢٠٠٧ فقد اقتادني الحراسُ في صباحٍ باكر إلى الغرفة التي قابلتُ فيها «المخابراتي» من قبل، وهناك أخذوا سلاسلي وتركوني وحدي في الغرفة طليقًا، حتى دخل «مارتن كين» بقامته الفارهة وخطوه المعتد بذاته وجلس قبالتي وهو يقول بالعربية: صباح الخير يا صديقي، عندي لك مفاجأة.

أعطاني المظروف المفتوح الذي كان بيده، فلمحتُ ما بداخله وكدتُ أطير فرحًا حين رأيت الصور الخمس لأمي وأخي سفيان وبقية إخوتي. نظرتُ فيها تباعًا بعين ملهوفٍ ثم انهمر دمعي على الرغم مني، ولم أتمالك نفسي لعدة دقائق بقي فيها «المخابراتي» صامتًا ووجهه خالٍ من أي تعبير. استجمعتُ ذاتي، فسألته بلسانٍ يتلعثم وعقلٍ يكاد يطيش: *دي صور جديدة، كيف حصلت عليها؟*

يعني فين بالضبط؟ وهُمَّ كيف حالهم، أترك لي الصور، أرجوك، يعني أمي بخير..

«إهدا شوية» قال لي ذلك بنبرة ناصحٍ، ثم ردَّ على كلامي المشوَّش بأن هذه الصور لي، ولن يأخذها مني أحد. وهي صور حديثة، تم التقاطها في القاهرة بكاميرات خاصة. أفراد عائلتي جميعًا بخير، لكنهم لا يعرفون عني أي شيء منذ سنوات. قيل لهم بعد اختفائي إنني قُتلت بطريق الخطأ في أفغانستان، لكن أمي ترفض القبول بذلك وتؤكد أنني حيّ. وأخي سفيان لا يكف عن مخاطبة الهيئات الدولية ولجان الإغاثة؛ أملًا في العثور عليَّ أو الوصول لأي خبرٍ يقين.. سألته فجأة: وزوجتي؟

- *يمكنك الكلام في هذا الموضوع بُكرة، مع دكتورة سارة.*

- *يعني إيه!*

- *أنا مضطر أمشي دلوقتي، هاشوفك تاني بعد كام يوم.*

- لا بأس، بيدي الآن كنزٌ. تعجَّلتُ العودة إلى الزنزانة لأطيل النظر في الصور الخمس، وبقيت طيلة يومي أحدِّق فيها حتى خفتت الأضواء، فظللتُ أراها بعين قلبي. أمي تبدو أكبر سنًّا وأزيد وزنًا، ولا يزال الحزنُ القديم يسكن عينيها اللتين أحاطتْ بهما تجاعيد جديدة. لكنها عمومًا، تبدو بحال جيد هي وإخوتي. كيف كبروا بهذه السرعة؟ الله أكبر، ملابسهم تدل على أنهم يعيشون في ظروفٍ أفضل من السابق. سفيان يرتدي حلَّة أنيقة وربطة عنق، صار رجلًا، ووسيمًا وهو يبتسم. لماذا لا توجد صورة لمهيرة؟ أظنهم يخشون على عقلي من شدة الصدمة، فأعطوني بعض الصور

اليوم وستعطيني النفسانية بقية الصور غدًا. هو قال إنني سأقابلها غدًا، كيف عرف؟ كأن أمي تنظر إليَّ في الصورة التي أُخذت لها من قريب. أتراني بقيتُ حيًّا إلى الآن، ببركة دعواتها؟ متى سأراها؟ متى..

في الصباح ذهبت إلى غرفة النفسانية، فوجدتُ الدكتورة تنتظرني على كرسيها القريب من القضبان الفاصلة. تركني الحراس أجلس أمامها بسلاسلي، ولم ألاحظ ذلك لانشغالي بصور مهيرة التي ستعطيها لي. لكن يدها خاوية، لا بد أن الصور موضوعة على المكتب الذي خلفها، وستقوم الآن لإحضارها لي عندما يقل اضطرابي ويعاودني الهدوء. ما لها صامتة، وليس على وجهها أي تعبيرات؟ خرجتْ عن صمتها بأن قالت لي ما ترجمته: كيف حالك يا برسّ؟ أرجو أن تكون بخير. أخبرني «مارتن» أنه أعطاك بالأمس صورًا لأفراد أسرتك، وأنك سعيد بها. وعرفتُ أنك منذ أمس تتطلّع في الصور ووجهك إلى داخل الزنزانة حتى لا يراك أحد..

- وكيف عرفتِ؟

- من الكاميرات.

- كاميرات! طيب ما دمتم تراقبوننا بكاميرات، فلماذا لم تدركوا المساكين الذين انتحروا؟

- تم تركيب الكاميرات بالزنازين بعد الحادثة؛ حرصًا على عدم تكرارها بالتدخل السريع عند اللزوم.

- آه، أوكّي. هل لديك صور لزوجتي؟

- سوف نتحدث في هذا الموضوع!

- *أي موضوع تقصدين؟*

- لا أعرف لماذا راحتْ تتحدث إليَّ بهذا الكلام الكثير الذي مُلخَّصه أن المرأة تختلفُ طبيعتها بعض الشيء عن الرجل، خصوصًا في المجتمعات الشرقية، ولكن المرأة عمومًا تحتاج قدرًا أكبر من التفهم سواءٌ كانت في مجتمع شرقي أو غربي.. «يا صبر أيوب» قلت ذلك في سري، واجتهدتُ لأبدو أمامها هادئًا كي تُنهي حديثها الفضفاض هذا، لكنها أكملته: أنت معزولٌ هنا منذ سنوات، وخبراتك الحياتية لم تتطور بالقدر المعتاد لمن هو في مثل سنك، لا سيما فيما يتعلق بالنساء. ومن الطبيعي بالنسبة إلى شخص مثلك أن تكون معرفته بالمرأة ضئيلة، وخصوصًا أنك متدين..

- *يا سيدتي، أنا لا أعرف شيئًا عن النساء، ولا أريد أن أعرف. ما يهمني الآن هو زوجتي، فهل معك صور حديثة لها؟*

- لا.

- *لكن مارتن قال لي أمس..*

- *قال لك إننا سنتحدث في الأمر، وطلب مني ذلك؛ لأنه يهتم بك.*

- *يهتم بي! وماذا عن مهيرة؟*

- *هل هذا اسمُها؟*

- *نعم، هل تعرفين أي شيء عنها؟*

- *للأسف، لا.*

- *هل يمكنني العودة الآن إلى الزنزانة، لو سمحت؟*

- *طبعًا ممكن.. يا حراس.*

كأن الحراس كانـوا يقفون خلف الباب الذي أدخلوني منه، فقد جاءوا مسرعين ليأخذوني من أمامها وعندما همّوا بوضع رأسي في الكيس الأسـود صاحت فيهـم بنبرة آمرة: لا، لا تفعلـوا ذلك. قالوا لها إنها التعليمات، فردَّت بحزم: قلت لا. وقامت إلى التلفون الذي على المكتب وكلَّمتْ شـخصًا وسألته بطريقة مهذَّبة أن يأتي، فجاء الضابط «مايك» وتحدَّثت إليه هامسـةً عند بابها، فلم يمكنني سـماع ما تقول. هزَّ الضابط رأسـه موافقًا، ودخـل إلى قرب القضبان وقال مـن ورائهـا للحراس: لا تغطُّوا رأسـه.. في طريق العـودة، القصير، لم أرَ إلا مكاتبَ كثيرة وضباطًا وكُتلًا متتالية من الأسـلاك الشائكة. أهـذا ما كانوا يحجبونه طيلة هذا الوقـت الطويل؟! أمرهم عجيب. سـألتُ الحـارس الذي عن يميني، كأنني أسـأل نفسـي: لماذا أطاع الضابط مايك كلام الدكتورة؟ فقال بعفوية: لأنها أعلى منه رتبةً.

بقيـت أيامًـا متحيرًا بين مـا تحدِّثني به صورُ الأحبـة، وما تحدثه في نفسـي من اشـتياق، ومـا يحجبه «مارتن» عني مـن أخبار مهيرة، وما تحدثني به «سـارة» عن طبيعة النسـاء، وما يخيم على العنبر من كآبـة .. خفق قلبي بشـدة حين أخبرني الحارس فـي صبيحة غائمة، بأننـي مطلـوبٌ للتحقيق فعرفتُ فورًا أنني سـألتقي بمارتن، وأتلقَّى منـه أخبـارًا أو أفـكارًا جديـدة جيـدة. في الطريـق إليه لـم يحجبوا عينـي، وضعوا الكيـس أمام المعتقليـن ولما خرجوا بـي من العنبر خلعوه عني، فنظرت عاليًا إلى قطع السـحاب. الهواء صيفيٌّ، وهيئة السـماء شـتويةٌ، وقلبي يتقافز في صدري مستبشـرًا ويعلو بالوجيب والاضطراب. يا ربّ. جلسـتُ بسلاسـلي أمـام الطاولة حتى دخل مارتـن، وحيَّانـي بالإنجليزيـة وبها قال فور جلوسـه، تلـك العبارة المعتادة التي يغوص بسببها قلبي بين الضلوع:

- عندي أخبار سارة وأخرى سيئة، ماذا تريد أن تسمع أولًا.

- الأخبار السارة، ولا أريد أن أعرف الأخبار الأخرى.

- أوكّي، أوصيت في مذكرة خاصة بتغيير تصنيفك هنا إلى «لم يعد مقاتلًا معاديًا» وسيتم اعتماد التصنيف الجديد رسميًّا، وهذا يعني انتقالك قريبًا إلى عنبر إجوانا..

- تمهل دقيقة لو سمحت. أنا لم أكن مقاتلًا معاديًا لكم في أي يوم من الأيام، حتى تقولوا: «لم يعد»، وأنا لا أُريد الانتقال إلى عنبر جديد، وإنما أريد إطلاق سراحي. وأنت قلت إنكم لم تجدوا أدلة ضدي، فلماذا يستمر اعتقالي؟

- وقلت لك أيضًا إن الأمر ليس سهلًا.

- لماذا؟ سوف أوقع لكم على تعهُّد بأنني لن أطلب تعويضًا، ولن أذكر أنني كنتُ معتقلًا هنا..

- هذه طبعًا نقطة جيدة، ومفيدة. ولكن المسألة ليست بهذه البساطة، هناك إجراءات لا بد منها لكي يتم الإفراج عنك؟

- أرجوك، حدثني بصراحة، هل ستفرجون عني فعلًا؟

- طبعًا. ولكن لا تتعجَّل، نحتاج بعض الوقت.

- «أستغفر الله العظيمْ» قلتُ ذلك بصوتٍ مسموع، فجاوبني مارتن باللغة العربية قائلًا إنه يفعل من أجلي كل ما يستطيع؛ لأنه يتفهَّم حالتي، ولسوف يبحث عن أفضل الطرق لتعويضي عن هذه السنوات، حتى بعد توقيعي على استمارات التعهد بعدم الملاحقة القانونية. وسَكَتَ لحظةً ثم قال بألفاظٍ عامية: الاستمارة معايا

دلوقتـي، تحـب توقـع عليها؟ وأخـرج من حقيبتـه الخفيفـة أوراقًا وضعها أمامي، مشيرًا إليَّ بأن أقرأها.

الأوراق فيها تحت الشعارات الرسمية اسـمي الكامل وبياناتي الدقيقـة، وتحتهـا بنودٌ كثيرة لـم أفهم بعض كلماتهـا ومصطلحاتها القانونيـة، منها البند الذي يقول بوضوح مـا ترجمته: إنني تعرضتُ رسـميًا للمسـاءلة، في جرائم تتعلـق بالحرب ضـد الإرهاب، لكن فحص الأدلة لم يؤدِّ إلى تأكيدها بالقدر الكافي لإحالتي للمحاكمة. استوقفتني في هذا البند كلمـةٌ لا أعرف معناها لكنني شـعرتُ أنها مهمة، فسألتُ مارتن: ما معنى كلمة **Verification**؟

أخرج مـن حقيبته جهازًا صغيرًا يشـبه التلفـون المحمول، لكنه أرق قليـلًا وأصغـر حجمًـا. كتب فيـه الكلمـة التي سـألته عنها، ثم ضغـط علـى زرٍّ ومدَّ الجهـاز إليَّ وهـو يقول إنـه برنامـج للترجمة بيـن العربية والإنجليزية. نظرتُ إلى الشاشـة الصغيرة فكان مكتوبًا فيهـا الكلمة الإنجليزية التي استوقفتني، وأمامهـا مقابلاتها العربية العديدة: تمحيص، تحقُّق، تفنيد، تثبيت، تيقُّن! أخذني دوارٌ طفيفٌ وغمرتني حيرةٌ أردتُ الخروج منها سـريعًا فقلت له: طيب، سأوقع على الأوراق، ولكن اوعدني أن أخرج من هنا في أسرع وقت.

«أوكِّي، سـأفعل ما بوسـعي». قال عبارته هـذه بالإنجليزية وهو يمـد يده ليُخرج لي من طيَّات ملابسـه قلمًا أنيقًا. سـالتْ مني دمعة أثناء توقيع الأوراق فمسـحتها بسرعة ونظرت إلى وجهه، فرأيته من خلـف غلالة دموعـي يومئ لـي باطمئنان مريح، رجـوتُ ألا يكون خادعًا. لم تُعِقْ سلاسلي توقيعي، لكنني بعده رفعتُ يدي بها وقلت لـه بلغته: لماذا تركت القيود في يدي وقدمـي هذه المرة؟ هل كنتَ

تتوقـع أن أهتاج مثلًا، أو أثور؟ فقال وهو يعود لكرسـيه، بلغتنا: لأ، أنا عارف أنك شخص عاقل..

- *طيب، قل لي الأخبار السيئة..*

- *آه، لأ. يعني هيَّ عمومًا موش أخبار مسـتعجلة، وأنا هاشوفك بكره الصبح تاني.*

بغير قصد منه، أو لقصدٍ، قام مارتن فأوصلني إلى باب الغرفة ثم ودَّعني بلمسـةٍ على كتفي بكفِّه، لحظتها لاحظتُ أن المبنى الطويل مزدحـمٌ أكثر مما كان بالأمس، وبين مكاتبه الكثيرة ضباطٌ أكثر وفيه جنودٌ منهمكون في حركةٍ دؤوب، فقلتُ لمارتن قبل أن أفارقه بنبرة أسـى: هل تحتاج حراسـتنا هذا العدد الكبير؟ فقـال بنبرةٍ واثقة: لا، المعتقل مجرد جزء صغير من معسكر كبير جدًّا.

قبـل خروجـي مـن بـاب المبنـى لمحـت الدكتـورة تخـرج منه وخلفهـا جنديان يهرولان، كانت تسـير بهمةٍ عالية وقوامٍ عسـكريٍّ لا يقدح فيه امتلاءُ ذراعيها وردفيها. وددتُ لو عطَّلها شيءٌ، لتراني، لكنها توارت عني لأنها سـارت يمينًا في الأرض الواسـعة وسـرتُ بين الحارسـين يسارًا في الممر الضيق، الملتفّ على جانبيه السلكُ الشـائكُ الكثيـف. لا أعـرف لماذا علقـتْ صورتها هـذه في ذهني، وهـي تمضي مبتعدةً عنـي، فظللتُ زمنًا طويـلًا أتذكَّرها بها ورأيتها على هذه الهيئة في منامي مراتٍ، أثناء وجودي في لندن. في نفوسنا مسارب ودهاليز، تستعصي على الفهم والتفسير.

عنـد بـاب العنبر وجـدتُ الحـراس يخرجون بعـض المعتقلين للجلـوس تحت الشـمس التي انزاحـت عنها غيومُ الصبـاح، وكان

من المفترض أن أخرج معهم فسألني الحارس «بيتر» إن كنت أريد الذهاب إلى الفناء المجاور، أم الدخول للزنزانة. فكان من الطبيعي ألا أختار الحبس. الجلوس في الشمس يفرِّج عن النفس الكرب، ويشعرنا على نحوٍ خفيٍّ بأن البعيد قريب. رأيتُ «الدنقلي» يجلس بالقرب مني فسلَّمت عليه، وسألته إن كان قد تلقَّى رسائل أسرته التي وعده الضابط مايك بإيصالها إليه، فردَّ عليَّ بلسان المسكنة: يقولون سأستلمها غدًا.. بعد هدأة دافئةٍ، سألته إن كان يعرف المكان الذي يسمونه هنا «إجوانا» فقال وهو يبتسم: *طبعًا، الكل يعرفه، يا سلام عليه ده النعيم والهنا كله!*

- *يعني إيه؟*

- *يعني زي ما قلت لك، النعيم والهنا.*

كيف يكون النعيم في قلب الجحيم؟! لعل «الدنقلي» لا يعرف، ويهرف بالتخاريف. لا بأس، نصبر ونرى ما يكون. لكن الظاهر أنني أثرت فضول الدنقلي، فقد التفت نحوي فجأةً كأنه تذكَّر شيئًا وسألني عن سبب اهتمامي بإجوانا وإن كانوا هنا قد وعدوني بشيء، فقلت إنني سمعتُ الاسم فاستغربت معنى كلمة «إجوانا» فردَّ بأنه لا يعرف أيضًا معناها، وانصرف خاطرُه عن الأمر وراح يحدثني هامسًا عن اشتياقه لغفوة القيلولة في بيته المشرف على ضفة النيل، وأخذ يصف لي البيت وجنباته ومنظر الغروب من شرفاته الواسعة، وغير ذلك من التفاصيل التي ذكرها لي من قبل مراتٍ كثيرة.

باغتني خاطرٌ فاستجبتُ له وقُمتُ إلى أقرب الحراس موضعًا، وأخبرته بأني أريد مقابلة الدكتورة سارا، فقال إنه سيبلغها بذلك.

عـدتُ إلـى جلسـتي متجاهـلًا النظـرة المسـتريبة التـي رمقنـي بها «محب الحـور» وعندما اقتربتُ منه عند عودتنـا إلى العنبر، قلت له قُرب الباب باقتضاب إنهم يسـاومون في إطلاق سـراحي؛ شـريطة أن أتعهـد بعـدم مطالبتهـم لاحقًـا بـأيٍّ تعويـض، فجاوبني بلسـان الاستسلام: يفعل الله ما فيه الخير، والعوضُ على الله.

قبل موعد الغروب بسـاعة، أخذني من الزنزانة حارسان لمقابلة «سارة» فخرجتُ إليها فرحًا بلسعات النسيم الغروبي البارد، وبالسير بين الحارسـين بلا سلاسل، وبخروجي من الزنزانة ثلاث مراتٍ في يـوم واحد. كانـت تنتظرني فـي النصف الآخـر من الغرفـة، وحين دخـلْتُ نظرتْ نحوي باسمةً وسألتني عن أحوالي فقلتُ إنها بخير. أغلقـتِ الملـف الذي كان بيـن يديها الناعمتين وقامـتْ عن مكتبها فجلسـتْ على الكرسـي القريب مـن القضبان الفاصلـة وهي تقول إنها سـعيدةٌ لأنني طلبتُ مقابلتها، ثـم نظرتْ نحوي منتظرةً أن أدفع عنـي التردُّد وأُفصح عما أريد. ما الـذي أريد؟ لعلني أود أن أجعلها شـاهدًا على ما يجري! ربما. قلتُ لها إنني وقَّعت صباح اليوم على التعهـدات القانونيـة التي طلبها مني «مارتن» تمهيـدًا للإفراج عني، ولما أجابتني بأنها خطوة جيدة، تشجَّعتُ واندفع مني الكلام:

- *هل تعتقدين يا سيدتي أنني سأخرج من هنا قريبًا؟*

- *أرجو لك ذلك، وأتمنى الخير لك.*

- *شكرًا، لكنني حائر وعندي بعض الأسئلة..*

- *أوكّي، تفضل.*

- *ما معنى إجوانا؟*

عـادت بكتفيهـا إلى ظهر الكرسـي الأسـود، وأمسـكتْ بطرفي القلم وقالت وهي تنظر إليَّ باهتمام إن الإجوانا صنفٌ من السحالي متفاوتـة الحجـم، والمشـهور منهـا لونه أخضـر. وأما عنبـر إجوانا الموجـود هنـا، فهو مـكان مريح نسـبيًّا يقضي فيـه المعتقلـون فترةً انتقالية قبل الإفراج عنهم، إذا لم يكن قرار إطلاق سـراحهم مرتبطًا بتسـليمهم إلى سلطات الأمن في بلادهم. تمنيتُ لو أفاضت، لكنها اكتفـتْ بما قالته ونظرتْ نحوي منتظرةً ما سـوف أقولُ، فقلتُ إنني مرتبكٌ وحائر.

- *هذا شعور طبيعي بعد عدة سنوات من الاعتقال.*

- *أنـا يا سـيدتي تـم اعتقالي بطريـق الخطأ. وأعتـذرُ عن قولي: «سيدتي». هل الصواب أن أدعوك «الضابطة»، أم «الدكتورة»، ماذا تفضلين؟*

- سارا، فقط، هذا هو اسمي.

- *عفـوًا، لكنهـم قالـوا إن لـك رتبة عسـكرية، مع أنـك ترتدين الملابس المدنية.*

- *نعـم، هـذا نظرًا إلـى طبيعة عملـي. فالملابس الرسـمية تضع حاجزًا نفسـيًّا بيني وبين الحالات التـي أتعامل معها، وتقلِّل درجة الثقة المطلوبة للعلاج.*

- *هل أنا مريضٌ نفسي؟*

- *لا أظـن ذلـك، لكنـك تحتـاج بعـض الرعايـة لاسـتعادة ثقتك بنفسك.*

- *أنا أثق بالله.*

- *لا بأس، هذا جيد لك.*

ما أردتُ أن أُثقل عليها، لكنني لم أستطع الصبر على ما يستبدُّ بداخلي من القلق، فقلت لها إن لديَّ سؤالًا أخيرًا ولن أزعجها بعد ذلك. ولما أومأتْ راضيةً قلتُ لها إنني سألتها من قبل عن أخبار زوجتي، فأخذت تحدِّثني عن عموم النساء. فلماذا؟ قالت أنها لا تعرف شيئًا عن أخبارها، لكنها أرادت بحديثها أن تخفِّف عني بعض الضغط الذي أعانيه. سكتتْ لحظةً ثم أضافتْ ما ترجمته: إنها في إجازتها السابقة شاهدت فيلمًا سينمائيًّا مأخوذًا عن رواية خيالية شهيرة عنوانها «الإغواء الأخير للمسيح» وفيها يفترض المؤلِّف أن يسوع المسيح تزوَّج مرتين! ولما ماتت زوجته الأولى وهي حُبلى، صرخ غاضبًا فجاءت إليه الطفلة الصغيرة التي كان يظن أنها ملاك، لكنه سيعرف في النهاية أنها الشيطان. وفي هذا المشهد البديع من الفيلم، تدخل الطفلة على يسوع المنهار لفقدان زوجته الأولى، وتضع يدها برفق على كتفه وتخبره بأن موتها المفاجئ هذا، كان رسالةً من أبيه الذي في السماء. رسالةً تقول: *توجد امرأةٌ واحدةٌ فقط، امرأةٌ واحدةٌ، لها وجوهٌ متعدِّدةٌ تتجلَّى في النساء.*

.. لماذا تحكي لي كل ذلك، وماذا تريد أن تقول؟ عدت من عندها شارد الذهن. قضيتُ ليلتي على سرير الوساوس، حتى أطلَّتْ شمسُ النهار خارج العنبر وجاء الحراس بطعام الإفطار، فسألتهم عن موعد ذهابي للتحقيق فقالوا إنهم لا يعرفونه. وفي وقت الضحى أتاني منهم اثنان أخذاني إلى «مارتن» الذي بدأ كلامه معي، بالإنجليزية، بأن قال إن التقارير المكتوبة عني خلال هذه السنوات الخمس الماضية معظمها جيد، وهذا في صالحي،

ولسوف يساعد كثيرًا على تسهيل إجراءات الإفراج عني.. ذهب إلى النقطة الأدق، وبدت على ملامح وجهه الصارم آثار الترفُّق وهو يقول: أعرف أنك تنتظر مني أخبارًا عن زوجتك، ولكن لا توجد لدينا أي أخبار عنها منذ فترة، فقد هربت من الدوحة مع عشيق لها بعد اختفائك عن الأنظار بستة أشهر

- *لا، لا يمكن أبدًا. لا يمكن أبدًا. عشيق إيه؟ يعني إيه عشيق؟! المعلومات دي غلط، كلها غلط.*

- *إهدا شوية*

- *يعني إيه إهدا؟ الكلام ده لا يمكن يكون صح. مهيرة في الدوحة أنا عارف. أو يمكن تكون رجعت لأهلها في بخارى.. أو يمكن ..*

- *لأ، هيَّ هربت فجأة مع الراجل ده، وراحت للجزائر، وكان صعب متابعتها هناك.*

- *وهيَّ تهرب أصلًا ليه؟ أكيد خافت من حاجة.. راجل مين؟*

- *اسمعني ..*

مَدَّ يده في حقيبته وأخرج ببطءٍ ملفًّا فيه أوراقٌ قليلةٌ وبعض الصور، وبدا من ملامحه أنه سيصدمني بقولٍ ثقيل.. استرْ يا رب العالمين. متمهِّلًا، أخبرني وهو في الواقع يذبحني، بأن مهيرة بعد قرابة شهرٍ من انقطاعي عنها، ذهبتْ إلى مقر عملي بالدوحة لتسأل عني وتستطلع الأخبار، فمنعها حراسُ البوابة من الدخول إلى حين حصولها على إذنٍ بذلك. وقد تعاطف معها أحد أفراد الأمن، وحصل لها بعد أيام على هذا الإذن، ثم صار يراعيها في وحدتها

ويصحبها لقضاء حوائجها. وهو الذي نصحها بالإسراع بتوصيل خط التلفون في شقتها، وساعدها على عمل ذلك، وظل يوالي الاتصال بها يوميًّا. وهو الذي قدَّم الأوراق المطلوبة وحصل لها على موافقة جهة عملي بصرف نصف راتبي، وكان يرافقها لصرف المبلغ ولتقديم الاستفسارات إلى السفارات الباكستانية والسودانية لمعرفة مصيري المجهول. وأثناء ذلك، أخذ يتردَّد عليها في شقَّتها مرةً بعد أخرى، ثم صار يصحبها معه إلى شقَّته وهي متخفية خلف نقاب، ويقول لجيرانه إنها أخته المسافر زوجها في مهمة وظيفية.

- *وكيفْ عرفتم كل التفاصيل دي؟*

- *كُنا نراقبها للحصول على معلومات عنك، المهم أن العلاقة بينهما تطورت.*

- *تطوَّرت! يعني إيه تطوَّرت ؟*

«تطوَّرت يعني تطوَّرت». تنهَّد مارتن وهو يقول ذلك وقد بدت عليه علامات الملل والضيق، فخشيت أن يقطع كلامه ويتركني غارقًا في ظلام راح يغوص في دماغي. أسرعتُ بسؤاله عما حدث بعد ذلك، وهل هذا الشخص قطري الجنسية، وما الذي انتهى إليه أمرهما؟ فتنهَّد ثانيةً قبل أن يقول ببطءٍ إن القطريين لا يعملون حراسًا أو أفراد أمن، هذا الرجل جزائري كان يعمل بالدوحة منذ سنوات، وهو لم يكن خاضعًا للمراقبة ولذلك كانت مفاجأة أنهما بعد مرور ستة أشهر على هذه العلاقة، خرجا يومًا إلى المطار في الصباح الباكر وسافرا إلى الجزائر، كهاربين، حتى إنه لم يتسلَّم مكافأة نهاية الخدمة. وصار من العسير تتبُّع أخبارهما بعد ذلك، خصوصًا أنه سكن بها في الجنوب، وليس في العاصمة.

- *يعني إيه سكن بها؟*

- *يعني مفروض تنسى الموضوع ده.*

- *أنسى مراتي!*

- خلاص، هيَّ مع راجل تاني دلوقتي. الأسطوانة دي عليها كل المكالمات التلفونية اللي تسجِّلت لهم لما كانوا في الدوحة، ودي صور لهم في مرَّات وأوضاع مختلفة، تقدر تشوف الصور، إتفضَّل..

غامت عيناي حين حدَّقتُ في الصور الذابحة التي وضعها «مارتن» أمامي على الطاولة، حتى صرت أنظرُ إليها ولا أرى. لكنني عرفتُ وجه الرجل الذي هربت مهيرة معه، فهو الذي رأيته في صورة منذ سنواتٍ وظننته هنديًّا. وأدركتُ فجأةً لماذا وصف المحققُ زوجتي مهيرة بالعاهرة، فهجمتُ يومها عليه مثل ثورٍ أهوج ونطحتُ رأسه. يا ألله.

ازداد الظلامُ فيَّ حتى حجب ما يحيط بي، طوَّحني عني، وأخذني مني إلى حيث لا أعلم. لا أعلم بما جرى بعد ذلك، ولا أدري كيف عدتُ إلى الزنزانة. فالزمنُ توقف عندي، والوعيُ، وكل ما أذكره هو وجه حارس يقول لي: إذا لم تتناول الطعام فسوف نأخذك إلى كرسي التعذيب .. وأذكرُ أيضًا أنني جلستُ مرةً تحت الشمس أنزف ما تبقى من رحيق روحي، فسألني «محب الحور» عمَّا بي فأجبته ودموعي تسحُّ، بأن امرأتي خانتني وهربتْ مع شابٍّ جزائري، فقال: تبكي على امرأة خائنة، يا أخي ابكِ على حال الإسلام والمسلمين! وكان ذلك هو آخرَ ما سمعته منه، وآخرَ

مـرةٍ بكيتُ فيهـا أمام رجل آخـر.. وأذكرُ أن الحـراس احتفلوا بيوم الكريسـماس وبدخـول العـام ٢٠٠٨ فكانوا يتحركـون أمامي ومن حولـي كأشـباح، لا يصلنـي من صوتهـم إلا الصـدى.. وأذكرُ أنني بقيتُ أيامًا في العيادة مقيَّد الأطراف، وفي ذراعي طرف أنبوبٍ دقيق موصلٌ بكيسٍ شفَّاف فيه سـائلٌ شفَّاف.. وأذكرُ أنني رأيت دواماتٍ حمراءَ وزرقاءَ تبتلعني، ورأيت امرأةً نائمةً في سماءَ رخوة ليس فيها نجومٌ ولا قمرٌ ولا شـمس، ورأيت أبي يسـير خلفي في جنازة فقيرة وكنتُ أنا الميت الذي يشيِّعون.

بعد حينٍ من الدهر استعدتُ ذاتي وعدتُ رويدًا إلى هذه الحياة، وكان ابتداءُ ذلك يومَ قالت لي الممرضة إن الدكتورة «سارا» زارتني بالأمس في العيـادة، وكانت تريد الحديث معي لكنني كنتُ أهذي، ولا أحوِّل نظري عن المصباح الذي بسقف الغرفة. آه، تذكَّرتني، أنا السـجينُ هنا منذ سـنواتٍ، ظلمًا، وكنتُ سـابقًا أعيشُ بمصر وأزورُ السـودان، وفي زمنٍ جميل أحببتُ فتاةً اسـمها «نـورا» كانت عيناها تفيضان نورًا وتلمع بألَقٍ سـاحر، وكنتُ متزوِّجًا ذات يوم، وكان لي قديمًا اسـمٌ يناديني بـه أهلي والمحيطون بي وزملاء الدراسـة. ماذا كنتُ أدرس، وماذا كان اسمي؟

اسـتفاقتي لم تستمر إلا لحيظاتٍ عاودني بعدها الغرقُ في البحر المظلم، فلم أعد أسـمع غير تلاطم الأمـواج البعيدة.. ألا يوجد في هذا القاع العميق، سواي!

الحضرة

أتراني كنتُ هنا حين مسَّ الشيخُ «نقطة» ذراعي بطرف عصاه ليوقظني، فوجدته يقف قرب رأسي كنخلةٍ عالية، أم كنتُ هناك حين ترحَّل ببطءٍ عني، فلحقتُ به لاهثًا وحاولتُ إيقافه لأبثه بعضًا من شكواي، وشيئًا من تباريح الألم؟ أين كنتُ لما أشار إليَّ بأن أسكتَ، فسكت، ومضى فسريتُ خلفه حتى دخلنا أفقًا لا أرضَ فيه ولا سماء، فكان الكونُ مليئًا بألوانٍ تتموَّج في ضياءٍ مبهرة للبصر، أو هي بالأحرى محيِّرة للنظر.. انتظرتُ أن نصل بعد السير إلى مستراحٍ، فسمعتُ الشيخ يقول: استكمل السير، فمن ظنَّ أنه وَصَلَ فقد كفَرَ. فأطعتُ الأمر الذي سمعتُ، وعند ناحيةٍ قاصيةٍ في قلب هذا اللامكان، تلاشى الشيخُ من أمامي رويدًا فتحيَّرتُ حينًا ووقفتُ حتى رَفَعتني عني الألوانُ المنيرة، فحلَّقتُ فوق ذاتي بأجنحة التوق إلى سماء السكينة.

في فضاءٍ شفَّافٍ لا لون له، ولا ضوء فيه أو ظلام، سمعتُ أصداءً تأتي إليَّ متداخلةً من الجهاتِ السبعِ؛ الأربعةِ الأصليةِ والفوقِ

والتحتِ والجهةِ الجوانية. الأصداءُ تهمسُ في خلاياي بعباراتٍ لم أسمع بمثلها من قبل: لا رتقَ لك إلا بعد الفتق.. النهاياتُ عودةٌ للبدايات.. حياتُك مسبعاتٌ.. الخيالُ خيلٌ لها المدى الممدود مجال. ورأيتُ آياتٍ مكتوبةً في سماء الدخان، غير تلك التي عرفتها في مصحف القرآن. فأدركتُ معنى قوله تعالى: ﴿لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مددًا﴾.

- كيف حالك يا برسّ؟

قالت الدكتورة «سارَّة» ذلك وهي تقف قرب سريري مبتسمةً، فاجتهدتُ حتى استجمعت ذاتي لأستطيع الكلام معها، لكنني ما قدرتُ. مدَّت كفَّها إلى جبهتي، ومسَّتني، ثم سمعتها تقول للممرضة الواقفة بجوارها ما ترجمته: هو الآن أفضل حالًا، وحرارته انخفضتْ، أخبريني حين يفيق.. سارت بعيدًا وصار صوتها كالصدى، واختفت المشاهدُ من حولي، فعدتُ إلى حيث كنتُ. وعَمَّ السكونُ.

۞ ۞ ۞

ناداني من خلف الحجاب صوتٌ قاهرُ النبرةِ، من شأنه أن يدكَّ الأركان، قال لي: اخلعْ نعليك. قلتُ: أين شيخي؟ قال: لا رضاعَ بعد الحولين. همتُ في المعنى وتحيَّرتُ حتى فهمتُ أن نعليَّ هما البدن والروح، فأحرقتُ بدني بنيران روحي ولما خمد اللهيب تركني في لبسٍ من الخلْق الجديد.. نُوديتُ: أقبلْ، فاقتربتُ. اسجدْ، فجثوتُ. استقمْ، فتناثرتُ. تعالَ، فعلوتُ. ورأيتُ الدنيا كرةً تدورُ

في راحة يدي. وكان كثيرٌ من أهلها يبكون، وكثيرٌ يضحكون، وكلهم تائهـون في دروب ضيقة. ورأيتُ «مهيرة» تتعـرَّى في حانةٍ أوزبكيةٍ وهي مصبوغة الوجه بألوانٍ مفجعة، وقد صار عودها نحيلًا كالخبز القديم، ويابسًا كاللحم القديد. ورأيتُ امرأةً نوبية مليحة القسمات تغسل ملابس أطفالها في نهرٍ يشبه النيل، ماؤه مثل الحليب.

- صباح الخير، هذا وقت الدواء.

- شكرًا، أنا أشعرُ بالجوع والعطش.

- أوكَّـي، هذا جيـد. خُذ الدواء أولًا وسـوف أُحضرُ لك الطعام بعد قليل.

لماذا تعاملني هذه الممرضة بهذا الرفق؟ ربما كان ذلك طبعها، وربمـا أوصوهـا بذلـك لأنهم لا يريـدون مزيـدًا من الموتـى. هذه العيادة ليسـت معهودةً بالنسبة إليَّ، ومختلفةٌ عما رأيته سابقًا. فليس فـي هـذه الغرفـة البيضـاء إلا سريري، ولا يوجد بجـواري مرضى آخرون. لكن الأصـوات الخافتة الآتية من خلف الحوائط المعدنية الرقيقة، تشـي بأن هناك غرفًا أخرى وأقدامًا تسـير في ممرٍ قريب. لا بد أنها مستشفى كبير، لا العيادة الصغيرة التي تداويتُ فيها من قبل، ولا بد أنني مريضٌ جدًّا.. تُرى، ما هو مَرَضي؟

مهيرة. لم تصبر على غيابي غير شـهرٍ، وعرفتْ رجلًا وهي على ذِمَّتـي. أنا لا ذِمَّةَ لي ولا مقدرة على شـيء، إلا البقـاء حيًّا، أو الفناء وأنـا حيّ. أنا مفقودٌ. الرجلُ الجزائري موجودٌ لأنه التقطها وهي بلا حصونٍ تسـترها وتسترني، فاستباح أول عابرٍ أرضها. العلاقة بينهما تطوَّرت، وتطوَّرت يعني تطوَّرت. فما ذاك الذي كان بيني وبينها؟ لم

يكن بيننا أي شـيء، إلا أوهامي وظنّي أني سـيدها وراعيها الوحيد، وأنهـا كل أغنامـي. ما أغنى الوهمَ والظنَّ. كانـت حين تقترب برفق وتجلس بين أقدامي وتُقبِّل ركبتي، تشعرني بأنني متسيدٌ وعالٍ، مثل تماثيل رمسيس الثاني الجالسة عند مدخل معبده بجنوب أسوان. ما عدتُ سـيدًا. لمهيرة بعد غيابي سيدٌ آخر يعلو عليها، ويعتليها وقتما أراد، ويرجُّ جسـمها المستسلم فيطفئ فيها ظمأ صحرائه الجزائرية. مهيرة صارت مِطفأة، وأنا صرتُ..

- *هذا طعامك.*

- *شكرًا، لكنني فقدتُ شهيتي..*

- *لا. لا بد أن تأكل، هذا أفضل لك بكثير من هذه المحاليل.*

- *هل يمكنكِ نزع هذه السلاسل عن يدي؟*

- *للأسف، لا. هذا ليس من سُلطتي، أنا فقط ممرضة.*

ساعدتني الممرضةُ البدينةُ فدسَّت في فمي بعض الطعام المؤلم، ثم قالتْ: لا بأس بذلك الآن، ولكن عليك شُـرب هذا العصير كله، فهو مفيدٌ جدًّا لك. نعم، اشربِ الكوب كله.. لا، لا تترك شيئًا منه.. سـألتها إن كانت الحبّـات التي قدمتها لي مع المـاء، منوِّمة؟ فقالت إنهـا مقوِّيات، وفيهـا مهدئات. أزلقـتُ الحبوب الأربـع في جوفي ببعـض ماء، وتهيَّأت للنوم من جديد وفي خاطري الحديث النبوي: الناسُ نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.

❁ ❁ ❁

فتحـتُ عينـيَّ فوجـدتُ ضـوء النهار يمـلأ الأنحاء مـن حولي، ويشجِّع على النهوض. حاولتُ القيام عن السرير فعاقتني السلاسل.

تأوَّهتُ من دون قصدٍ، فجاءتني على الفور الممرضةُ يرفُّ بجانبيها الـرداءُ الأبيـض الواسـع، وسـألتني عمـا أريد، فسـألتها عن سـبب تقييدي وأشـرتُ إلى السلاسل التي بيديَّ، فابتسمت وهي تقول إن هـذا إجراءٌ وقائي. آه، هذه ليسـت الزنزانة، أنـا محبوسٌ في العيادة. وقد اختلف شكلها عن آخر مرة دخلتهـا محمولًا على مـحفَّة.

- *هل تشعر بالجوع؟ أتريد أن تأكل؟*
- *نعم، أستطيع.*
- *أوكّي، اشـربْ هـذا الحليب حتى أحضر لك بعـض الفاكهة، وأتصل بالدكتورة سارا.*

احتسـيتُ مـا بكـوب الفلِّين وأكلـتُ على مهـلٍ قطـع الفواكه، فذهـب عني جفـافُ حَلْقي ولكنني بقيتُ شـاعرًا بالعطش. جاءتني الممرضة بماءٍ شـربته، واستويتُ جالسًـا في انتظار سارَّة. تأخَّرتْ، فأخذتني سِـنَةٌ مـن النعاس الناعم المميل لرأسـي، إلى أن سـمعتُ صوتها الرنان:

- *هاي، كيف حالك الآن يا برسٌّ؟*
- *بخير، لكن هذه السلاسـل والأنابيـب الطويلة تضايقني كثيرًا، قولي لهم يخلصوني منها. لو سمحتِ.*
- *أكيد، سأفعل. ولكن دعنا أولًا نطمئن على حالتك.*
- *أنا بخير. ولكن متى جاءوا بي للعيادة؟*
- *من بضعة أسابيع، استرحِ الآن ولا تجهد ذهنك.*

ماذا حلَّ بي، ومِمَّ أستريح؟ كدتُ أسألُ «سارَّة» غير أني تذكَّرتُ فجـأةً كل مـا كان من أمـر مهيـرة، وهروبها مع الجزائـري، وهواني

بعـد مهانتهـا لـي. سـالتْ مني دمـوعٌ لم أستطع منعها. هـل فعلت مهيرةُ ذلك، حقًّا؟ كأن سـارَّة كانت تتوقَّع ما رأته مني، فقد جلسـتْ بهـدوءٍ على مقعد قبالة السـرير، وظلت تنظر إلـيَّ حتى نظرتُ إليها وقلتُ: آسف.

- *لا بأس، أعرف ما تعانيه، مارتن أخبرني.*

- *أخبركِ بفضيحتي..*

- *لا تبالغ، أنت لم تفعل شيئًا يفضحك.*

لـم أجـد ردًّا علـى كلامهـا، فأغمضـتُ عينـي لأسـمعها علـى هـونٍ وهـي تقول مـا ترجمتـه: إن الحياة مليئـة بالمفاجآت السـارة والمحبطـة، وعلينا أن نتقبَّل هـذا وذاك. فتحتُ عيني ونظرت إليها، لكنني لـم أسـتطع التبسـم وأنا أقول لها سـاخرًا إن حياتي مليئة فقط بالمحبطات، وليس فيها مفاجأة سـارَّة.. بلسـان المواسـاة تحدَّثت كالأمهـات قائلـةً: هـذا غير صحيـح، فقد استعدت وعيـك بعدما يئسـوا هنا من حالتك وتوقعوا دخولك في غيبوبة دائمة، وهذا شيءٌ سـارٌّ. وعندما تسـتردُّ صحتك لـن تعود إلى عنبر «ألفا» بل سـتكون في معسـكر إجوانا، وهذا شـيءٌ سار. وسـوف أتولى بنفسي متابعة حالتك النفسية؛ حتى تتهيَّأ لإطلاق السراح..

- *حقًّا، هل ستفرجون عني؟ .متى؟*

- *قريبًا، لكن عليك أولًا أن تستعيد صحتك.*

- *أكيد، سأفعل ذلك.. ما الذي كنتُ أعاني منه؟*

- *لا شـيء خطيـر. كانـت صدمـة نفسـية، وعنـدي ثقـة بأنـك سوف تجتازها.*

سألتها عما يجب عليَّ القيام به كي أقوم من رقدتي سريعًا، فأجابتني بأن الأمر يسير: تناول طعامك، ولا تفرط في التفكير بما جرى سابقًا، واستبشر بالآتي.. عرفتُ من الممرضة في الصباح التالي، أنني في العيادة منذ أكثر من شهرين، قد أمضيتُ هذه المدة أهذي هذيانًا مستمرًّا، وسبب نحولي هو عزوفي عن الطعام والإغماء المتواصل، حتى إنهم اضطروا إلى حقني. كيف لا أذكر ذلك كله؟ لا أدري.

بعد يومين زارتني «سارة» وأخبرتني أنني أتماثل للشفاء بسرعة، حسبما تقول التقارير، وأنها سعيدةٌ بذلك. طلبتُ منها أن يحرِّروني من السلاسل، فقالت إنهم يخشون قيامي بأي عمل متهوِّر. استفسرتُ منها عما تقصده، فقالت بصوتٍ خفيض: أقصد إقدامك على الانتحار.

«أستغفر الله، هل أخسر آخرتي؛ لأنني خسرتُ دنياي». قلت لها ذلك، فابتسمتْ وهي تقول بنبرةٍ رقيقةٍ إنها سعيدة بكلامي هذا، وسوف ينزعون عني السلاسل بعد يومين إن بقيتُ هادئًا؛ لأن هذا مجرد إجراء احتياطي. وسكتتْ لحظةً ثم قالت: لا تظن أنك خسرت دنياك، فالعمر لا يزال ممتدًّا أمامك، وسوف تعوِّض الفترة التي تم اعتقالك فيها، ثقْ في كلامي..

حدثتُ نفسي بعد خروجها، مغالبًا هواجسي: ما الذي يضيرني إذا صدَّقتُ سارَّة؟ هي تبدو صادقةً، وليس عندي ما أخشى فقدانه، ولا يوجد أشنع مما مررتُ به في السابق. ولا أظنها تسعى للإضرار بي، فهي ليست مختلَّة كغالبية قومها، ولا مآرب لها. هي طبيبةٌ

تسعى لشفاء الناس من الخلل النفسي، ولا خلل عندي، عندي إيمانٌ وبقيةُ صبرٍ وأملٌ في رحمة الله، وسيجعل الرحمانُ لي من بعد هذه العسرةِ يسرةً، فهو تعالى القائل: ﴿وبشِّر الصابرين﴾ وقد وعدتني سارَّة بعدم العودة إلى عنبر البؤس الذي ظننته يومًا جحور رحمةٍ، وظننتُ فيه أنني بين إخوة. لا إخوة لي هنا. المعتقلون ليسوا مني ولستُ منهم، أهلي وإخوتي في القاهرة حسبما قال المحقِّقُ، ولا أظنه كان يكذب. ولماذا سيكذب عليَّ بعدما اعترف لي بأنهم تورَّطوا فيَّ؟ كأنه كان يؤكِّد أنهم سيطلقون سراحي بعدما علموا حقيقة الحال، وأدركوا أنهم كانوا يطاردون السراب. سأسأل غدًا عن «مارتن» وأطلبُ لقاءه لأستفهم عما كان يقصده، حين ذكر لي أن الإفراج يلزمه إجراءات. ما الإجراءات؟ وكيف نُسرع فيها؟ وفي أيِّ عامٍ نحنُ، وما تاريخ اليوم؟ لا، لن أترك نفسي تغوص بعيدًا عني، ولن أستسلم لإغواء الغياب. سأتلو في سرِّي الأوراد التي اعتدتُ تلاوتها، وأتهيأ للصحو والوجد بعدما استطال الفقد:

يا فتَّاح،

يا فتَّاح،

يا فتَّاح؛

افتح لنا بالخير، فأنت على كل شيءٍ قدير..

سألتُ الممرضة في الصباح، فأجابتني بأن اليوم هو الأحد الموافق للحادي عشر من شهر مارس، وسكتتْ لحظةً ثم قالت وهي تُميل رأسها وتحدِّق في عيني، كأنها تشكُّ في سلامة عقلي: سنة ٢٠٠٧ بالطبع! أردتُ تبديد شكوكها فيَّ، فقلتُ مازحًا

بإنجليزيةٍ رشيقة: إن السبعة رقم سعيد، لكن مارس إله الحرب عند الرومان، ويسميه الناسُ في السودان شهر الكوارث. ابتسمتْ لما التقطتْ إشارتي، وبشَّرتني وهي تمدُّ لي حبَّة دواءٍ واحدة: أعتقد أنك ستخرج من هنا قريبًا.

ں ں ں

انتظرتُ أن تأتي «سارَّة» لزيارتي لكن اليوم مَرَّ ولم أرها، فأنفقتُ الوقت الطويل في تصفح المجلات الثلاث التي قدَّمتها لي الممرضة. لم ينزعوا منها أي صفحات. قبيل الغروب قالت ممرضتي: إن الجو صحوٌ، فإذا أحببتُ فسوف تفتح لي الشباك القريب من سريري. «نعم، لو سمحتِ». فتحته لي وخرجتْ، فأخذتُ أُجيل بصري من بين قضبانه في السماء البعيدة، والسحابات العابرة التي راحت تتلوَّن باحمرارٍ قانٍ، تزايد حتى سطعتْ في الاسوداد النجومُ المؤنسة، وأخذني النومُ مني.

سمعتُ في منامي صوتَ موجٍ كسول، وشممتُ رائحة البحر. كأن هذا الشاطئ الصخري سكندري، وكأنني عدتُ شابًّا يافعًا واستعدتُ قميصي القديم الأصفر. يا فتَّاح. اخضرارُ هذا البحر يحيّرني، يناديني إليه، لكنني سأستعصمُ بالشاطئ لأنه الأسلم ولن أستسلم للخداع البديع. لو خضتُ فيه الآن فلن أُبحر وسأغرق سريعًا؛ لأن ذراعيَّ تمسكهما السلاسلُ. الإبحارُ يحتاجُ حريةً من السلاسل، ورفقة، وأنا وحيدٌ. امرأتي لم تعد لي. من دلَّ أعدائي على أني سهل المنال، واختراقي يسيرٌ؟ يا رب عفوك ورضاك، فقد أنهكتني حروبٌ لم أدخلها ولا خطر ببالي قتال. لا شيء في الحياة الدنيا يستحق القتال فهي لا تساوي جناح بعوضة، وكل مَنْ عليها فانٍ..

«كيـف حالك في هـذا الصباح الجميل؟» سـألتني سـارَّة بنبرةٍ حنـونٍ فأجبتها بأنني بخير، واعتدلتُ جالسًـا على سـريري بقدر ما سمحت لي القيودُ. قالت وهي تجلس على الكرسي القريب: بماذا تشـعر الآن؟ فقلتُ ما جعلها تبتسـم: أشعر بأنني منهك ومضطرب، كأني عائدٌ من رحلةٍ طويلةٍ، وخائفٌ من رحلة مقبلة.

– *هاه، أنت شاعر، ولغتك الإنجليزية ممتازة.*

– *فـي التحـدُّث فقط، وليـس في القـراءة والكتابـة. لأنني كنتُ أعمل مرشدًا سياحيًّا..*

– *أعرف، رأيتُ ذلك في ملفك.*

– *وهل رأيتِ فيه أنني محبوسٌ هنا ظلمًا.*

– *شـعرتُ بذلـك. لكنني طبيبة ولسـت محقِّقـة أو قاضية، ومن المهم الآن أن ننسى ما سبق.*

– *سأحاول، ولكن هذه السلاسل..*

– *أوكّـي يـا بـرسّ، سـأجعلهم يحرِّرونـك منهـا الآن، ولكن لا تجعلني أندم على هذا القرار.*

– *لن أجعلكِ تندمين، أبدًا.. ثِقِي في ذلك.*

لهذه الطبيبة السـارَّة سُـلطةٌ نافذةٌ هنا، ووقارٌ سامق، فقد أشارتْ للممرضـة البدينة بأطـراف أصابعهـا ونظرتْ آمـرةً، برفق، فذهبت الممرضة من فورها وعادت بعد دقائق ومعها حارسـان بيدِ أحدهما المفاتيـح. أخـذا عني سلاسـلي ووقفا قرب سـريري ينتظـران أمرًا جديدًا، فقالت لهما «سارَّة» كلمتين لا غير: شكرًا، انصراف.

مددتُ ذراعيَّ كأنني أرحّب بتحرُّري المفاجئ، وضممتُ ركبتيَّ إلى صدري وأحطتُ ساقيَّ بذراعيَّ. «شكرًا لكِ». قلتُ لها ذلك مشفوعًا بنظرة امتنانٍ وابتسامة، فردَّت وهي جالسة على كرسيها بسموٍّ ملكة مصرية قديمة: يمكنك أن تقوم عن سريرك، إذا أحببت، وسوف يأتي بعد ساعة حارسان ليأخذاك إلى معسكر إجوانا، بغير قيود، وسوف ترتاح هناك وتسترد صحتك بالكامل.

- *هل سأراكِ هناك؟*

- *أكيد يا برسُّ. ولن تسمى بعد اليوم «ستة سبعة ستة»، ستكون النزيل رقم ١٤ حتى تنتهي فترة التأهيل الضروري لإطلاق سراحك.*

- *أنا مؤهَّل لذلك من الآن.*

- *لا تتعجَّلْ.. أراك لاحقًا.*

تركتني سازَّةُ في الغرفة وحدي، فمشيتُ حول سريري بخُطى الطفل الذي يخشى الوقوع. وددتُ لو أفتح الشباك كي أرى السماء وأنا حُرُّ الحركة، غير أنني تريثتُ حتى تأتي الممرضة وتفتحه لي، بدلًا من القيام بفعلٍ قد يؤخذ عليَّ.

ن ن ن

جاءني في الصباح جنديان ليست لهما هيئة الحراسِ، أعطياني ملابس رياضية بيضاء لأرتديها قبل ذهابي معهما إلى إجوانا. بعد ارتدائي الثوب دخلت الممرضة وعبَّرت عن بهجتها بخروجي سالمًا من مستشفاها، وكانت متأثِّرَةً كأنني واحد من أقاربها.

شكرتها قائلًا: إن الفضل في شفائي يعود إليها، فردَّتْ عليَّ وعيناها تكادان تدمعان قائلةً ما ترجمته: شفاؤك معجزة من السماء، نشكر عليها يسوع المسيح.

«الحمد لله الذي أحيانا بعْدما أماتنا، وإليه النشور». بقلبٍ شاكرٍ سبَّحتُ في سري بهذا الحديث النبوي، لحظة خروجي من الغرفة وحولي الجنديان المهندمان، ولا سلاسل في يدي أو أكياس سوداء تحيط برأسي. هذا فعلًا مستشفى كبير وفيه غرفٌ عدة ومعدات طبية كثيرة، وكثيرون ممن يرتدون الزيَّ العسكري. ملابسي البيضاء الجديدة وحذائي الرياضي، اشتدَّ نصوعها حين خرجنا إلى الشمس الساطعة والسماء المطيَّبة بالنسمات البحرية النظيفة، المزيَّنة بقطع السحاب الهائمة مثل قطنٍ مندوفٍ يطير بلا أجنحة. أخذتنا السيارةُ المكشوفةُ إلى «إجوانا» فوصلناها بعد دقائق كان فيها الهواءُ يداعب جبهتي وجانبيْ وجهي، ويغسلني من هموم مُهلكة كادت تودي بحياتي. الله خيرُ حافظٍ وهو تعالى أرحمُ الراحمين. أسلمني الجنديان إلى ضابطٍ حوله عددٌ من الجنود، فمشيتُ معهم حتى دخلتُ هذا المكان الغريب الذي له من الظاهر هيئة الحبوس، لكنه في حقيقة الأمر أقرب إلى الاستراحات. قال الضابطُ ما ترجمته إن هذا المعسكر أنشئ أصلًا من أجل المعتقلين الأطفال الذين تقل أعمارهم عن الثامنة عشرة، ولما خلا من النزلاء في شتاء العام ٢٠٠٤ تمَّ إغلاقه، ثمَّ أُعيد فتحه في العام التالي ليكون مقر الاحتجاز المؤقت لكل شخص يصنَّف بأنه «لم يعد مقاتلًا معاديًا» حتى يتم الإفراج عنه. وأردف ذلك بأن المحتجزين هنا لا يتحركون مقيدين بالسلاسل، ويمكنهم المشي خارج العنبر المعدني والنظر

إلى المحيط في النهار، كما يمكنهم مشاهدة التلفزيون وقتما أرادوا أو قراءة الكتب المتاحة في المكتبة، وهذه الأحواض مخصَّصة لمن يهوى من النزلاء مزاولة الزراعة! وقال وهو يدخل بي من الباب المعدني إلى الممر النظيف:

- *هذا الباب يُغلق ساعة الغروب وكذلك الزنازين، لكن الأبواب كلها تُفتح صباحًا.*

- *هذا جيد، ولكن أين زنزانتي؟*

- *هذه هي. وبالمناسبة سوف تُعرف هنا برقم ١٤ مع أن الحراس أخبروني بأنك معروف هنا منذ سنوات بلقب «برّس». هل تعجبك الزنزانة؟*

- *وهل الأمر اختياري؟!*

- *ليس تمامًا، ولكن يمكن تغيير المكان إذا أردت.*

أردتُ أن أكون لطيفًا معه في أول الأيام القليلة التي سأقضيها هنا، فقلت ممازحًا إن الاختيار لو كان بيدي لفضّلتُ أن تكون الزنزانة مُطلة على النيل. فقال من فوره، وهو يضحك: هنا «الأمازون» هو الأقرب.

ظننتُ لحظتها أن أيامي هنا معدودات، فلم أهتم بالسؤال عن شيء، إلا هذه الأوراق البيضاء والأقلام الملوَّنة الموضوعة على الطاولة الصغيرة، فأجابني الضابط: هي لك، ربما أردت أن ترسم أو تكتب شيئًا، وإذا احتجت في الليل ضوءًا فهذا هو مِفتاح النور..

من عجائب ما جرى، أنني بقيتُ طيلة يومي في الزنزانة، المفتوحة، ولم أتجاسر على الخروج. نمتُ في أول الليل وصحوتُ

قبل رحيل آخره، وفي خاطري حنينٌ إلى كتابة الأشعار، فجلستُ إلى الطاولة وكتبتُ على الضوء الخافت:

كُلُّ هذا الفراغ، لي

ولي، أحلامٌ مثل حجر الرحى الدوار

وذكرياتٌ كالحجر الراسخ.

وأنا..

بين هذين الحجَرينِ مطحون.

في الصباح خرجت، متشجِّعًا بأصوات جيراني بالزنازين الأخرى. الذين كانوا يتحركون في الأنحاء كأنها بيوتهم. بعد عودتهم من التجوال الحر خارج العنبر، عرفت أنهم عشرة أشخاصٍ؛ تسعةٌ منهم لا يتكلمون بغير اللغة البشتونية، وواحدٌ فقط يعرف العربية. مع أنه بريطاني الأصل، وأشقر. وعرفتُ لاحقًا أن إقامتي بإجوانا قد تمتد شهورًا؛ نظرًا إلى ضرورة إتمام «البرنامج» الذي وضعوه لي، وغير ذلك من الوقائع التي تتالتْ.

كان النزيل البريطاني على وشك مغادرة المعسكر، وقد أُفرج عنه وعاد إلى بلاده بعد يومين من سُكناي «إجوانا» فلم تسنح فرصةٌ للحديث معه إلا في جلسةٍ واحدة لم تمتدّ طويلًا، لكنها كانت كافيةً لنتقارب ونحكي القصص. عرفتُ منه بعض ملابسات اعتقاله قبل ثلاث سنوات في «بيشاور» ثم بيعه بثمنٍ بخسٍ وتسليمه للأمريكيين. ولولا جهود المخابرات البريطانية ووساطتها مع الأمريكيين من أجله، لظلَّ منسيًّا هنا.. وساطةٌ وجهودٌ، ودام اعتقالُ

هذا المسكين ثلاث سنوات! فماذا عني. ولا واسطةَ لي، أو باذلَ جهدٍ لأجلي؟

النـزلاءُ الآخرون بإجوانا كان الغالب عليهم التوجُّسَ والحذر، ولا يعرفون من العربية إلا عبارات قليلة وبعض كلمات من مثل: السلام عليكم، شكرًا، الحمد لله، صلى الله عليه وسلم، صلاة، لا إله إلا الله.. فلم يتيسَّر لي الكلام معهم والتأسِّي بالاستماع إلى مآسيهم، وقد كنتُ أصلًا مشغولًا عن ذلك بحالي، وبالتفكير فيما يمكن أن تصير إليه أموري.

في الصباح الباكر من يومي الثالث، جلستُ في الركن الذي فيه الطاولة والكتب المتراصَّة على ثلاثة أرفف. عددها يقترب من الخمسين كتابًا بعدة لغات، لا يزيد العربي منها على عشرين. أمسكتُ بأول كتابٍ في الرف الأعلى، عنوانه: ابن سينا في سجن همذان، فوجدته يبدأ ببيتٍ شعريٍّ يقول: دخولي باليقين كما تراه، وكُلُّ الشكِّ في أمر الخروج.

أعدتُ الكتاب إلى مكانه لأنني لم أجد عندي باعثًا على قراءته، فأنا لا أعرف عن «ابن سينا» غير أنه كان طبيبًا مشهورًا، وفيلسوفًا ولن أحتمل وأنا المسجون، قراءة أيِّ شيء عن السجن والسجناء. كان بجانبه كتاب في أربعة مجلداتٍ، مزخرفة، توافق مع حالتي فقضيتُ ساعةً أقرأ فيه، حتى استدعتني الدكتورة «سارَّة» وفي الطريق إليها فؤجئتُ بأن غرفة مكتبها الفسيحة، قريبة جدًّا من موضع إقامتي الجديد. أمام بابها يقف جنديان في حالة انتباهٍ دائم. أدخلاني إليها فقالت مرحبةً وهي تدعوني للجلوس أمام مكتبها الكبير:

- صباح الخير، كيف حالك الآن يا برسّ؟

- بخير، الشكر لله. اسمي الآن رقم ١٤ كما قلتِ بالضبط من قبل.

- هذا ليس اسمًا. هو لمجرد التمييز بين الموجودين، وأنا أناديك «برس» لأنه أسهل بالنسبة إليَّ من نطق اسمك الأصلي.

- لا بأس، وقد كدتُ أنسى اسمي الأصلي على كل حال.

- لا تترك نفسك لهذه الأفكار الحزينة، وخصوصا أنك تتعافى سريعًا، وتبدو وسيمًا في هذه الملابس الرياضية، ولونها الأبيض يجعل سُمرتك رائقةً.. بالمناسبة، ملامحك هذه محيِّرة بالنسبة إليَّ، فلا هي زنجية صريحة ولا هي مصرية فرعونية!

- لا يوجد اليوم فراعنة، ولا صلة لي بالزنوج. فأبي من أصول عربية وأمي مصرية، وهذه السمرة من أثر الشمس.

- آه، نعم. وهذا يعطيك شكلًا مميزًا.

- لاحظتُ ذلك صباح اليوم في المرآة التي فوق الحوض، فوقفتُ أحدِّق فيها طويلًا.

- هذا التحديق الطويل في المرآة ليس جيدًا يا برسّ، فلا تفعله كثيرًا في هذه الفترة. ولكن أخبرني، ماذا رأيتَ في صورتك؟

أردتُ أن أقول لها إنني رأيتُ شبحًا لا أعرفه، ولا روح فيه، لكنني آثرتُ الابتعاد عن الكلام النَّكِد، فاجتهدتُ لأبتسم وأنا أجاوبها بما يليق بحالي ومقامها: رأيتُ وجهًا نحيلًا وعينين حائرتين! فردَّتْ

من فورها بأن ذلك متوقع في هذه الفترة «الانتقالية». وشدَّدتْ على هـذه الكلمة الأخيرة. سـألتها عن «مارتن» فأجابتنـي بأنه اتصل بها الأمس وسأل عني، وأكَّد لها أنه سيأتي قريبًا ليلتقي بي:

- *هل حدَّد موعدًا ؟*

- *لا ، ولكن أتوقع أن يأتي خلال شهر إبريل.*

- *ياه، بعد شهر!*

- *ربما قبل ذلك، فنحن في أواخر مارس.*

قالـت ذلـك وهـي تقـوم لتسير بخطى هادئـة حـول مكتبها، فغضضـتُ بصـري كيلا يتعلَّق بقوامهـا البديع، أو يعلو إلى شعرها المعصـوب حول رأسـها مثـل تاجٍ مـن الذهب الخالص. جلسـت قبالتـي وتكلَّمـتْ بجديةٍ ورفـقٍ، قائلةً إنها تدرك جيـدًا قدر معاناتي خـلال سـنوات اعتقالـي السـابقة، لا سـيما أنني عاصـرت هنا فترة الجنرال جيفري..

- *سمعتُ هذا الاسم من قبل، لكنني لا أعرف صاحبه.*

- *جيفـري ميلـر كان مديرًا لهذا المعتقل سـنة ٢٠٠٢ وهو اليوم متقاعد، ولكن هناك تحقيقات تجرى حوله الآن، وربما تجرى معه قريبًا.*

- *ومَنْ الذي يملك محاسبته؟*

«القانـون الأمريكـي». قالـت ذلـك بثقةٍ كبيـرةٍ وهي تعـود إلى كرسـيها الأسـود الكبيـر، وتعقـد كَفَّيهـا، وتضيـف وهـي تنظر إلى

السماء المفتوح عليها شباك الغرفة: طبعًا، أنت فكرتك سيئة عن أمريكا، ولك الحق في ذلك نظرًا إلى تجربتك المؤلمة. لكن غالبية الأمريكيين أسوياء، وليسوا من نوعية الجنرال «جيفري ميلر» الذي عُرف بقسوته الشديدة على المعتقلين في جوَّنتنامو، وبتوجيهاته المريعة للعاملين في سجن «أبو غريب» بالعراق. وقد اعترفت الجنرال جانيس كاربينسكي المشرفة على إدارة معتقل «أبو غريب»، بأن «جيفري ميلر» أوصاهم هناك بمعاملة المعتقلين كالكلاب، وباستعمال أشنع الوسائل للحصول على الاعترافات، بما في ذلك إطلاق الكلاب الشرسة على المعتقلين المقيدين، معصوبي الأعين. هذا عارٌ. لكن كثيرين كانوا يعارضونه، ومنهم صديقك «مارتن» الذي كان أيامها واحدًا من عملاء إف بي آي، وقد واجه «ميلر» وعارضه بشجاعة. والعام الماضي اضطر الرئيس للاعتذار عن هذه الممارسات غير الإنسانية، وأكَّد أن ما نُشر من صورٍ بشعة لوقائع التعذيب المريعة، لا يمثل إطلاقًا القيم الأمريكية. ولدينا قانون يمكنه ملاحقة أي شخص يُسيء استعمال سلطاته، وقد بدأت بالفعل تحقيقات موسَّعة حول الانتهاكات التي وقعت في المعتقلات الأمريكية خارج الحدود. ومن المحتمل استدعاء «ميلر» للتحقيق في فرنسا، أيضًا؛ لأن محاميَيْن هناك سوف يطلبان مثوله أمام قاضٍ فرنسي، في قضية تتعلق باعتقال مواطنَيْن فرنسيَيْن هنا، بدون سند قانوني، وتعرضهما للتعذيب خلال فترة إدارة ميلر..

كنتُ قد شردتُ بعيدًا عنها بخواطري، وأظنها لاحظتْ ذلك. فقد قطعتْ كلامها وسألتني بنبرةٍ رقيقة عما أفكِّر فيه، فقلتُ إن حياتنا فيها ظلمٌ كثير، ولم أزدْ على ذلك. فردَّت مواسيةً بأن علينا أن

نعمـل من أجل رفع الظلم عن الآخرين بقدر ما نسـتطيع، وسـكتتْ لحظةً ثم قالت: ما أكثر وقت شعرت فيه بأنك مظلوم؟

-- *الآن..*

لماذا؟

- *لأن الأوقات السابقة مضتْ وانقضت.*

الانتقال

أمضيتُ الأيام التالية في ترقُّبٍ وضجرٍ، فلم أهنأ بإقامتي الجديدة على الرغم من لُطف المكان وحُسن المعاملة، حتى الحراس الذين صاروا يراقبون من بعيد لا يتدخَّلون في شيء، إلا نادرًا. كأنني أقضي هنا فترة نقاهة. كنتُ أنتظر مجيء «مارتن» بصبرٍ قد نفد، وعبثًا كانت محاولاتي للتلهِّي بالمشي خارجًا أو بالنظر إلى زرقة السماء والمحيط أو بالقراءة الكسلى في المجلدات الأربعة لكتاب «إحياء علوم الدين» أو بغرس البذور في الأحواض.. الوقتُ صار متخمًا باللاشيء، فما عاد يريد أن يسير. وفي اليوم الأول من شهر إبريل استدعتني الدكتورة سارة، وسألتني بعد كلامٍ قليل إن كنتُ أريد الحديث عن هروب زوجتي، فرجوتها ألا تنكأ جراحي. هي لم تعترض، لكنها أشارت برفق إلى أهمية أن نتحاور في ذلك، وقتما أكون مستعدًّا. لم يستمر لقاؤنا طويلًا كسابقه، وعدت إلى مستقري فوجدتُ الأوراق البيضاء تنتظرني على الطاولة، فجلست وأخذتُ أكتب كلمةً واحدة: يا فتَّاح.. ظللتُ أكتبها حتى امتلأتْ

بهـا الأوراقُ، ثـم جعلـتُ الكلمات فـي مثلثاتٍ متفاوتة المسـاحة، ووصلتُ بين زواياها بخطوطٍ مستقيمة. جلستُ أنظر إلى الأوراق المتجـاورة وأدور بناظـريَّ بين الخطوط المتصلة، وقد اشـتجرتْ، حتـى أصابنـي الدوارُ فقمـتُ إلى السـرير ونمت بائـسَ الحالِ مثل كل الوحيدين.

مـرَّ أسـبوعان لا طعـم لهما، وفـي منتصف إبريل جـاء «مارتن» واستدعاني صباحًا فأسـرعتُ لأرى جديد جعبته، وسـكنتُ أمامه مترقبًا فأخبرنـي بلغتـه العربيـة، العامية، بـأن أحوال أمـي وإخوتي في القاهرة مسـتقرة وتسـير على ما يرام. طيب. وقال إن الأمور في الشـرق الأوسـط هادئة نوعًا ما، وما تزال الأوضاع هناك قائمة على ما كانـت دومًا عليه. طيب. أضاف أن طلبَ الإفراج عني نال معظم الموافقات المطلوبة لإتمامه، ولا يؤخره الآن إلا قراري أنا.

- *قراري، كيفْ يعني؟*

- *يعنـي لازم تختار، نسـلِّمك للمخابرات السـودانية ولَّا نرتِّـب لك الأمور بمعرفة الوكالة وتستقر بمصر؟*

- *يعني إيه بالضبط الكلام ده؟*

شـرح لي مـا يقصده بشـكلٍ مطـولٍ خلاصته أننـي أحمل جواز سـفر سـودانيًا، وهو الموجود اليوم في الملف الخاص بي، ومن ثم فالمفروض أن يتم تسـليمي لجهاز المخابرات في بلادي. فقلتُ له متألمًا: إنني خرجت بجواز السفر هذا من أجل العمل بالخليج مثل غيري من آلاف الناس، فكيف أرجع إلى السودان بعد سنواتٍ متهمًا بأننـي إرهابـي؟ ومعـروفٌ أن أجهزة الأمن لا تتعامـل برفق مع مثل

هـذه الحالات، وما دامت أسـرتي قد انتقلـت للعيش في مصر، فما سـبب تسليمي للسودان وليس فيها ما يربطني بها؟ قال: لو سلَّمناك للمخابـرات المصرية ها يحجزوك عندهـم فترة طويلة، وفي الآخر هايسلِّموك للمخابرات السودانية، يعني النتيجة واحدة..

- *طيـب ليه المخابرات أساسًـا، اتركوني في المكان نفسـه اللي اتخطفت منه عند حدود باكستان مع أفغانستان، وأنا أتصرَّف بعد كده.*

- *افهمنـي. المـكان ده دلوقتـي جحيـم، وبعديـن إنـتَ فاكر إن الأمن في باكسـتان هايرحمـك؟! لأ طبعًا، وفي الآخر برضه ها يسلِّموك للسودن بطريقتهم.*

- *طيب الحل التاني إيه؟*

- *تعال نتمشَّى بره..*

أخذنـي مارتن ولا حراسـة حولنا، ومشـى بي إلـى الناحية التي ننظر منها إلى المحيط. بقيتُ سائرًا بجواره حائرًا ومهترئًا مثل قطعة قمـاش بالية، وهو يخبرني بمـا ملخصه أنه يحاول مسـاعدتي بقدر المسـتطاع؛ لأنـه يعلم أننـي ظُلمت هنـا ويجب تعويضـي عن هذه الفترة، ولكن بشـكل غير رسـمي.. كيف؟ قال إنهم سوف يحذفون من تاريخـي فترة الاعتقال هذه، ويتابعون أمري حتى أسـتقر بمصر وأحصل على جنسيتها مثل بقيـة إخوتي، ويسـاعدوني بطريقتهم؛ بشـرط أن أبقـى على تواصل معهم بشـكل غير مباشـر وغير دائم.. يعني جاسـوس؟ قـال بحـزم إنهـم ليسـوا بحاجـة إلى جواسـيس بمصـر، فالعلاقة بيـن البلدين جيدة ولا مبرر الآن لزرع جاسـوس،

وأنـا لا أصلح أصلًا لهـذه المهمة لأنها لا توافـق طبيعتي.. يعني ما المطلـوب مني هناك؟ قـال ليس مطلوبًا منك أي شـيء محدَّد، كل ما في الأمر أنك سـوف تستقر هناك وتشـارك في الحياة العادية إلى حين الاحتياج إليك، ربما بعد سـنوات، وقـد لا نحتاج إليك أبدًا.. فلمـاذا تتعبـون أنفسـكم معي؟ قـال إن لذلك عـدة أسـباب؛ أولها حذف مشـكلة اعتقالي طيلة هذه السنوات؛ وثانيها تعويضي بشكل غير مباشـر عن الخطأ الذي وقع معـي دون الاضطرار للاعتراف به رسـميًّا؛ وثالثهـا أنه قد يأتـي وقت يحتاجون إليَّ فيه لتسـهيل بعض الأمـور.. يعني عميل؟ قال وقد بدأ يضيـق بكلامي، إنهم لن يطلبوا مني يومًا أي شيء يخالف ضميري أو ديني أو انتمائي للوطن. ونظر نحوي فجأةً وسـألني عن شـعوري بالانتماء الوطني، أهو للسودان أم لمصـر؟ فقلـت إن الاثنين عندي سـواء، ولـو لا النقطة الحدودية البائسة بينهما لصارا عندي بلدًا واحدًا.

بـدا غيـر مقتنـع بكلامـي الأخيـر، وأشـار إلـى مشـكلة إبعادي عـن مصر قبل سـنوات بعيدة. وهو ما كدتُ أنسـاه. ثـم قال إن هذه المشـكلة لم تعـد واردة الآن، بعد إقـرار قانون «الحريـات الأربع» الـذي يتيح لمواطني البلدين التنقـل فيما بينهما، والعمل في أي بلد منهمـا، بالإضافـة إلى حرية التملك والإقامة. تـمَّ توقيع اتفاقية هذا القانون بموافقة البلدين قبل ثلاثة أعوام، في شهر يناير سنة ٢٠٠٤، وتوجـد حاليًا بعـض المعوِّقات فـي تنفيذه بالكامـل، لكن ذلك لن يؤثـر عليَّ في شـيء. لأنني سـأحصل علـى الجنسـية المصرية بعد بضعة أسـابيع من اسـتقراري بمصر، وسـوف يتم ذلك بسـهولة مع مسـاعدة الأصدقاء هنـاك. هكذا قـال، فزاد من حيرتـي ولم أعرف مـا الذي يجـب أن اختاره، فسـألته إن كان من الممكـن أن يترك لي

مهلةً للتفكير؟ فقال من فوره: طبعًا، خذ وقتك، واطلبْ مقابلتي لما تستقر على رأي، بس المهم السرية..

- *يعني إيه؟*

- *يعني، بلاش تحكي مع حد في الموضوع ده. ممكن بس تاخد رأي الدكتورة سارة، علشان هيَّ المتولية ملفك الصحي والنفسي.*

- *طيب، ربنا يسهِّل.*

تركني «مارتن» أمام البوابة المفتوحة فدخلتُ من فوري إلى سريري واستلقيتُ عليه مسلوبَ التركيز، وشاعرًا بأن رأسي صار كالكرة التي تتقاذفها أمواجٌ كالجبال. قمتُ منتفضًا فجأة فأسبغتُ الوضوء وصليتُ ركعتي استخارة، عسى الله أن ينير لقلبي الطريق ويرشدني سواء السبيل. فما وجدتُ جدوى لذلك، ولا انقشعتْ عن قلبي الغيوم. كرَّرت الأمر في الصباح التالي فلم أحظَ إلا بالحيرة المفرطة، فليس في منامي أيُّ رؤى مبشرة أو محذِّرة. سبَّحت طويلًا بقوله تعالى: ﴿يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة من أمرهم﴾ على أمل أن أتلقى إشارةً، لكن الأبواب القلبية ظلت موصدةً أمام فيض السماء. استفتحتُ القرآن مرات، فكانت الآيات التي تقع عيني عليها لا تخبرني بأي شيء، وليس لها دلالة على أي طريقٍ. ماذا أفعل؟

ن ن ن

ماذا أفعل؟ سمعتُ الشيخ «نقطة» يقول يومًا لأحد جلسائه: مَنْ خيَّرك فقد حيَّرك! ثم راح الشيخُ ينظر إلى كل الجالسين، فردًا فردًا،

ويكـرِّر العبارة عسـانا أن نلتقط الإشـارة. لو عاد بـي الزمانُ، لبقيتُ ببـلادي الأولـى ولزمـتُ مجلس الشـيخ وعشـتُ في خدمتـه طيلة عمـري، بـدلًا من هـذا التجوال الذي لـم أنل منـه إلا الأهوال. ولا هول الآن أعظـم عندي من الاختيار بين الأمريـن اللذين يعرضهما «مارتـن» علـيَّ، فلو اخترتُ العودة إلى السـودان فسـيأخذونني من المطـار إلـى سـجن «كوبـر» الفظيع، فأصيرُ نسـيًا منسـيًا. وسـواح الدنقلـي قـال لي إن لديهم اليوم سـجونًا سـودانية ومعتقلات أفظع بكثير من «كوبر» ولا يدري أحدٌ مكانها.

لن يدري أحدٌ بمكاني. وإذا كانوا هنا قد احتاجوا سنوات طوالًا ليدركوا أنني بـريءٌ من تهمة الإرهاب، فهم هناك لن يكفيهم الدهر كلـه ليدركـوا ذلـك! ولن أرضـى بالاختيـار الآخر، فهو يبـدو نوعًا من العمالة والجاسوسـية مهما أسـموه بالألفاظ المنمَّقة: التعويض عـن فتـرة الاعتقال، التعـاون من أجـل المصلحة المشـتركة، مَدُّ يد المسـاعدة عنـد الضرورة.. هـذه كلها مجرد مقدمـات، ومن بعدها سـيطلبون المعلومـات مقابـل المال مثلمـا كانوا يطلبونهـا هنا عن طريق التعذيب، وسـيحرصون على أن أبقى دومًا في قبضتهم. وهم يعرفـون جيدًا مـن أين تؤكل الكتف، ويعلمون أنه لا حول لي معهم ولا حيلة، إذا أرادوا الإيقاع بي من جديد.

ماذا أفعل؟ لن أفعل أي شيء، فلا فائدة لأي فعلٍ ولا جدوى من خروجي إلى أيِّ مكان. سأبقى هنا، ففي باكستان والسودان ينتظرني الاعتقـالُ والريبةُ التي لا تنمحي، وفي مصر اسـتقرَّت أمي وإخوتي واعتادوا على غيابي، ولا أحد ينتظرني في قطر بعدما هربت مهيرة. هي لم تصبر على غيابي شهرًا واحدًا، فكيف يمكن أن تكون «نورا»

قـد صبرت على غيابي هذه السـنوات؟! لابد أنهـا تعيش الآن هانئةً وحولها أطفالها الكثيرون وزوجها الذي يريدها كل ليلةٍ في حِضنه، وثريده. أنا لا يريدني أحد، وليس لي صاحبة ولا ولد.

.. ارتميـتُ على السـرير المعدني مستسـلمًا لخاطـر البقاء بهذا المـكان بقية حياتـي، فقد تجـاوزت الآن السادسـة والثلاثين وبعد شـهرين أبلغ السـابعة والثلاثين، يعْني لم يبقَ مـن عمري كثير. وقد ضاع منه الأجمل، فلا بأس لو انقضى الباقي في سـكون. ولعل الله يعوضِّني في الآخرة، فيجعل لي في الجنة بيتًا جميلًا، له شـرفة تطل علـى نهرٍ يشـبه النيـل. ماؤه لبنٌ حليب أو عسـلٌ مصفًّى. وسـتكون بالبيـتِ حوريـات بيضـاوات لهنَّ من الحسـن كل نصيـب، أصيبُ منهنَّ التي أشـتهيها وقتما أشاء، وقد أشتهي منهنَّ في بعض الأحيان اثنتيـن، معًـا، أو ثلاثًا مختلفـات الملامح والمـذاق. فأهل الجنة لا يملّون مـن النوال إلى أبد الآبدين، ولا يكتفون من اشـتهاء باهرات الحسـن، المسـتترات في الخيـام انتظارًا لإشـارة الرجـال الفائزين بنعيم الجنَّات. وسـوف أرتدُّ شابًّا، وتواتيني القوة اللازمة للاستمتاع بنسـوة الجنة الصغيرات، الكواعب الأتراب.. كيف؟ لا أدري، ولا أحـد يدري كيف سـتنقضي في الجنة الأوقـات ﴿الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ ولكن لـن يكون لي الولد الذي حلمت به، فالحورُ العين لا يحبلـن، ولا يُنجبـنَ أطفـالًا لـلأزواج. لا، الجنةُ فيهـا ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سـمعتْ ولا خطر على قلب بشـر، وربما يزوِّجني الله فـي الجنة «نورا» فأنجب منها أطفالًا كالبـدور المنيرة. ربما. مع أن الحديـث النبوي يقول: إن المرأة في الجنة تكون لآخر أزواجها في

الدنيـا، ولا بد أن «نورا» قد تزوَّجت من بعدي. أنا ما تزوَّجتها أصلًا لتكـون لـي. تزوَّجتُ «مهيـرة» ومعها طاب وقتي، ثـم عرفتْ رجلًا غيـري بعـد غيابي بشـهرٍ، ولابـد أن صاحبها حصل لهـا على حكم بالتطليـق مني، وتزوَّجها.. مـا عدتُ أريد رؤية «مهيـرة» مجدَّدًا في هذه الدنيا، ولا في الآخرة، ولا أريدُ أن أرى «نورا» مع رجلٍ غيري. ومـا عدتُ أريد أطفـالًا في دنيا أو آخرة، ولا رغبـة عندي في قضاء الوطـر مع الحور العين اللواتي لا يشـتهين، ولا معنى لسُـكناي في بيتٍ يُشـرف على نهرٍ أبيض ليس فيه أسـماكٌ تُصاد.. ما بقي لي أملٌ في دنيا، أو آخرة، ولا رجاء لي إلا في الفناء التام والسكون.

ں ں ں

مـا هـذا العنبر العجيـب؟ كأنـي أعيشُ في هـذا الفراغ الفسـيح وحدي، فلا أحد هنا يحادثني ليلًا أو نهارًا، إلا نادرًا. ولكن لا بأس، فليـس لديَّ ما يمكن الشـكوى منه مثلما كان الحـالُ أيام اتَّصَلَ بين المعتقلين الحديث وكثر الكلامُ.. بلا حماسةٍ أمضيتُ أيامًا في قراءة كتـاب الإمام الغزالي «إحياء علوم الدين» فوجدته بأقسـامه الأربعة مـن مهدئات الخواطر والنفـوس. وكان رُبع «العبادات» منه، ألطف عنـدي مـن رُبع «العـادات»، ورُبع «المنجيـات» أرقَّ وقعًـا من رُبع «المهلـكات».. كنتُ أجلس عند الطاولـة التي بجوار أرفف الكتبِ وصـوتُ المطـر الصيفي يأتي إليَّ مـن خلف الجـدران عاليًا، حين رأيـت الدكتورة «سـارة» تدخل ومـن خلفها جنديان علـى أكتافهما البلـلُ مـن أثر الأمطار. بلطـفٍ، صرفتِ الجنديين وجلسـتْ قبالتي وأسـندت كوعهـا إلـى الطاولة، بعدمـا خلعت عنها الـرداء الأبيض وعلَّقتـه على مسـمارٍ ليجف. مـا كنتُ أعرف أنها تضع شـارة الرتبة

العسكرية رائد «ميجور» تحت رداء الأطباء، وأن قوامها الأنثوي قويٌّ على هذا النحو البديع ومتين. سألتني عما أقرؤه فأخبرتها بصوتٍ خفيضٍ أنه الكتاب السادس من الربع الرابع المسمَّى «المنجيات» وهو آخر أقسام الموسوعة الدينية المسماة «الإحياء». استفسرتْ عن المؤلِّف وموضوع هذا الجزء من كتابه، فأجبتُ بأنه فقيهٌ ومتصوفٌ مرموق كان يعيش منذ قرابة ألف سنة، وموضوع هذا الجزء هو المحبة والشوق والأنس والرضا! فلما ابتسمتْ إعجابًا بالعنوان، شرحتُ لها أن المراد هو محبة الله، والشوق إليه، والأنس به، والرضا بقضائه. قالت بلفظٍ رقيق وعينين تتوهجان بالذكاء البِلَّوْري الأزرق:

- *نعم، هذا لطيف. ولعله السبب في انشغالك بالسماء أكثر من الأرض، ولذلك لم تردَّ حتى الآن على العرض الذي قدمه لك «مارتن» قبل ثلاثة أسابيع.*
- *لم يقدِّم لي عرضًا، وإنما اقترحُ نهايةً مزريةً لقصتي البائسة.*
- *تعبيرك أدبيٌّ وبليغ، لكنه غير صحيح. لأنني أعتقد أن «مارتن» يريد مصلحتك.*
- *أين مصلحتي! وهو يخيِّرني بين أمرين كلاهما مرير. أن يسلِّمني للأمن لأكون سجينًا ببلادي، أو يستغلَّني ويجعلني جاسوسًا لبلادكم؟*
- *هذا غير صحيح. ويبدو أنه لم يوضِّح لك الأمر بطريقة جيدة. انظرْ لا أحد يريد منك التخابر أو الخيانة. لا، مطلقًا. وأعتقد أن «مارتن» يجب أن يشرح لك الأمر بشكل أوضح، هو سيأتي إلى هنا عقب عطلة عيد الاستقلال.*

-- لا بأس.. ومتى هذا العيد؟

- هو اليوم الرابع من شـهر يولية. والآن قُل لي: هل تنام بشـكلٍ جيدٍ هذه الأيام، أم تحتاج منوِّمًا؟

- لا أحتاجُ أيَّ شـيء. وبالعكس، أنامُ هنا وقتًا طويلًا وأكثر جدًّا من اللازم.

- أوكّي، إذا احتجتَ شيئًا فلا تتردَّد في إبلاغي.

-- شكرًا يا سيدتي.. ليت كل الأمريكيين كانوا مثلك.

- ولكن في هذه الحالة لن أكون متميِّزة، أراكَ قريبًا.

بعدما سلَّمتُ على الملَكين في ختام صلاة العصر، رأيت رجلًا نحيلًا يلبس الأبيض مثلي، ومعه ثلاثة جنودٍ أدخلوه إلى زنزانةٍ قريبة من تلك التي أنام فيها. بعد خروجهم خرج خلفهم ليقف عند الباب، وعند مروره بي ألقى عليَّ سلامَ الإسلام فرددتُ عليه تحيته. عاد بعد قليل، وكنت بعد لا أزال جالسًا على الأرض قرب الطاولة أُدير مسبحتي بأصابعي، فناديتُ عليه: مرحبًا يا أخي، ما اسم الكريم؟ ارتبك لحظةً كأنني سألته عن شيءٍ خطير، قال بعد تردُّدٍ «أبو سلمى» وأسرع بالابتعاد.

سلمى! منذ متى كان المجاهدون يحملون ألقابًا مؤنَّثة، ويتسمَّون بمثل هذا الاسم؟ لم يبقَ الرجل إلا أسبوعًا أمضاه هنا خائفًا يترقَّب، ولم أعرف عنه خلال تلك الأيام إلا القليل؛ لعزوفه عن الكلام وإيثاره الصمت والوحدة. لكنني لاطفتُه وترفقتُ في الحديث معه حتى عرفتُ منه أنه سعوديٌّ اعتقلوه أواخر العام الماضي في العراق لأنهم ظنُّوه مقاتلًا، بينما كان يبحث عن أخيه الأصغر الذي ذهب

إلى بغداد ولم يعد، وعنده بالفعل بنتٌ اسمها «سلمى». جلبوه إلى هنا بسبب اشتباهٍ في اسمه، ولم تستمر فترة اعتقاله إلا ستة أشهر ظل خلالها محبوسًا بمعسكر «دلتا» مع كثيرين، ولما استعلموا عنه عرفوا أنهم اعتقلوه بطريق الخطأ. لم يعتذروا بطبيعة الحال، لكنهم وافقوا بعد توقيعه على الاستمارات، أن يطلقوه في بغداد ليعود إلى وطنه بطريقته بدلًا من تسليمه للجهات الأمنية ببلاده. هذا كل ما أخبرني به، وما أظنه قد أخفى عني شيئًا. الذي أثار استغرابي فيه، أنه لم يكن يحافظ على الصلاة، ولما سألته عن ذلك أجاب بسرعة: الله غفورٌ رحيم! وكانت تلك هي المرة الوحيدة، التي جاوبني فيها من دون أن يتردَّد أو يتوجَّس.

الله غفورٌ رحيم! متى يا رب ستغفر لي وترحمني برحمتك التي وسعتْ كُلَّ شيء؟ الليلة التي رحل فيها «أبو سلمى» كانت ليلة طويلة عليَّ، وهطل المطرُ فيها غزيرًا بالخارج فبقيت طيلة الليل. أُنصتُ إلى صوت المطر المنهمر، وقبيل الفجر انتبهتُ إليه وسمعته بقلبي فوجدته شجيًّا. تابعتُ إيقاعه، فبدا لي أن الكون من حولي يعزف موسيقاه. وعند بزوغ الشمس غمرني شعورٌ غريب؛ إذ شعرتُ بأنفاس هذا المكان وأدركتُ على نحوٍ خفيٍّ، أن كل ما فيه يسبِّح باسمه تعالى: الحافظ.

«يا حافظ.. يا حافظ. يا حافظ» سبَّحتُ مع ما حولي من كائناتٍ وجماداتٍ حتى أخذني الوسنُ ولساني يلهج بالاسم الإلهي، وفي منامي رأيتُ مجلس الشيخ «نقطة» وأحباءه يجلسون من حوله في الحلقة المعتادة، ويتكلمون كالمعتاد. لم يكن الشيخ جالسًا في مكانه، ولكنهم لا يشعرون بأنه غير موجود! في الصباح سألت

الحارس الذي جاءني بوجبة الإفطار إن كان اليوم هو الأربعاء أم الخميس؟ فضحك يقول ما ترجمته: لا هذا ولا ذاك، إنه الأحد الموافق العشرون من شهر مايو، سنة ٢٠٠٧ بالطبع! وهو يخبرني بذلك، نظر إليَّ بعينٍ تستكشف إن كنتُ مازلتُ عاقلًا، فأردتُ دفع الوسواس عنه بأن قلت مبتسمًا إنني أعرف تاريخ اليوم، لكن أيام الأسبوع تتداخل أحيانًا على السجين لأنها متشابهة.. هزَّ رأسه بأسًى صادق، وقال وهو يفارقني: عندك حق، أرجو أن تخرج من هنا قريبًا.

كتبتُ رؤياي على ظهر الأوراق المشتجر فيها اسمه تعالى «الفتاح» وجعلتها مؤرَّخةً، وكنت ساعتها غافلًا عن أنها ستكون واحدة من كرامات الشيخ، الذي لا تحصى فضائله في الحياة، وبعد الانتقال. لأنني بعد قرابة عام عرفت أن الشيخ توفي في تلك الليلة بالذات، وانتقل من دنيانا الفانية هذه، إلى جوار ربه، وكان مريدوه ليلتها يبتهلون من بعد صلاة العشاء إلى بزوغ الفجر، بالترنيمة الشجية: ما دايم إلا الدايم، ولا دايم غير الله..

بعد يومين رأيتني في المنام أسيرُ على حافة بحيرة النوبة التي خلف السدِّ، وكانت تسير بجانبي طفلةٌ مليحةٌ سمراءُ، أُلهمت في رؤياي أنها ابنتي. جلستُ بجوار طفلتي نصطاد في المكان الذي خبَّأت فيه قبل سنواتٍ بعيدةٍ صنارة الصيد، وكنا كلما أخرجنا سمكةً تعالت في الأجواء أصداء ضحكاتنا.. في الصباح كتبتُ رؤياي وتاريخها، وخرجتُ في الوقت المسموح به إلى الموضع الذي أرى منه البحر المحيط. أثناء جلستي، أدركتُ أن رؤياي تُخبرني بأن الدنيا سوف تُقبل عليَّ بوجهٍ مشرقٍ حنون، يحمل معه الخير العميم. إن شاء الله.

ساعة العصر كنتُ جالسًا بجوار الكتب أقرأ الصفحات الأخيرة من «الإحياء» حين جاءتني الدكتورة «سارَّة» وفي يدها كتاب. قالت إنهم أخبروها بأنني أقضي وقتًا طويلًا في القراءة، فأرادتْ أن تهديني هذا الكتاب الصغير لعله يعجبني. شكرتها على اهتمامها، وبعد رحيلها نظرتُ في عنوان الكتاب فتذكَّرت الطبيب الطيب الذي رأيته هنا في الزمن العصيب، وكان أيامها يتوقع وفاة والدته. فالكتاب حسبما يدل عليه عنوانه الصريح «كتاب المورمون» يتحدث عن ديانة هذا الرجل وجماعته.

لماذا أهدتني «سارة» هذا الكتاب الآن؟ لابد أن لها غرضًا. أمضيتُ يومين كاملين في القراءة، وأيامًا تالية أتفكَّر فيما قرأتُ وأندهش مما عرفتُ عن هذه الديانة. المورمون جماعةٌ دينية أمريكية يبلغ عدد أفرادها ستة ملايين، وهم حسبما يعتقدون في أنفسهم قومٌ يتطهَّرون، لكنهم لا يترهبنون ولا يستعملون الصليب. والعجيب أنهم يصلون في اليوم خمس صلوات، ولا يشربون الخمر، ويحرِّمون لحم الخنزير، ويدفعون زكاة العشور، ولا يرون بأسًا في تعدُّد الزوجات. يعني، لو مَنَّ الله عليهم لجعلهم على دين الإسلام، فهم قريبون منه لكنهم لا يعلمون، ولهم أولياء يشبهون أنبياء بني إسرائيل أولهم اسمه «جوزيف سميث» وهو الذي نشر مذهبهم في ولاية يوتا. ومن رجالهم البارزين، وليٌّ من الصالحين عاش يتشبَّه بالأنبياء اسمه «لورينزو سنو» كان يقول لهم: كما هو الإنسان الآن، كان الخالق يومًا ما؛ وكما هو الخالق الآن، يمكن أن يكون الإنسان! وقد ذكَّرني كلامه هذا، بالحديث الشريف الذي

سـمعته قديمًا في مجلس الشيخ «نقطة» وفيه يقول نبي الإسلام: إن لله مائة خُلُق وسبعة عشر خُلُقا، مَنْ جاءه بخُلُق منها دخل الجنة.

ويعتقـد هـؤلاء «المورمـون» أن الوحـي الإلهـي لا ينقطـع عن الكون، ولا يتوقف. وهو ما يقترب من قولنا في الإسلام، إن العلماء ورثة الأنبياء! هل أرادتْ «سـارَّة» أن تقول لي بشكل غير مباشر، إن النـاس قريبـون مـن بعضهم بأكثر ممـا يظنون؟ قلتُ لهـا ذلك حين رأيتهـا، فابتسـمت وهي تقـول ما ترجمتـه: ما كان يجـب أن يُعتقل شخصٌ ذكيٌّ مثلك طيلة هذه السنوات، أنا آسفةٌ حقًّا لحدوث ذلك.

يـوم الأربعـاء الرابـع من شـهر يوليـة، كانـوا يحتفلون هنـا بعيد استقلال بلادهـم ويبتهجـون مثلمـا نفعل فـي أعيادنـا الدينية وهم سـعداء. السـعداءُ كُرمـاءُ. الجنـود والحـراس كانـوا كرمـاء فـي معاملاتهم وهداياهم التي نالني منها وجبة غداء فاخرة، وعلبة كبيرة من الشـيكولاته. لكننـي كنتُ مشـغول البال عن ذلك بمـا هو بعيدٌ وبمـن هو بعيـد؛ لأن مجيء «مارتـن» كان قد اقتـرب موعده، ومن المتوقع عند مجيئه أن تنحسم الأمور. وقد كان، فما كادت تمر بعد عيدهم ثلاثةُ أيام، حتى جاءني جنديٌّ في الصباح وأخذني لمكتبه.

حين رآني حيَّاني بلفظٍ فصيح: «أهلًا يا صديقي» وبابتسـامةٍ، ثم سـألني بالعاميـة القاهرية المعتـادة عن أحوالي في الفتـرة الماضية، معتذرًا عن تأخُّره عليَّ طيلة هذه المدة بسـبب انشغاله. هذا ما قاله. هـززتُ رأسـي بما معناه «لا بأس»، فأضاف أنـه يأمل أن تلك الفترة كانـت كافية لـي؛ لأتوصَّل إلى قرار بشـأن الطريقة الأفضل للإفراج عنـي! فقلـتُ إنني كأيِّ شـخصٍ يُحبـس هنا، لا أحب أن يتسـلَّمني

الأمن في بلادي ليحبسني من جديد لأجلٍ غير معلوم، فتكونوا قد عالجتم ظُلمكم بظُلم أفدح. وهذه طبعًا مشكلة، لكنني لن أقبل بأي حَلٍّ يجعلني عدوًّا لبلادي أو جاسوسًا لبلادكم، أو أكون..

قاطعني بقوله إنه أخبرني المرة السابقة بأنهم لا يريدون عملاءَ أو جواسيس، وليس مطلوبًا مني أيُّ شيء. وعقب استقراري بالقاهرة ربما ينقضي عمره وعمري من دون أن يتم اتصال مع الأمريكيين أو يصلني أي طلب منهم. هذا ما قاله، فأثار استغرابي وسألته من فوري: فما سبب اهتمامكم بأمري؟ فاحتدَّت لهجته وهو يقول مع نظرةٍ صادقة إنهم، كما ذكر لي من قبل، عرفوا أنهم أخطأوا باعتقالي لكنهم لن يعترفوا بهذا الخطأ، لعدة أسباب أهونها عليهم أنني سوف أطالب بالتعويض أو ردِّ الاعتبار بالاعتذار. هذه ليست مشكلة كبيرة. الأهم هو الأصداء الدولية لهذا الأمر والآثار التي ستنجم عنه، فأمريكا لها في العالم أصدقاء. ولكن لها أيضًا أعداءٌ لدودون. ومعظم الناس خارج أمريكا تنظر إليها بعين التوجُّس، بسبب سياستها الخارجية. كما أن مسألة كهذه، المتعلِّقة بي، سوف توجِّه الأنظار بقوة إلى تلك السجون المسماة «الحفر السوداء» التي اضطرت أمريكا لإنشائها سرًّا؛ لأسبابٍ معينة، وهي تقوم اليوم بإغلاقها تباعًا وليس من المناسب توجيه الأنظار إلى ذلك الآن.. التقط أنفاسًا مكروبةً، وأكمل كلامه بالإنجليزية فقال ما ترجمته: وطبعًا، إذا اعترفنا بمثل هذا الخطأ، فسوف تتحول الجمعيات العاملة في حقوق الإنسان إلى أعداءٍ لنا، وعداوتهم لن تفيدنا في شيء وقد تضرُّنا كثيرًا. وهناك أيضًا دافع شخصي، هو أنني كنتُ أعارض فكرة الاعتقال السري وسياسات البطش في هذه

المعتقلات، وأتمنى اليوم أن نغلق هذا الملف الكريه بأقل ضرر ممكن؛ كي ينشأ أطفالي في عالم أفضل..

- *عندك عيال!*

- *نعم، أربعة.*

- *ما تخيَّلتُ أنك متزوِّج.*

- *اتجوزت مرتين.. المهم خلينا في موضوعنا، واتركني أكمِّل.*

بدا لي أنه صادقٌ في كلامه، وملامحه تؤكّد ما بدا لي. لا سيما أن خاطرًا أخذ ينجلي لي، بسطوعٍ متزايد: صحيح، ما الذي يمكن أن يستفيده مني الأمريكيون مستقبلًا، وعندهم ببلادنا من المفيدين كثيرون؟ ولو أطلقوني ثم طلبوا شيئًا لا يناسبني، فسيمكنني مماطلتهم أو الفرار منهم تمامًا، بدلًا من بقائي هنا حيث لا مجال لمماطلةٍ ولا أمل في فرار. بإمكانهم هنا، دون الرجوع إليَّ، تسليمي إلى الأمن السوداني أو الباكستاني مع توصية بإسكاتي عن الكلام في فترة اعتقالي، فيُسكتني هؤلاء إلى الأبد. والذين فضَّلوا الانتحار على تسليمهم لأمن بلادهم، لم تسنح لهم فرصة الاختيار المتاحة الآن لي. مساكين. لابد من أنهم عرفوا معلومات أكيدة، ومخاوف، ودوافع أخذت بناصيتهم إلى خسران دنياهم وآخرتهم بإقدامهم على الانتحار. ولكن، هل المصير المفجع في معتقلات بلادنا، أشنع مما جرى معنا هنا؟ وهل شناعة هذه المعتقلات وبشاعتها، أشدُّ من حرص المسلم على آخرته، فيخسرها وهو الذي قد خسر دنياه؟ قطع «مارتن» أفكاري بقوله: لا، إنتَ سرحان خالص. خلاص، نكمِّل كلامنا بكرة.

ن ن ن

عصفت الأسئلةُ برأسي طيلة ليلتي، وتأرجح دماغي مع زلزلة المخاوف البعيدة والأحلام التي اقتربت، فبقيتُ مسهَّدًا على سريري أتقلَّى فوق جمر القلق والترقب والرغبة والرهبة. كان النهار التالي مطيرًا لكن أجواءه دافئة، وهواءه يحمل رائحة البحر المحيط، فقدَّرت أنها من البشارات التي يقوِّي الله بها قلوب المؤمنين «اللهم اهدني سواء السبيل، اللهم اهدني سواء السبيل ..». رحتُ أسبِّح بذلك أثناء سيري أمام الجندي الذي أخذني إلى «مارتن» الذي وجدته يستقبلني بوجهٍ صباحيٍّ صحوٍ، يخلو من غيوم الريبة والشك المحلِّقة في سماء ذاتي. اعتبرتُ ذلك بشارةً أخرى تدل على اقتراب الخلاص، فابتدأتُ الكلام مستبشرًا بالخير وأخبرته بأنني موافق على ما أسماه أمس «ترتيبات استقراري بالقاهرة» لكنني أريد أن أعرف طبيعة هذه الترتيبات؛ لأنني لا أعرف عن القاهرة أكثر من أنها عاصمة مزدحمة بالناس. ابتسم ابتسامةً خفيفةً وحدَّثني بما فحواه أنني سأكون مستريحًا بين أسرتي، ولسوف يُسرعون بإنهاء الإجراءات الخاصة بمنحي الجنسية المصرية واستخراج جواز سفر جديد، وستكون لي وظيفة جيدة الأجر في إحدى الشركات التي يملكها قريبي «حمدون أبو الغاب» الذي صار مؤخرًا شخصية إسلامية مؤثرة.

- *إسلامية، يعني إيه؟ هوَّ كان يصلِّي ويصوم، وبس، وبيشتغل في السياحة.*

- *هو دلوقتي بيصوم ويصلِّي وبيعمل حاجات تانية، وعنده أشغال كتير غير السياحة، مقاولات وبقالة..*

- *بقالة؟!*

- أيـوه، عنده سلسـلة محلات كبيـرة. على فكرة أخوك سـفيان بيشـتغل معاه مـن فترة، مُحاسـب، وكمان اتجـوِّز بنته. فاكر اسمها؟

- زينب..

- صحْ.

- طيـب، ولمـا الخال حمدون يسـألني: «كنت فيـن الفترة اللي فاتت؟» أقول له إيه؟

- لن يسألك عن أي شيء.

- آه، فهمت. يعني أنتم على اتصال بحمدون.

- هـوَّ واحـد مـن أصدقائنا فـي مصـر؛ أصدقائنا المهمِّيـن جدًّا دلوقتي.

- ده كلام عجيب فعلًا. حمدون أبو الغاب صديق أمريكا، إزاي يعني صديق؟

- شوف، المسألة محتاجة شوية شرح..

مارتـن مولع بالشـرح والتوضيح، كالمدرِّسـين. مال على مكتبه ورسـم خريطـة تقريبيـة للوطن العربي، وأشـار بعلامـة × إلى مصر والسـودان وتونـس وليبيـا واليمـن وسـوريا، وقـال إن هـذه البلاد يحكمها منذ عشـرات السـنين رؤساء لهم خلفية عسـكرية، ويعاني أهلهـا فسـادًا كثيرًا. قاطعته قائلًا: إن سـوريا لم يعـد يحكمها رئيس عسـكري! فـردَّ بـأن طبيعـة النظـام الحاكم هنـاك لا تزال عسـكريةً ومذهبيةً، والذين يرثون الحكم عن العسـكريين عسكريون.. عقب قوله ذلك أشـرقت شـمسٌ في الغرفة، فجأةً، إذ دخلت علينا الطبيبة

الضابطة «سارة» في ثوبها الوهاج لونه كالشمس، ووجهها المستدير الوضَّاح كالشمس، وابتسامتها المطمئنة المشرقة كالشمس.

قام لها مارتن وحيَّاها بمودةٍ حيَّتني هي بمثلها، ولم يتكلما إلا قليلًا. كيف حالك يا عزيزتي سارة؟ بخير.. وأخبار العمل؟ جيدة.. صديقنا أخبرني الآن بأنه اقتنع بالحل الأفضل؛ وبالتالي عليك تأهيله للإفراج عنه قريبًا! عظيم.. سوف أغادر في المساء، هل تريدين مني أيَّ شيء؟ شكرًا لك يا عزيزي مارتن، وآسفة للمقاطعة لكنني أحببتُ أن أراك لدقيقة واحدة في هذا اليوم المزدحم، أوكي، أكملا الكلام وأعتذر لكما مجددًّا عن هذه المقاطعة، ولن أطيل عليكما أكثر من ذلك.

ليتها أطالتْ. عاد مارتن للكلام معي بالعربية، واكتسى بهيئة المدرسين مجددًا وهو يشير بقلمه إلى العلامات التي رسمها على الخريطة، راح يشرح: في هذه البلاد فسادٌ كثير لا يمكن السكوت عليه؛ لأنه يعرِّض المنطقة لأخطار كثيرة، ولدينا هناك مصالح حيوية. وقد تحدثنا إلى أصدقائنا في مصر لإعادة تشكيل مجتمعهم على أسس أفضل، نظير مساعداتٍ سخيةٍ من صندوق المنح الأمريكية. لكنهم أخذوا المساعدات وماطلوا، وبدلًا من «إعادة التشكيل» يقومون بأعمال دعائية مخادعة تحت شعار «الإصلاح» وبالطبع، الفارق كبير بين الإصلاح وإعادة التشكيل. وكلنا نعلم أن الذين أفسدوا في مجتمعٍ، لن يكونوا يومًا هم المصلحين فيه. هذه بديهيات. المهم، أننا نجد مراوغة غبية من جانب هذا النظام، وهذا بطبيعة الحال أمرٌ غير مقبولٍ، ويضطرنا للبحث عن بدائل أخرى.

- *بدائل لإيه بالضبط؟*

- لنظام الحكم.

ولقيتم بديل.

- يعني، المطروح دلوقتي على الساحة هُمَّ الإسلاميين .

تاني!

- الواقع كـده. أصل هُمَّ ناجحين مع الناس، وكانوا مقبولين في انتخابـات برلمانية حصلت من سـنتين، ولسَّـه فيه انتخابات جايه في سنة ٢٠١٠ ولازم نعمل حسابنا ليها.

- طيب، وانتم أساسًا مالكم بمصر؟

- قلت لك، عندنا مصالح ولازم يكون لينا أصدقاء. وبعتقد إنَّك قُرَيـب مـن الإسـلاميين دُول، وأكيد هايرحبـوا بيك معاهم. وعلشـان كده، وجودك في مصر الفترة الجاية هايكون مفيد للجميع، بما فيهم أنت طبعًا.

بس أنا ماليش في السياسة والحاجات دي.

- الموضوع مش سياسة وبس، فيه أمور كتيرة تانية.

- طيب..

قلـتُ الكلمـة الأخيـرة مستسـلمًا لعـدم اسـتيعابي؛ ولعجـزي عـن فهم كثير مما شـرحه «مارتن» ثم سـألته عمـا يخصُّني تحديدًا: مـاذا كان يقصد بقولـه للدكتورة إن عليها «تأهيلـي»، ومتى بالضبط سأخرج من هنا، وكيف سأدخل مصر بجواز السفر السوداني، وهل يمكننـي الآن الاتصال بأسـرتي؟ نظر إليَّ بعينيـن يغزوهما الإعياءُ،

فسكتُ لأسمعه وهو يقول بعبارات محددة إن اتصالي بأسرتي لم يأتِ موعده بعد، وترتيب دخولي لمصر سوف يتولونه هم على أفضل وجه فلا يجب أن أقلق، وموعد إطلاق سراحي سيتحدَّد قريبًا، ولكن لابد أولًا من عمل عدة جلسات مع «سارة» لكي أتهيَّأ للعودة إلى الحياة الطبيعية. نظر نحوي بمودةٍ وافرةٍ وهو يقول إن دوره معي ينتهي اليوم، وهناك زميل له اسمه «مارك» سوف يتولى من الآن ملفِّي، ويتابع معي تفاصيل الفترة القادمة. فترة الانتقال.

لـنـدن

تواردتْ على رأسـي أفكارٌ تدفَّقتْ خـلال رجوعي إلى جُحري الانتقالـي، وخامرني خاطـرٌ مبهمٌ بأن هذه لن تكـون المرة الأخيرة التـي ألتقي فيها بمارتـن. لكنها كانت. وبدا لي أن أكتب فور عودتي للزنزانـة قصيـدة يكون مطلعها «فـي تلافيف التيه، يكتـوي المتفكِّرُ ويمرحُ السـفيه» وأجعلها كملحمةٍ أحكـي فيها ما جرى معي خلال الأعوام السـتة الماضية. لكنني لم أكتب. وتوهَّمتُ أن بقائي هنا لن يطول لأكثر من شهر، وليس لي حقيبة سفرٍ لأحزمها، ولا داعي لما وصفه «مارتن» بالتأهيل. لكن رحيلي تأخر خمسـة شـهور، وكانت هناك أمورٌ كثيرة لا بد من حسمها وحزمها كي أتأهَّل للحرية، بعدما استطال حبسي.

حين دخلتُ العنبر كنتُ مشوَّشًـا فلم أستطع البقاء بجوار أرفف الكتـب، أو تبديد الوقت بالنوم في الزنزانة، وكانت السـماء الغائمة قـد أوقفـت أمطارها فخرجتُ إلى الموضع الـذي أرى منه المحيط والأسوار الشائكة التي تحيط، وجلستُ ساكنًا في موضعي المعتاد.

مثل صقرٍ وقع في الشِّباك. بعد حينٍ اجتاحني الإحساسُ بالوحدة، فلم أقدر على إمساك الدمع الساخن الذي انسال من عيني، ولم يره إلا الله.

الوحدةُ تحرقُ الأرواح، وتجعل القلوب كالرماد المتطاير. هذان الحارسان قريبان الآن مني موضعًا، لكني وحيدٌ. والمعتقلون كانوا يصخبون من حولي في عنبر الانتحار، وكنتُ بينهم وحيدًا. وفي الدوحة كانت مهيرة تنام في الغرفة القريبة، وأنا في صالة الشقة وحيدٌ مثلما كنتُ حين حُبستُ منفردًا بالزنزانة المزدوجة. الوحدة تحيط بنا عند الانفراد، وقد تحوطنا ونحن بقرب الآخرين. وحين ننام، وحين تصحو أحلامنا وترحل بنا عن اللحظات الحاضرة، وحين نعجز عن فهم نفوسنا. نحن دومًا وحيدون، جدًّا، إلا حين نحب.

بعد يومين استدعتني «سارة» وأخبرتني بوضوحٍ تامٍّ بأننا اعتبارًا من الآن، علينا الحوار بصراحةٍ في أمورٍ كثيرةٍ إلى أن تتم الموافقات الضرورية والترتيبات اللازمة للإفراج عني. قلتُ: طيب. وأول ما يجب علينا في هذا السياق، الحديث عن فترة اعتقالك التي لا شك في أنها كانت قاسية وظالمة، لكنها مرَّت بسلام ولم تترك فيك إلا الآثار النفسية التي لابد من فهمها وإدراك حدودها؛ كيلا تحتقن وتصير عُقدًا نفسانية يصعب البرءُ منها. قلتُ: طيب. وعلينا الآن أن ننظر إلى الأمور من عدة زوايا، ولا ننحصر في الناحية الشخصية فقط، وبذلك يمكن لنا فهمُ الخبرات التي تمر بنا سواءٌ كانت مبهجة أو محزنة. قلتُ: طيب. وقد أخطأ الأمريكيون في حقِّك عندما اعتقلوك بهذا الشكل العشوائي، وطبعًا

لـن نخترع لهم مبرِّرًا يبرئهم من ذلـك، ولكن علينـا الانتباه إلى أن تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر كانت مدوية، ومؤلمة، ومسقطة للهيبة الأمريكية في العالم، خصوصًا أنها تزامنت مع ازدياد الشعور بالقدرة الأمريكية على إدارة العالم بعد سقوط الاتحاد السـوفيتي. وهـذا الفعل العنيف الصـادم أدَّى إلى ردود أفعـالٍ عنيفة وصادمة، كان منها الاعتقال العشـوائي والتشـدُّد في مواجهة تنظيم «القاعدة» على قاعدة: الذي ليس معنا فهو عدونا.

- *يا سـيدتي. أنتم اخترعتم تنظيم القاعدة أصلًا، فلماذا تشتكون مـن مـاردٍ وهمـيٍّ قمتـم بصناعتـه والترويج له؟ وشـكواكم ليسـت بريئـة؛ لأنكـم لم تكفُّـوا يومًا عـن دعـم المتطرفين، ماداموا يعملون لصالحكم.*

هـذا صحيح. لكن المخطئ يميل تلقائيًّا إلى الدفاع عن خطئه حين ينكشف، وأرجوك أن تلاحظ الآن أنني لا أمثل الجانب الأمريكـي، وإن كنـت أحـد أفـراده. أنـا طبيبـة رأت الآثـار المدمرة لحروب أمريكا خـارج الحدود، وقد عالجتُ كثيرًا من جنودنا الذين أتلفت نفوسهم حربُ الخليج. وفشلتُ في معالجة كثيرين من ضحايا هذه الحرب.

أنا لم أحارب أحدًا..

- *أعـرفُ. وأعرفُ أنك ظُلمت كثيـرًا؛ ولذلك أهتمُّ بك وأريدك أن تخرج من هنا، بأقل الخسائر النفسية الممكنة.*

شـعرتُ فجأةً بأن ذهني مكدودٌ، وأحسسـتُ بسـطوة النُّعاس تُثقل قلبي وجفنيَّ فاعتذرتُ من «سارة» واستكملنا الكلام في المرة

التاليـة، التـي أعقبتها مراتٌ كثيرة. كنا نلتقـي كل بضعة أيام فنجلس ســاعةً أو ساعتين، وكانت تجتهد في تشـجيعي على البوح، وتصبر علـى الاسـتماع لأنيـن آلامـي المزمنـة. في واحـدةٍ من الجلسـات الأولـى احتالـت علـيَّ برفقٍ حتى تحدثنـا عما فعلتـه «مهيرة» فكان الكلامُ مؤلمًا، لكن «ســارة» استطاعت إقناعي برؤية الأمر من زاويةٍ أخرى، بتذكيري ببعض البديهيات الواضحة وبإعادة النظر في الفعلة الفاضحة. قالت: انظرْ، لقد كانت زوجتك صغيرة الســن، ولا خبرة لها. وللنساء كالرجال احتياجاتٌ لا تتوقف عند الرغبات السريرية، بــل تتعدى ذلك إلى الاحتياج للأمان والشـعور بالحماية والنوم بلا قلق. وهذهِ المسـكينة كانت تقيم بالبلدة الخليجية بناءً على تصريح إقامـة يتجدَّد، وزوجها الذي هو سـبب إقامتها مفقودٌ، ولن تجد من بعده العون الذي تحتاجه. فكان هذا الجزائري، بالصدفة، هو طوق نجاةٍ لها. هي لـم تهرب معه لأنها تريد الخيانة أو تبحث عن المتع أو تريد تحسـين الأحوال. لا شـيء من ذلك، بل كانت مضطرة لقبول أول يدٍ تمدّ لها العون، ولا سـبيل أمامها غير الذي فعلته تحت وطأة الظـروف القاسـية والوحدة الطاحنـة. هي مظلومـةٌ. ولابد لمظلوم مثلـي أن يتفهَّم ظـروف أمثاله مـن المظلومين الآخرين، ويتسـامح معهم بقدر ما يستطيع.

في نهاية هذه الجلسـة نظرتْ «سـارة» في عُمق عيني وقاع قلبي ثم قالت بنبرةٍ سماويةٍ حاسمةٍ، وحنون، ما ترجمته: مهيرة أصبحت بالنسبة إليك ذكرى وتاريخًا سابقًا يجب نسيانه، لأنه قد يدمِّرك نفسيًّا إذا أدمنتَ استعادته مستقبلًا.. وتوالت من بعد ذلك الجلساتُ، وفي كل مـرةٍ نتكلـم عن أمرٍ مختلـفٍ: أيام طفولتي ومخاوفـي القديمة،

آمالي المستقبلية بعد استقراري بمصر، نورا، علاقتي بالذين كانوا معتقلين معي في العنبر، حادثة الانتحار الثلاثي، أحوالي خلال فترة الحبس الانفرادي، سالي، المورمون، أيامي الميتة في بلاد الخليج، الحنين إلى البحيرة التي خلف السد، عظمة المصريين القدماء، القصائد التي أبدأ دومًا فيها ولم أتمّ واحدةً منها، الأمل، القلق، الصبر.. ومع الأيام استطبتُ الجلوس أمامها وجريان الأحاديث المريحة بيننا، بل صرتُ أشتاق إلى ذلك. ورويدًا، ارتفع الحرجُ بيننا وتلاشت الكلفة، حتى إنني قلت لها ذات يوم مُداعبًا إياها بأدبٍ: هل تعلمين أن اسم «سارة» عربيُّ الأصل، ونحن ننطقه «سارَّة» بتشديد الراء، وهو يعني عندنا المرأة المبهجة. يومها لم تندهش، وإنما استمعتْ إليَّ باهتمامٍ ثم قالت بهدوءِ الملكات: لا، هذا الاسم أصله عبريٌّ، ومذكور في العهد القديم: «تسمينَ من الآن سارة؛ لأنك تسرّين القلب».

هي تسرُّ القلب والروح حقًّا وصدقًا، وقد أدهشني منها أنها تهتمُّ كثيرًا بما أحكيه لها عن مجلس الشيخ «نقطة» وما أترجمه لها من كلماته الرمزية ونكاته الدقيقة التي يصعب نقلها بدقةٍ إلى اللغة الإنجليزية. ولما سألتها عن سرِّ اهتمامها هذا، وهل هو يتعلَّق بالحالة النفسية لي، قالت: لا، أهتمُّ بذلك لسببٍ شخصيٍّ؛ لأن لي مرشدًا روحيًّا يشبه شيخك، لكنه على ديانةِ الطاوية، وكلاهما يعبِّر عن حالةٍ روحيةٍ واحدة.

لحظتها أدركتُ سرَّ ذلك النور الشفيف الذي أراه في وجه سارَّة، ومن بعدها صرتُ أشتهي النظر إلى وجهها المنير وأحبُّ التأمل في ملامحها. ولكن، ليس بمثل ما يكون بين الرجل المحروم والمرأة

الجميلة. قلتُ لها في واحدة من جلساتنا الأخيرة: إنني صرتُ أراها كثيرًا في أحلامي وأفكّر فيها دومًا خلال النهار، فلم تندهش. قالت إن ذلك شعورٌ طبيعي، ومؤقّت. وصارحتها يوم أخبرتني بأن جلستنا هذه هي الأخيرة، بأنني صرتُ أتمنى أن أبقى بقية عمري قريبًا منها، فلم تستغرب كلامي. قالت إن لي حياةً عريضةً تنتظرني، ولن أتذكرها كثيرًا بعد ذلك. وعند وداعها لي قلتُ: ليتكِ كنت مسلمة! فقالت وهي تبتسم: وليتك كنت مسيحيًّا!

ن ن ن

في منتصف الشهر الأخير من العام ٢٠٠٧ جاء رجل المخابرات البريطاني، الذي أخبرني «مارتن» بأنه سيتولّى أموري لحين استقراري بالقاهرة. هو رجلٌ غريبٌ لا يشبه رجال المخابرات الذين ظننتهم على شاكلة ما نراه في الأفلام، وتوهّمتُ أنهم بالضرورة يشبهون ضابط أمن الدولة الذي استدعاني في أسوان قبل سنين: طويلًا، نحيلًا، ضيّق العينين، قاسي النظرات، بطيئًا كالثعابين، لا يبتسم.. لكنني رأيت هنا صورةً أخرى في «مارتن» الشبيه بمدرسٍ أنيق الهيئة يعتز بعلمه وأناقته ويحب التوضيح والشرح، والآن أرى صورةً مناقضة تمامًا في «مارك» بقامته الممتلئة المائلة إلى القصر، وصدره الهابط وبطنه المقبّب وعينيه الواسعتين. وهي هيئةٌ تجعله في ذهني، أشبه بتُجار الجملة ومالكي الفنادق الرخيصة وقُدامى البقّالين! وهو بالإضافة إلى مظهره البسيط، مهزار. عرّفني بنفسه في أول لقاء، بأن تكلّم بسرعة قائلًا ما ترجمته: أهلًا يا ابن عمي، قالوا لي إنك تتحدث الإنجليزية بطلاقة، وهذا جيد، أنا صديقك «مارك» اسمي بالإنجليزية مارك، وباليونانية واللاتينية ماركوس وماركيوز.

وبالإيطاليـة ماركـو، وبالعربيـة مرقـص، وأصدقائـي يسـمونني «إم كي». يمكنك أن تناديني بأي اسمٍ يعجبك من هذه التشكيلة.

ومـن طرائف شـخصية هذا الرجل أنه يتعامـل بمرحٍ مع الجميع حتـى لو كانوا من الحراس العابرين، ويكلِّم الناس كأنهم كانوا يومًا زملاءه في المدرسـة. وهو يقول الأشـياء الخطيرة، ببسـاطةٍ ويُسر، مثلمـا فعل معي في جلسـتنا الأولى إذ قال بطريقتـه الغريبة: انظر يا صديقي، كل ما سـأخبرك به الآن، يجب أن يظل سـرًّا بيننا. لا تخبر به أيَّ شـخص، أيَّ شخص؛ لأن مصلحتك في كتمانه. حسنًا، إليك ما سـنفعله. سـوف نُسقط السـنوات السـابقة من عمرك، ونعود إلى يوم اعتقالك، فيكون الأمر كالتالي: أنت لم تدخل أفغانسـتان لأنك أُصبت بمرضٍ غريبٍ فور وصولك إلى باكسـتان، وساءت أحوالك عنـد الحدود مـع أفغانسـتان فذهب بك بعـض النـاس الطيبين إلى مستشـفى. وقد تنقَّلـت بين عدة مستشـفيات هنـاك، ولكن احتار فيك الأطبـاء فترة طويلة. ولأنك فقدت كل أمتعتك ولـم تكن معك أوراق شخصية، لم يتمكن أحد من معرفة هويتك والاتصال بسفارة بلدك.. هذه بطبيعة الحال حكاية حقيرة، ومبتذلة جدًّا، لكن أقاربك سـوف يصدِّقونها لأنهم يريدون أن يصدِّقـوا. المهم أنك نُقلت عن طريـق إحـدى جهـات الإغاثـة لتعالج فـي لنـدن، بعدما يئسـوا من علاجك في باكسـتان. ولذلك، سـوف تقضي شـهرين أو أكثر قليلًا في لندن، وتبدأ من هناك اتصالك بأسرتك وتخبرهم بأنك أفقت من الغيبوبة، وأخذت تبحث عنهم حتى عرفت أنهم انتقلوا من السودان لمصر. قريبك «هامدون بو الحجاب» سوف يساعد على تمرير هذا الموضـوع، وفـي توفير عمل مناسـب لك لا يحتاج منـك كثيرًا من

الجهـد، وبعد ذلك سـوف تستمر فـي حياتك كما يحلـو لك. هذا كل شيء.

هذا الكلام غير كافٍ لإقناع أي عاقل.

- سيكون كافيًا ومقنعًا لأسرتك، والآخرون لن يهتموا بتاريخك السابق ولن يسألوك عنه؛ فالقاهرة ليست قرية صغيرة.

- طيب، ما الداعي لحبسي في لندن هذه الفترة الإضافية؟

- هـه هـه، لـن تكـون حبيسًـا هناك يـا صديقـي، ستكون حرًّا. حرًّا تمامًا.

- الحمد لله. ومتى سينقلونني إلى لندن؟

- سـآتي لآخـذك معي يوم الرابع عشـر من ينايـر، وبقاؤك هناك لفترةٍ مناسـبةٍ، سـوف يسـاعدك على اسـتعادة ذاتـك. وهذا مهم لك. وبالمناسـبة، سوف أتحدث معك في المرة القادمة بالعربية، لكنني أردت اليوم أن أتأكد من درايتك بالإنجليزية. هه هه.

- لا بأس. هل هذا كل شيء؟

- تقريبًا، وفي لندن سـوف أكون قريبًا منك، وسأتابعك من بعيد فـي القاهرة حتى تحصل على الجنسـية المصرية، ثم أتركك تعيش في سلام هناك.

- لـم يحدث في الأيام المملة التالية أيُّ جديد، إلا شـيءٌ واحد جرى قبـل مجيء «مـارك» بيومين. كنتُ جالسًـا فـي الصباح قرب بوابـة إجوانـا، عندمـا رأيـت ثلاثـة حـراس يدخلون وفي وسـطهم

«محب الحور» في الزي الرياضي الأبيض! اندهش كلانا لرؤية الآخر، وقمتُ إليه مرحبًا فردَّ عليَّ بتحفظٍ لم أفهم سببه. ساعة صلاة الظهر ذهبتُ إلى زنزانته المفتوحة التي بآخر الممر، ولم يكن قد خرج منها منذ دخلها، وسألته إن كان يريد أن نصلِّي جماعة، فهزَّ رأسه موافقًا.

بعد الصلاة سألته عن أخباره، فقال إنه لا يريد أن يتحدَّث في أي شيء، ولا داعي لأن نصلِّي بعد الآن معًا! قلتُ: «سبحان الله» وقمتُ من جواره تاركًا إياه فيما يريده من الانفراد. وفي صباح اليوم التالي لمحته جالسًا وحده عند الربوة التي نرى منها المحيط، فلم أستطع مقاومة إغواء الكلام معه.. اقتربت منه برفق وألقيتُ التحية: صباح الخير يا خير الدين. قال ببرود: وعليكم السلام! قلتُ: مُبارك لك الإفراج إن شاء الله، خلاص راجع تونس؟ تردد قليلًا ثم همس بخفوتٍ كمن يريد أن ينهي الكلام: لا، باريس، سأعيش هناك بين الإخوة..

في اليوم الموعود، عدتُ إلى زنزانتي وبقيتُ أعد الدقائق حتى أبلغوني ساعة العصر بوصول مارك، فابتهجتُ وتقافز قلبي بين الضلوع. بوجهٍ يفيض بالانبساطِ المعتاد منه، أخبرني بأننا سنرحل فجرًا من هنا بحرًا ثم بطائرة عسكرية إلى نيويورك، ومن هناك سنذهب إلى لندن في طائرةٍ مدنيةٍ؛ لأعتاد على الوجود بين الناس.

- *ولكن ماذا سأرتدي أثناء السفر؟*

- *ملابسك الرياضية هذه، وفي لندن نشتري لك ما يناسب مقاسك.*

- *هل يمكنني المرور على الدكتورة سارة؛ لأودِّعها؟*

- قالوا لي إنها في إجازة، هل تريد أن تحدِّثها تلفونيًّا؟

- نعم، إذا كان ذلك ممكنًا..

- طبعًا، ممكن جدًّا.

بعد ساعتين كنت مستلقيًا على سريري أحدق عاليًا في اللاشيء، عندما دخل عليَّ «مارك» الزنزانة وفي يده تلفون محمول وأخبرني بأن «سارة» على الخط. كلَّمتها لأشكرها على كل شيء، وقلت لها إنني سأخرج غدًا مع مارك من هنا. ردَّت بصوتها الرائق الذي سمعته لآخر مرة: تهانيَّ إليك، وأتمنى لك كل الخير، وأريد منك في أيامك الآتية أن تستمتع بالحياة، لا تتردَّد ولا تفزع من الناس وتطاوع نفسك في الابتعاد عنهم، فلا أحد منهم يسعى لإيذائك.

بعد انصراف مارك ارتميتُ على السرير مثلما كنتُ أفعل في زمن الطفولة، السعيدة، واستخفَّ الفرح بقلبي فوددت لو أطير في السماوات البعيدة. أنا فعلًا أطيرُ بخيالي، وأكاد أرى الأكوان البعيدة كلها، وألمس النجوم بأطراف أصابعي. ياه. الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني، وإليه النشور، والشكر لك يا أرحم الراحمين.

بخطى هوجاء خرجتُ قبيل المغرب أبحث عن «محب الحور» لأودِّعه، فرأيته عند أحواض الزرع جالسًا كأثرٍ قديم. احتضنته فاندهش، ومنعتُ دموعي من الانهمار أمامه فانهمرتْ دموعه هو، وبالمحبة الأولى التي جمعتنا أخبرته بأنني سأرحل من هنا مع شروق الشمس، حرًّا، فقال إنه يتمنى لي السلامة ويرجو أن يراني على خيرٍ في أي مكان آخر. سألته عن موعد رحيله إلى فرنسا، فقال إنه لم يعرف بعد، فهم يقولون إن الأمر يحتاج وقتًا لإنهاء

الإجـراءات. سـألته إن كان يحن إلى تونس، فقال إنه يتحرق شـوقًا إليها، وقلبه يحدِّثه بأنه سيدخلها يومًا ظافرًا مع إخوانه المسلمين.

۞ ۞ ۞

مـن جُوَّنتنامـو إلى لندن ركبنـا مركبًـا، وطائرةً صغيـرة، وطائرةً كبيرة. كنتُ سـعيدًا جدًّا، ولكنْ ضجَّة المطار كادت تُطيش دماغي، وأرهقـتْ عينيَّ الألوانُ الكثيـرة ووجوه العابريـن. الناسُ كلهم من حولي مسـرعون. استغرق وصولنا النهار بطوله ومعظم الليل، ولما وصلنـا إلى محـط طائراتهم المسـمى «هيثرو» وجدته مدينـةً كبيرةً عامرة، وليس مجرد مطار. خرجنا منه فجرًا فوجدتُ السماء رماديةً فظننتُ ذلك غبش البواكير، لكنني وجدت السماء في الصباح رماديةً أيضًـا، وفي وقت الظهيرة. وعرفـتُ لاحقًا أن هذه المدينة لا تعرف النهار ولا شـمس الشتاء، في أي وقتٍ من الأوقات. أوقاتي الأولى كانـت بطيئةً ومُملـةً كالمدينة، وبـاردةً مثلها. ورويـدًا اعتدتُ على الخروج وحدي، وقدرت على مقاومة شـعوري المبهم بالانكسار، وميلي إلى البقاء بين الجدران. كأنني في لندن استغربتُ حريتي.

في يومي الأول أعطاني «مارك» سـاعة يدٍ وتلفونًا محمولًا ليس فيـه إلا رقـم واحـد، وقال: اتصـل بي عنـد الضرورة. واشـترى لي ملابس من محلٍّ كبير اسـمه «مارك وسبنسـر» وأسكنني هذه الشقة الضيقـة، القريبـة من شـارع كبير اسـمه «طريـق إدجـوار» وترك لي مبلغًا من المال وقال إننا سـنلتقي كل بضعة أيام. وفي العاشرة مساءً تركني وحيدًا، بعدما أوصاني بالمشي قدر ما أستطيع وبالحديث مع الناس أحاديث عموميةً، كلما سـنحت لـي فرصة الكلام مع العرب الذيـن يسـكنون بكثـرة في هـذه المنطقـة اللندنية، ولكنـه حـذَّرني

مـن الخوض معهم فـي التفاصيل، ومن تقوية صلتي بأي شـخص: انظـر يا ابن عمي، أنت هنا مصري يعمل بمجال السـياحة، ويحضر دورة تدريبية. لا تقل لأي شـخصٍ أكثر من ذلك، واسـمعْ أكثر مما تتكلم.. قال ذلك وهو يبتسـم، ثم وكز كتفي مشـجعًا وخرج بعد أن صاح وهو يبسط ذراعيه، قائلًا بالعربية: مرحبًا بالحرية.

حين انفردتُ استغربت نفسـي وحريتي، وكان غريبًا عليَّ عودة هـذه الأفعال والمشـاعر المنسـية: أن أغلـق بابي مـن الداخل، وأن أغني دون أن يسـمعني أحـد أو يتهمني بقلة العقـل، وأن أتعرى من غيـر خجلٍ، وأن أختار طعامـي من بين عدة مأكـولات متاحة، وأن أقدر على الخروج وقتما أشاء وفي جيبي جواز السفر..

الشارعُ الرئيسُ واسعٌ ونظيف، وفيه مطاعم ومقاهٍ كثيرة مكتوب عليها بالعربية أنها لبنانية، وتفـوح منها على استحياءٍ رائحةٌ عطرية.. في أول صباحاتي اللندنية سرتُ متوجِّسًا بمنتصف الأرصفة النظيفة في الشـارع الكبير المسمَّى طريق إدجوار، فكنتُ كعنكبوتٍ يتصعَّد على جدارٍ أملس. اتجهتُ يمينًا فانتهى بي السير بعد ساعةٍ إلى حديقةٍ واسـعةٍ، لا ترى حدود اخضرارها العينُ، فرأيتُ الأسـلم ألا أتوغل فيها اتقاءً لفقدان بوصلة الرجوع. جلسـتُ سـاكنَ الظاهر مضطربَ الباطن، على طرف مقعدٍ طويلٍ خشبيٍّ، شبيهٍ بتلك الدِّكَك الحجرية التـي عنـد ضفة النيـل بالأقصر وشـاطئ البحر بالإسـكندرية، لكنه أنظف. ما هذا البردُ الشـديد، والدفءُ الداخلـي، والدخانُ الخارجُ من فمي مع الأنفاس؟ وما تلك الخضرةُ القوية التي تحتشد برؤوس الأشجار وتنبسـط على الأرض فتجعل المكان كالجنان؟ بعد حينٍ لـم يمتد طويلًا، جـاء رجلٌ وقف قبالتي صامتًا فـوق منصةٍ، فتحلَّق

حوله جماعةٌ لا يزيد عددهم على العشرين. حملقوا فيه انتظارًا لما سيقول، فقمتُ مُتباطئًا ووقفت معهم. لم ينظر أحدهم نحوي ولم يستغربوا انضمامي لهم، ولما تكلَّم الرجل عرفتُ أنه مهووس. فقد تزايد هيجانه بوتيرةٍ متسارعة، وهو يشتم ملكة البلاد واصفًا إياها بالمرأة المجرمة! ثم احتدَّ وقال إنها يجب أن تُعدم؛ ليتحرَّر الناس من العُهر الراسخ في القصر الملكي!

نظرتُ في وجوه السامعين من حولي، فوجدتهم ينصتون باهتمامٍ ومن دون انفعال، فعرفتُ أنهم مهووسون يستمعون لمهووسٍ عتيدٍ منهم. خفتُ الوقوف بينهم وتهيَّأت للهروب بعيدًا عن هذا الجمع المشبوه، وقدَّرتُ أن قوات الأمن ستأتي للقبض عليهم، ثم تلقي بهم في قاع معتقلٍ رهيب. سرتُ ببطءٍ كي أموِّه على الذي يراقبنا من بعيد، فيظن أنني أخطأت الطريق فوقفتُ حتى انتبهتُ للخطأ، فترحلتُ عن الخطر بسلام، وأسرعتُ الخطى حتى وصلت بأمان إلى الشقة الصغيرة، الدافئة. بعد يومين. عرفتُ أنه لم يكن هناك مَنْ يراقب الجمع المهووس من بعيد، ولا من قريب، وأن أي شخصٍ بإمكانه أن يقول أي شيء في هذه الحديقة. مارك أخبرني بذلك وهو يُظهر اندهاشه من أنني لم أسمع من قبل بحديقة هايد بارك.

في اليوم التالي خرجتُ ساعة العصر، ومررت بالمقاهي المزدحمة بالرواد، وراودتني نفسي على الجلوس بين الناس فاخترتُ مقهى كبيرًا منها، في مدخله لوافت صغيرة مكتوبة باللغة العربية. عرفتُ عندما دخلتُ بحذرٍ، أن الروائح العطرية الفواحة تنبعث من دخان الشيشة التي يسمونها هنا «أرجيلة»، قال لي القهوجي: هل تريد واحدة؟ فقلت إنني لا أدخِّن، وطلبتُ كوبًا

مـن الشـاي دفعـتُ فيه سـبعة جنيهات كاملـة، إسـترلينية. في مصر والسـودان، يكفي مبلغٌ كهذا لشـرب الشـاي لمدة شـهر كامل، في المقاهـي المحيطـة بمحطـات القطـارات والمتناثـرة بالأحياء التي يسـكنها الناس العاديون من أمثالي. بلا أيِّ مقدمات، سـألني شابٌّ من الثلاثة الجالسـين علـى الطاولة الأقـرب: الأخ مصري؟ فأجبته بالإيجاب. قال بلطفٍ إنني أشـبه صديقًا له، فتوجَّسـتُ منه وقطعت حبل الكلام بابتسامةٍ باردةٍ، وناديتُ النادل لأعطيه الحساب وأهرب من المكان والكلام.

وصلت إلى الشـقة بعد دقائق، سـالمًا، واسـتلقيتُ على السـرير الواسـع مسـتمتعًا بالغوص في الفرش الوثير، ثم نمتُ بعدما مررتُ علـى جـميع قنوات التلفزيون، عدة مـرات متتالية. كان نومًا مريحًا نسـيتُ لذَّتـه منـذ زمـنٍ بعيد. فـي الصبـاح التالـي خرجـتُ مبكرًا، ومشـيتُ في جهة اليسـار من الشـارع بأنشـط من خطـوي المعتاد، قاصـدًا الوصـول إلـى آخـر الشـارع مـن الجهـة الأخـرى المقابلة للحديقة، فوصلت إلى ميدان لطيف الاتسـاع تحوطه مقاهٍ ومسارح ودور سـينما. بلطفٍ، سـألتُ بائع الشـطائر الهندي الذي على يسار الداخـل إلـى تلك السـاحة المزدحمة، مستفسـرًا منه عن اسـم هذا المكان. قال متعجِّبًا من سـؤالي إنه ميدان «ليستر» فشكرته ومشيتُ خطوات معـدودة حتى وصلت لأول مقهى قابلني من جهة اليمين، فجلستُ عليه. مكتوبٌ فوقه «ستاربكس». الناسُ هنا كثيرون وكثيرٌ من الجالسـين حولي يتكلمون بالعربية، وكثيرٌ من المارة يتسـكَّعون ولا يسـرعون الخطى، وكثيرٌ مما أراه محيرٌ. فتاةٌ فاتنةُ السيقان تسير بثوبٍ قصير في هذا الجو البارد، شـابٌّ طويلٌ يصيحُ وسط أصحابه

بأنه يريد ممارسة الجنس، ثلاثُ نساءٍ محجبات لا يظهر من زينتهنَّ إلا ما قد ظهر، زنجيٌّ يشربُ الخمر في وضح النهار وهو جالسٌ على الأرض، حبيبان لا يشعران بمن حولهما وهما يتبادلان القُبلات جهرًا..

ساعتان مرَّتا على جلوسي بالمقهى من دون أن يسألني أحد العاملين به، عما أريد أن أشربه. امرأةٌ في حدود الأربعين مصبوغةُ الوجه بفاقع الألوان، كانت تجلس على الكرسي القريب مني. ملابسها الضيقة وجوانبها المترهلة، تلفت الأنظار، لكنَّ الذين حولها والعابرين من أمامها لا يكترثون بها ولا يلتفتون إليها. لما نظرت نحوها مرتين مستغربًا بهرجتها، انتبهتْ لاهتمامي وسألتني بالعربية وهي تنظر في عيني بلا خجل: إنتَ سعودي؟ قلت: «لا»، فردَّتْ من فورها: شور إنتَ، مصري يا حبيب قلبي! فأدركتُ أنها مضطربة نفسيًا، وقمتُ من جوارها مضطربًا بعدما أدركتُ أنها تريد ما لا أريد. لم تصدني عنها العفَّةُ، وإنما الخفَّة التي قالت بها «حبيب قلبي» كأن الحب شيءٌ ملقى على قارعة الطريق. لم أشأ الدوران في الميدان الصغير كيلا أعود إلى المقهى؛ هاربًا منها فاستكملتُ المشي في ذات الاتجاه الذي جئت منه.

عبرتُ قضبان ترام تحتفُّ بطرف الميدان، ودخلتُ شوارع فيها محالُّ متجاورةٌ وجدتُ فيها العجب العجاب، مكتوبٌ فوقها أنها «دكاكين الجنس»، وطبعًا تهيَّبتُ من دخولها ومن سؤال أي شخصٍ عن مقصودهم بأن يكون للجنس دكان.

مساءً، ضحك «مارك» وهو يخبرني بأن هذا الحيّ العجيب اسمه «سوهو» وهو مخصَّص للدعارة، وبأنه يمكنني جلب امرأة من هناك

إلى هذه الشقة لأنكحها مقابل عشرين جنيهًا، فصحت فيه بالعربية: أستغفر الله العظيم. ضحك بصوتٍ أعلى وهو يخبرني بأنه سيمرُّ عليَّ غدًا في السادسة مساءً ليصحبني إلى هذا الميدان اللطيف، ويمكنني في الصباح أن أركب واحدة من الحافلات الكبيرة المكتوب عليها «جولة في لندن» لأشاهد أهم معالم المدينة. لكنني في الصباح حين رأيتُ هذه الحافلات الحمراء، خشيتُ أن أفعل ما نصحني به «مارك» خشية أن أضل الطريق فلا أعرف سبيل الرجوع، وصرفت النظر عن هذه الجولة السياحية. في الموعد الذي ذكره «مارك» انتظرته عند باب البيت، فأخذني في سيارته الصغيرة إلى ميدان ليستر، وهناك أفهمني وهو يدعوني للدخول إلى المحل لنحضر شيئًا نشربه، أن في «ستاربكس» هذا، يدفع الناس قبل أن يأخذوا المشروب. وإذا اكتفوا بالجلوس في خارجه، فلن يدفعوا شيئًا نظير جلوسهم. سألت «مارك» إن كان بإمكاني غدًا الدخول إلى سينما من تلك الكثيرة بالميدان؛ لمشاهدة أي فيلم؟ فقال: طبعًا، معك ألف جنيه، تستطيع أن تفعل أي شيء.

- *أنفقتُ منها سبعة وثلاثين!*

- *لا يهم. أنفقها كلها وسأعطيك غيرها، ولكن لا تخرج من الشقة بأكثر من مائة جنية، واحذر النشالين.*

- *ولكن، لماذا تعطيني هذا المال بلا مقابل؟*

- *يا صديقي، هذا مال الأمريكيين الذين يريدون الاعتذار إليك وتعويضك، عساك أن تصير صديقًا، بعدما تأكَّدوا من أنك لست عدوًّا لهم. وبعد استقرارك في القاهرة سأسلِّمك*

أربعين ألف دولار من أموال العم سام، ولن تراني بعد ذلك. سوف تشتاق إليَّ بطبيعة الحال! هه هه.

- لا أريد منهم مالًا، ولا من غيرهم، حتى حقوقي القديمة في الدوحة لن أُطالب بها. لا أريد أي شيء من الماضي، سأعملُ وأعيش مما أكسبه، واللهُ هو العاطي.

- كما تحب، والآن ما رأيك في أن نركب مترو الأنفاق ونذهب إلى «بيكادلي»؟

- لا مانع عندي..

محطةُ المترو القريبة من المقهى فسيحة، سرنا إليها خطوات قليلة ثم نزلنا من سلم هابط إلى هذا العالم الزاخر، المختفي تحت الأرض. في عربة المترو المهتزة بنا في دهاليز مظلمة، لم أجد مَنْ يجاورنا فسألت «مارك» عن سبب حديثه إليَّ بين الناس بالإنجليزية، لا العربية، فأجاب بأنه لا يريد أن يلفت إلينا الأنظار إذا ما استعمل تعبيرًا غير دقيق. في طريق رجوعنا سألته عن جدوى بقائي في لندن، فقال إن ذلك ضروري جدًّا بالنسبة إليَّ لإحياء مهارات التعامل مع الآخرين قبل دخولي في زحام القاهرة. قلتُ له إن اشتياقي لأسرتي أهم عندي من استعادة تلك المهارات، فردَّ بأننا نتبع برنامجًا لا يمكننا تعديل مساره. ولسوف أرى أسرتي بعد شهرين، وسأبدأ في الاتصال بهم بعد أسبوعين من الآن: لا تقلق من أيِّ شيء، ستكون كل أمورك على ما يرام.

ن ن ن

عصر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من هـذا العام الثامن بعد الألفيـن، جـاء «مارك» إلى شـقتي بمرحه المعتاد ومعه حقيبة سـفرٍ صغيـرة، وقال بالإنجليزيـة وهو يضع على الطاولـة الصغيرة تذكرة طائـرة: أخيـرًا، سنسـافر غدًا. هـذه تذكرتـك، وتلك الشـنطة تضع فيها ملابسـك لكي لا تثير الشـكوك عند نزولك بمطار القاهرة. في الحقيبة أربعون ألف دولار، مكافأة نهاية الخدمة..

- *قلـت لك يا «مـارك» إنني لا أريد مالًا مـن الأمريكيين، وهذه بقية الألف الجنيه التي تركتها لي أنفقت منها مائة وسبعين.*

- *لكنك تحتاج هذا المال يا ابن عمي، سوف يساعدك..*

- *اللهُ هو المساعد والمعين.*

- *كما تحب. سأعيد إليهم هذا المبلغ، وذاك. ولكن احتفظ بهذه «الفكَّة» فقد تحتاج هذه الجنيهات القليلة في المطار غدًا.*

- *ألن تأتي معي إلى القاهرة؟*

- *لا، سـأوصلك فقط إلـى هيثرو. وبعد إقلاع طائرتك بسـاعةٍ، سـوف أطيـر أنا إلى الجحيـم. المهم، هيا نخـرج الآن لآخر مرة؛ لتودِّع لندن العظيمة.*

كان المطـر ينهمـر متواصـلًا حيـن وصلنا فـي أول المسـاء إلى ميدان «ليسـتر» الذي صرتُ أحفظ جنباته، وكان يحلو لي الجلوس فيـه لأتأمَّل وجوه العابرين من مختلف الجنسـيات. أردت الخروج من تحت مظلة المطر التي يمسك بها «مارك» والدخول إلى مقهاي المعتـاد، فصـاح صاخبًـا بـأن المقهـى ليـس مناسـبًا لهذا المسـاء،

وأخذني إلى مكان آخر يقع في جهة اليسار. هو مقهى كالكهف الطويل، أضواؤه ملوَّنة، لا يبعد عن «ستاربكس» إلا بمقدار خطوات. مكتوب فوقه كلمة لم أفهم معناها «بوب». والأصح أن تُنطق: بَبْ. سألتُ «مارك» عن معناها، فضحك كطفلٍ وهو يقول: بَبْ يعني بَبْ.

على يمين الداخل فاترينات فيها زجاجات ملونة، وشبان وفتيات يخدمون الزبائن الكثيرين الجالسين على الناحية اليسرى وفي جوف المكان. سألني «مارك» عما أريد أن أشربه فقلتُ: «شاي»، فردَّ عليَّ باسمًا بأنهم لا يقدِّمونه هنا، وأضاف: ألا تريد مشروبًا كحوليًّا يناسب هذا البرد، وهذه الليلة الختامية؟ فقلت: هذا حرام علينا. كان ردُّه محيرًا، ولم أفهمه إلا بعد شهور: لا بأس، نريدك إسلاميًّا في الفترة المقبلة! وضحك كعادته ثم طلب لي مياهًا غازية، ولنفسه مشروبًا أحمر اسمه «مارية الدموية» ارتشفه باستمتاعٍ كبيرٍ، وكرَّر طلبه مرتين. المكان صاخبٌ جدًّا، ولا يمكن التحدُّث فيه إلا بصوتٍ مرتفع، فأمضيتُ الوقت في تأمُّل وجوه المحيطين بنا، بينما «مارك» مشغول عني باتصالاته الهاتفية والاستمتاع بمشروبه الأحمر.

في الحادية عشرة قبل انتصاف الليل، كان ازدحامُ المكان قد بلغ غايته. أناسٌ من كل الأعمار يعمرون الطاولات ويتحركون بينها وفي أيديهم الكؤوس، ويملأون المكان برائحة الكحول، وبالضجيج. أشرت لمارك كي نقوم فأومأ لي وهو يقول: «واحد للطريق» وطلب كوبًا آخر، أخيرًا، من مشروبه المسمَّى مارية الدموية. وهو يعبُّه عبًّا في جوفه، مرَّت بطاولتنا امرأةٌ بدينةٌ مسنةٌ، وحيَّتْ مارك تحية عابرة:

هـاي يودا.. رفع الـكأس التي بيده ردًّا لها على تحيتها، وقام ليخرج أمامـي بوجـهٍ يكسـوه الاحمرار. فرحـتُ بالخروج إلى هـواء الليل المنعش للأنفاس، وأسـرعتُ الخطى خلف «مارك» لنركب سيارته الصغيرة المصفوفة بالناحية الأقل ضوءًا من أطراف الميدان الخالي مـن المارة. الليل هنـا أهدأ كثيرًا من النهار، ومـارك صار أهدأ كثيرًا منِ المعتاد.

طريـقُ «إدجوار» خـالٍ من المـارَّة تقريبًـا، والمطـر توقف لكن برد الهواء الليلي شـديدٌ يلسـع جوانب الوجوه ويعصر الأنوف. بدا «مارك» غارقًا في عوالمه ومهمومًا، فسـألته إن كان بخيرٍ؟ فاسـتعاد المـرح المعتـاد منه وهـو يؤكِّـد: أكيد، أكيد. سـألته: هـل تفكر في الجحيـم التي ستسـافر غـدًا إليها؟ فقـال: دعنا الآن من باكسـتان.. فسايرته لتسلية الطريق، وقلتُ مداعبًا:

- *ألن تكفوا عن اللعب في تلك الأماكن الخطيرة؟*

- *لا نستطيع، والأمر فعلا خطير.. هناك شقيقان من أثرياء حركة طالبان في باكسـتان، ينويان الزواج باثنتين من أرامل «أسامة بـن لادن» للعناية بأطفالـه. ويجب منع ذلك؛ لأنه سـيفضح خبر وفاته..*

- *ماذا، أرامل! هل توفِّي بن لادن؟*

ألـم تكـن تعرف! قالـوا لي إن معتقلـي «جُوَّنتنامـو» جميعهم يعرفون ذلك.

- *ارتبكـتُ، فقلـتُ بلسـان المراوغـة إننـي سـمعت بذلـك هناك، ولكنني لم أكن متأكِّدًا.. قطع «مارك» كلامي بقوله: دعنا من هذا*

الحديث، ولا تتكلم ثانيةً في هذا الموضوع، هذه بنايتك فاصعدْ لتنام ليلتك اللندنية الأخيرة، وغدًا في العاشرة صباحًا سآمُرُ لآخذك إلى المطار، نم جيدًا، أحلام سعيدة.. عندما ودَّعته من خارج السيارة، رأيتُ وجهه مجهدًا ومتجهمًا على غير عادته.

لم أنم طيلة ليلتي، واستبدَّت بي الهواجسُ والخوفُ الغامض والقلقُ الذي لم ينقشع عني، إلا حين جلستُ في اليوم التالي بالطائرة، متفكرًا في أن سفيان أخي ومعه أمي وإخوتي، ينتظرون وصولي إلى مطار القاهرة بعد خمس ساعات من الطيران. بعد سبع سنواتٍ من الغياب. بعد ضياع عمر مديد وابتداء زمنٍ جديد لا يعلم إلا الله كيف سيكون. انتبهتُ لما حولي حين سألتني المضيفة عما أريده من الصحف المصرية، فقلت: كلها! وليتني ما فعلت؛ لأعفي نفسي من دوار الأخبار المزدحمة في جريدة لم أسمع اسمها «المصري اليوم» من قبل: رئيس مجلس الشعب «سرور» يصرِّح بأنه قد حان الأوان ليكون للإخوان حزبٌ سياسي، ووزير الإسكان «المغربي» يصرِّح بأنه إذا فشل في بناء الخمسمائة الألف مسكن التي وعد بها رئيسُ الجمهورية فسوف يقدم رأسه على الطاولة للذبح، ووزير الإسكان السابق «الكفراوي» يصرِّح بأن توشكى مشروع فاشل، المدمرة الأمريكية «جلوبال باتريوت» تقتل مواطنًا مصريًّا وتصيب اثنين آخرين اقتربوا منها في قارب وهي تستعد لعبور القناة عند السويس، المدمرة الأمريكية تغادر البلاد بعد ساعتين من الحادثة، أهل القتيل شيَّعوا جثمانه واحتسبوه شهيدًا والسفارة الأمريكية تنفي وقوع ضحايا، نواب البرلمان من الحزب الوطني والإخوان يتفقون على موقف موحَّد من «قانون الطفل» المزمع إصداره.

التقطتُ جريدةً أخرى، فقرأت فيها ما أثار عندي شجونًا قديمة: وزيرُ خارجية سويسرا يصرح في بلاده، بأن القطيعة مع مصر لن تدوم أكثر من ذلك، وسوف يزور القاهرة قريبًا ويعلن فيها أن مذبحة الدير البحري بالأقصر عام ١٩٩٧ قد صارت اليوم تاريخًا..

أخذني دوارٌ دعاني لإزاحة الجرائد والاستسلام لخطفات النعاس، وسعيتُ جاهدًا لاستجلاب الأفكار المبهجات إلى رأسي المؤرجح. قلتُ في نفسي: سوف يولد اليوم زمني السعيد، وسأرى أسرتي بعد ساعة من الآن، وأنا ما زلت في الثامنة والثلاثين من العمر وأمامي سنوات كثيرة سأفعل فيها الكثير، هذا السحاب الأبيض يذكرني بالبهجة القديمة البيضاء. كأن كل ما كان، ما كان. سأزور أم درمان وأسعد برؤية الشيخ نقطة، وأقضي أيامًا في أسوان وألتقي بسهيل العوامي، ولابد من الذهاب إلى الإسكندرية لأرى نورا.. ها هي الطائرة تهبط، فتنطوي مع هبوطها أيامُ الظلم والظلام، والحسراتُ التي لن تعود. أيامي الآتية ستمتلئ بفرحٍ.. وأمل..

ونور.